

تَفْسِيرُ الْمَرْأَةِ الْغَنِيَّةِ

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي
أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دارالعلوم سابقاً

الجزء الخامس

الطبعة الأولى
١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة

الجزء الخامس

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ،
وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ،
فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤)
وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحِ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ
بَعْضٍ، فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ
غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ، فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ
فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ، ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ
مِنْكُمْ، وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شرح المفردات

المحصنات واحدتهن محصنة (بفتح الصاد) يقال حصنت المرأة (بضم الصاد) حصنًا وحصانة إذا كانت عفيفة فهي حاصن وحاصنة وحصان (بفتح الصاد) ويقال أحصنت المرأة إذا تزوجت لأنها تكون في حصن الرجل وحمايته ، وأحصنها أهلها وزوجوها ، ما ملكت أيمانكم أى بالسبي في حروب دينية وأزواجهن كفار في دار الحرب ، فينفسخ عند ذلك نكاحهن ويحل الاستمتاع بهن بعد وضع الحامل حملها وحيض غيرها ثم طهرها ، والإحصان العفة ، والمسافح الزاني ، والاستمتاع بالشئ هو التمتع به ، والأجور واحدها أجر وهو في الأصل الجزاء الذي يعطى في مقابلة شئ ما من عمل أو منفعة والمراد به هنا المهر ، فريضة أى حصة مفروضة محدودة مقدرة ، ولا جناح : أى لا حرج ولا تضيق ، الاستطاعة كون الشئ في طوعك لا يتعاضى عليك ، والطول الغنى والفضل من مال أو قدرة على تحصيل الرغائب ، والمحصنات هنا الحرائر ، والفتيات الإماء ، محصنات أى عفيفات ، مسافحات مستأجرات للبقاء ، والأخذان واحداهم خدن وهو الصاحب ويطلق على الذكر والأنثى ، وهو أن يكون للمرأة خدن يزنى بها سرا فلا تبذل نفسها لكل أحد ، والفاحشة الفعلة القبيحة وهى الزنا ، والمحصنات هنا الحرائر ، والعذاب هو الحد الذي قدره الشارع وهو مائة جلدة ، فنصفها خمسون ، ولا رجم عليهن لأنه لا يتنصف ، العنت الجهد والمشقة .

المعنى الجملى

هاتان الآيتان من تمة ما قبلهما من جهة المعنى فقد ذكر في أولها بقية ما يحرم من النساء وحل من عدا من تقدم ووجوب إعطاء المهور ، وذكر في الآية الثانية

حكم نكاح الإماء وحكم حدهن عند ارتكاب الفاحشة ، لكن من قسموا القرآن ثلاثين جزءاً جعلوها أول الجزء الخامس مراعاة للفظ دون المعنى إذ لو راعوه لجعلوا أول الخامس « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ » .

الإيضاح

(والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم) أى وحرم عليكم نكاح المتزوجات إلا ما ملكت الأيمان بالسبي فى حروب دينية تدافعون بها عن دينكم وأزواجهن كفار فى دار الكفر وقد رأيتم من المصلحة ألا تعاد السبايا إلى أزواجهن فحينئذ ينحل عقد زوجيتهن ويكون حلالاً لكم بالشروط المعروفة فى كتب الفقه .

وحكمة هذا أنه لما كان الغالب فى الحروب أن يقتل بعض أزواجهن ويفرّ بعضهم الآخر ولا يعود إلى بلاد المسلمين ، وكان من الواجب كفالة هؤلاء السبايا بالإئفاق عليهم ومنعهم من الفسق - كان من المصلحة لهم وللمجتمع أن يكون لكل واحدة منهمين أو أكثر كافل يكفياها البحث عن الرزق أو بذل العرض ، وفى هذا ما لا يخفى من الشقاء على النساء .

والإسلام لم يفرض السبى ولم يحرمه ، لأنه قد يكون من الخير للسبايا أنفسهم فى بعض الأحوال كما إذا استأصلت الحرب جميع الرجال من قبيلة محدودة العدد . فإن رأى المسلمون أن من الخير أن ترد السبايا إلى قومهن جاز لهم ذلك عملاً بقاعدة (درء المناسد مقدم على جلب المصالح) فإن كانت الحرب لمطامع الدنيا وحفظ الملوك فلا يباح فيها السبى .

وقوله من النساء قيد جىء به لإفادة التعميم وأن المراد كل متزوجة لا العفيفات ولا المسلمات ، وقد جاء الإحصان فى القرآن لأربعة معان :

(١) التزوج كما فى هذه الآية .

(٢) العفة كما فى قوله : (مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ) .

(٣) الحرية كما في قوله : (وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ) .

(٤) الإسلام كما في قوله : (فَإِذَا أُحْصِنَ) أى : أسلم .

أخرج مسلم عن أبي سعيد الخدري أنه قال أصبنا سييا يوم (أوطاس) ولهن أزواج فكرهنا أن نقع عليهن فسالنا النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية فاستحللناهن وقال الحنفية إن من سبي معها زوجها لا تحل غيره ، إذ لا بد من اختلاف الدار بين الزوجين دار الإسلام ودار الحرب .

(كتاب الله عليكم) أى كتب عليكم تحريم هذه الأنواع كتابا مؤكدا وفرضه فرضا ثابتا محكما لا هوادة فيه ، لأن مصلحتكم فيه ثابتة لا يدخلها شك ولا تغيير .
(وأحل لكم ما وراء ذلكم) أى وأحل الله لكم ما وراء ذلكم مما هو خارج من مدلول اللفظ وإفادته ولا يتناوله بنص أو دلالة ، فيدخل بطريق الدلالة في الأمهات الجدات وفي البنات بنات الأولاد وفي الجمع بين الأختين الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها كما يؤخذ بعض الحرمات من آيات أخرى كتحريم المشركات والمطلقة ثلاثا على مطلقها في سورة البقرة .

(أن تبغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين) أى أحل لكم ما وراء ذلكم لأجل أن تبغوه وتطلبوه بأموالكم التي تدفعونها مهرا للزوجة أو تمنا للأمة ، محصنين أنفسكم وما نعين لها من الاستمتاع بالحرم باستغناء كل منكما بالآخر ، إذ الفطرة تدعو الرجل إلى الاتصال بالأشئ والأشئ إلى الاتصال بالرجل ليزدوجا ويُنتجَا .

فالإحصان هو هذا الاختصاص الذي يمنع النفس أن تذهب أى مذهب فيتصل كل ذكر بأى امرأة وكل امرأة بأى رجل إذ لو فعلا ذلك لما كان القصد من هذا إلا المشاركة في سفح الماء الذي تفرزه الفطرة إشارا للذة على المصلحة ، إذ المصلحة تدعو إلى اختصاص كل أشئ بذكر معين لتتكون بذلك الأسرة ويتعاون الزوجان على تربية أولادها .

فإذا اتنى هذا المقصد انحصرت الداعية الفطرية فى سفح الماء وصبه ، وذلك هو البلاء العام الذى تصطلى بناره الأمة كلها ، فإن بعض الدول الأوربية التى كثر فيها السفاح وقل النكاح بضعف الدين وقف نموها وقل نسلها وضعفت حتى اضطرت إلى الاعتراز بمخالفة بعض الدول الأخرى .

والاسترقاق المعروف فى هذا العصر فى بلاد السودان وبلاد الحجاز وبلاد الجراكسة غير شرعى ، وهو محرم لأن أولئك اللواتى تسترققن حرائر من بنات المسلمين الأحرار فلا يجوز الاستمتاع بهن بغير عقد النكاح ، والإسلام برىء من كل هذا .
(فما استمتعتم به منهن فأتوهن أجورهن فريضة) أى وأى امرأة من النساء اللواتى أحلن لكم ، تزوجتموها فأعطوها الأجر وهو المهر بعد أن تفرضوه فى مقابلة ذلك الاستمتاع .

وسر هذا أن الله لما جعل للرجل على المرأة حق القيام وحق رئاسة المنزل الذى يعيشان فيه وحق الاستمتاع بها - فرض لها فى مقابلة ذلك جزاء وأجرا تطيب به نفسها ويتم به العدل بينها وبين زوجها .

والخلاصة - أن أى امرأة طلبتم أن تتنوعوا وتتفعوا بتزوجها فأعطوها المهر الذى تتفقون عليه عند العقد ، فريضة فرضها الله عليكم ، وذلك أن المهر يفرض ويعين فى عقد النكاح ويسمى ذلك إيتاء وإعطاء ، ويقال عقد فلان على فلانة وأمهرها ألفا كما يقال فرض لها ألفاً ومن هذا قوله تعالى : « وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً » وقوله : « مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَقْرِضُوهُنَّ لَكُمْ فَرِيضَةٌ » فالمهر يتعين بفرضه فى العقد ويصير فى حكم المعطى وقد جرت العادة بأن يعطى كله أو أكثره قبل الدخول ، ولكن لا يجب كله إلا بالدخول ، فمن طلق قبله وجب عليه نصفه لا كله ، ومن لم يعط شيئاً قبل الدخول وجب عليه كله بعده .

(ولا جناح عليكم فيما تراضيتن به من بعد الفريضة) أى ولا تضيق عليكم إذا تراضيتن على النقص فى المهر بعد تقديره أو تركه كله أو الزيادة فيه ، إذ ليس الغرض

من الزوجية إلا أن يكونا في عيشة راضية يستظلان فيها بظلال المودة والرحمة والهدوء والطمأنينة ، والشارع الحكيم لم يضع لكم إلا ما فيه سعادة الفرد والأمة ، ورق الشؤون الخاصة والعامة .

(إن الله كان عليما حكيما) وقد وضع لعباده من الشرائع بحكمته ما فيه صلاحهم ما تمسكوا به ، ومن ذلك أنه فرض عليهم عقد النكاح الذي يحفظ الأموال والأنساب وفرض على من يريد الاستمتاع بالمرأة مهرًا يكافئها به على قبولها قيامه ورياسته عليها ثم أذن للزوجين أن يعملوا ما فيه الخير لهما بالرضا فيحظا المهر كله أو بعضه أو يزيدا عليه .

ونكاح المتعة (وهو نكاح المرأة إلى أجل معين كيوم أو أسبوع أو شهر) كان مَرخِصا فيه في بدء الإسلام وأباحه النبي لأصحابه في بعض الغزوات لبعدهم عن نسائهم فرخص فيه مرة أو مرتين خوفا من الزنا فهو من قبيل ارتكاب أخف الضررين ، ثم نهى عنه نهيا مؤبدا ، لأن المتمتع به لا يكون مقصده الإحصان ، وإنما يكون مقصده المسافحة ، وللأحاديث المصرحة بتحريمه تحريما مؤبدا إلى يوم القيامة ولنهى عمر في خلافته وإشادته بتحريمه على المنبر وإقرار الصحابة له على ذلك .

ومنع نكاح المتعة يقتضى منع النكاح بنية الطلاق ، ولكن الفقهاء أجازوه إذا نواه الرجل ولم يشترطه في العقد ، وإن كان كتمانُه يعد خداعا وغشا وعيبا بهذه الرابطة العظيمة التي هي أعظم الروابط البشرية وإيثارا للتنقل في مراتع الشهوات ، إلى ما يترتب على ذلك من العداوة والبغضاء وذهاب الثقة بين الزوجين حتى بالصادقين الذين يريدون بالزواج الإحصان والتعاون على تأسيس البيت الصالح والعيشة السعيدة . (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ من فتياتكم المؤمنات) المحصنات هنا الحرائر خاصة بدليل مقابلتها بالإماء ، والحرية كانت عندهم داعية الإحصان ، كما كان البغاء من شأن الإماء ، ومن ثم قالت هند للنبي صلى الله عليه وسلم على سبيل التعجب أو تزني الحرة ؟ وعبر عن الإماء بالفتيات

تكريما لهن وإرشادا لنا إلى ألا ننادى بالعبد والأمة بل بلفظ الفتى والفتاة ، وقد روى البخارى قوله صلى الله عليه وسلم « لا يقولنَّ أحدكم عبدى أمتى ، ولا يقل المملوك ربى ليقبل المالك فتاى وفتاتى وليقل المملوك سيدى وسيدتى ، فإنكم المملوكون والرب هو الله عز وجل » .

والمعنى — ومن لم يستطع منكم طولا فى المال أو الحال نكاح الحصنات اللواتى أحل لكم أن تبتغوا نكاحهن بأموالكم وتقصدها بنكاحهن الإحصان لهن ولأنفسكم فليتكح أمة من الإماء المؤمنات ، والطول (هو السعة المعنوية أو المادية) يختلف باختلاف الأشخاص فقد يعجز الرجل عن الزوج بحرة وهو ذو مال يقدر به على المهر لنفور النساء منه لعيب فى خلقه أو خلقه ، وقد يعجز عن القيام بغير المهر من حقوق المرأة الحرة فإن لها حقوقا كثيرة من النفقة والمساواة وغير ذلك وليس للأمة مثل هذه الحقوق .

وقد قدر الحنفية المهر بدراهم معدودة ، فقال بعضهم : ربع دينار ، وقال بعضهم : عشرة دراهم .

وليس فى الكتاب ولا فى السنة ما يؤيد هذا التحديد ، فقد ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لمن يريد الزواج « اتمس ولو خاتما من حديد » وروى أن بعض المسلمين تزوج امرأة وجعل المهر تعليمها شيئا من القرآن .

(والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض) أى فأنتم أيها المؤمنون إخوة فى الإيمان بعضكم من بعض كما قال :

« وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » فلا ينبغى أن تعدوا نكاح الأمة عارا عند الحاجة إليه ، وفى هذا إشارة إلى أن الله قد رفع شأن الفتيات المؤمنات وسأوى بينهن وبين الحرائر ، وهو العلم بحقيقة هذا الإيمان ودرجة قوته وكأله ، فرب أمة أكمل إيمانا من حرة فتكون أفضل منها عند الله « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ » .

(فانكحوهن بإذن أهلهن) الأهل هنا الموالى المالكون لمن أى فإذا أحبيتم فأكحهن ورغبتم فيه ، لأن الإيمان قد رفع من قدرهن فانكحوهن بإذن موالين . وقال بعض الفقهاء المراد من الأهل من لهم عليهن ولاية التزويج ولو غير المالكين كالأب أو الجد أو القاضى أو الوصى إذ لكل منهم تزويج أمة اليتيم .

(وأتوهن أجورهن) أى وأدوا إليهن مهورهن بإذن أهلهن ، إذ أن المهر هو حق المولى لأنه بدل عن حقه فى إباحة الاستمتاع بها ، وقال مالك : المهر حق للزوجة على الزوج وإن كانت أمة فهو لها لا لمولاه ، وإن كان الرقيق لا يملك شيئاً لنفسه لأن المهر حق الزوجة تصلح به شأنها ويكون تطبيقاً لنفسها فى مقابلة رياسة الزوج عليها ، وسيد الأمة مخير بين أن يأخذه منها بحق الملك ، أو يتركه لها لتصلح به شأنها وهو الأفضل والأكمل .

ومعنى قوله: (بالمعروف) أى بالمعروف بينكم فى حسن التعامل ومهر المثل وإذن الأهل . (محضات غير مسافحات ولا متخذات أخدان) أى أعطوهن أجورهن حال كونهن متزوجات منكم لاستأجرات للبغاء جهراً وهن المسافحات ، ولا سراً وهن متخذات الأخدان والأصحاب .

وقد كان الزنا فى الجاهلية قسمين سرى وعلنى : فالسرى يكون خاصاً فيكون للمرأة خدن يزنى بها سرا ولا تبذل نفسها لكل أحد ، والعلنى يكون عاماً وهو المراد بالسفاح قاله ابن عباس .

وكان البغايا من الإماء ينصبن الرايات الحمراء لتعرف منازلهن ولا تزال هذه العادة متبعة إلى الآن فى بلاد السودان ، فتوجد بيوت خاصة لشراب الذرة (المريسة) وفيها البغاء العلنى .

وروى عن ابن عباس أن أهل الجاهلية كانوا يجرمون ما ظهر من الزنا ويقولون إنه لؤم ويستحلون ما خفى ويقولون إنه لا بأس به ، وقد نزل فى تحریم هذين النوعين قوله تعالى « وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطْنَ » .

وهذان النوعان فاشيان الآن في بلاد الإفرنج والبلاد التي تقلدهم في شرورهم كمصر والآستانة وبعض بلاد الهند .

وقصارى القول أن الله فرض في نكاح الإماء مثل ما فرض في نكاح الحرائر من الإحصان والعفة لكل من الزوجين ، لكن جعل الإحصان وعدم السفاح في نكاح الحرائر من قبل الرجال أولاً وبالذات فقال (محصنين غير مسافحين) لأن الحرائر ولا سيما الأبقار أبعد من الرجال عن الفاحشة وأقل انقيادا لطاعة الشهوة ، إلى أن الرجال هم الطالبون للنساء والقوامون عليهن .

وجعل قيد الإحصان في جانب الإماء فاشتراط على من يريد أن يتزوج أمة أن يتحرى فيها أن تكون محصنة مصونة في السر والظهر فقال (محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان) وذلك أن الزنا كان غالباً في الجاهلية على الإماء وكانوا يشترطونهن للاكتساب ببيعتهن حتى إن عبد الله بن أبي كان يكره إماءه على البغاء بعد أن أسلمن فنزل في ذلك « وَلَا تُكْرَهُوا فَتِيكَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتِغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » .

إلى أنهن لذهن وضعفن نفوسهن وكونهن مظنة للانتقال من يد إلى أخرى ، فنفسهن لم تمرن على الاختصاص برجل واحد يرى لهن عليه من الحقوق ما تطمئن به نفوسهن في الحياة الزوجية التي هي من شؤون الفطرة .

(فإذا أحصن فإن أنين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب) أى إن الإماء إذا زنين بعد إحصانهن بالزواج فعليهن من العقاب نصف ما على المحصنات الكاملات وهن الحرائر إذا زنين ، وهذا العقاب ما بينه الله تعالى بقوله « الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ » فتجلد الأمة المتزوجة خمسين جلدة وتجلد الحرة مائة .

والسر في هذا ما قدمناه فيما سلف وهو كون الحرة أبعد عن داعية الفاحشة ، والأمة ضعيفة عن مقاومتها فرحم الله ضعفها وخفف العقاب عنها ، وقد قيدوا المحصنات

هنا بكونهن أبكاراً لأن من تزوجت تسمى محصنة بالزواج وإن آمت بطلاق أو بموت زوجها وحينئذ ترجم بالحجارة إذا زنت .

وفي الصحيحين وغيرهما عن عمر رضى الله عنه: أن الرجم في كتاب الله حق على من زنا إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو كان حمل أو اعتراف .

وأمر النبي صلى الله عليه وسلم برجم ما عز الأسلمى والغامدية لاعترافهما بالزنا لكنه أرجأ المرأة حتى وضعت وأرضعت وفطمت ولدها رواه مسلم وأبو داود .

(ذلك لمن خشى العنت منكم) أى ذاك الذى ذكر لكم من إباحة نكاح الإماء عند العجز عن الحرائر جائز لمن خشى عليه الضرر من مقاومة دواعى الفطرة والتزام الإحصان والعفة ، ففي كثير من الأحيان تقضى هذه المقاومة إلى أعراض عصبية وغير عصبية إذا طال العهد على مقاومتها كما أثبت ذلك الطب الحديث .

(وأن تصبروا خير لكم) أى وصبركم عن نكاح الإماء خير لكم من نكاحهن لما فى ذلك من تربية قوة الإرادة وتنمية ملكة العفة وتغليب العقل على عاطفة الهوى ومن عدم تعريض الولد للرقّ وخوف فساد أخلاقه بإرثه منها المهانة والدلة إذ هى بمنزلة المتاع والحيوان فربما ورث شيئاً من إحساسها ووجدانها وعواطفها الخسيسة .

وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : إذا نكح العبد الحرة فقد أعتق نصفه ، وإذا نكح الحر الأمة فقد أرقّ نصفه ، ورحم الله القائل .

إذا لم تكن فى منزل المرء حرة تدبره ضاعت مصالح داره

وسر هذا ما شرحناه من قبل من أن معنى الزوجية حقيقة واحدة مركبة من ذكر وأنثى كل منهما نصفها فهما شخصان صورة ، واحد اعتباراً بالإحساس والشعور والوجدان والمودة والرحمة ، ومن ثم ساع أن يطلق على كل منهما لفظ (زوج) لا تحاده بالآخر وإن كان فرداً فى ذاته ومستقلاً فى شخصه .

(والله غفور رحيم) فهو غفار لمن صدرت منه المفوآت كاحتقار الإماء المؤمنات والظعن فيهن عند الحديث فى نكاحهن وعدم الصبر على معاشرتهن بالمعروف وسوء

الظن بهن ، رحيم بعباده إذ رخص لهم فيما رخص فيه ببيان أحكام شريعته ، فلا يؤاخذنا بما لا نستطيعه منها .

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (٢٨)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أحكام النكاح فيما سلف على طريق البيان والإسهاب ، ذكر هنا عليها وأحكامها كما هو دأب القرآن الكريم أن يعقب ذكر الأحكام التي يشرعها للعباد ببيان العلل والأسباب ليكون في ذلك طمأنينة للقلوب وسكون للنفوس ، لتعلم مغبة ما هي مقدمة عليه من الأعمال ، وعاقبة ما كلفت به من الأفعال ، حتى تقبل عليها وهي مثلجة الصدور عالمة بأن لها فيها سعادة في دنياها وآخرها ، ولا تكون في عماية من أمرها فتتبه في أودية الضلالة وتسير قدما لا إلى غاية .

الإيضاح

(يريد الله ليزين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم) جاءت هذه الآيات كأجوبة لأسئلة من شأنها أن تدور بخلد السامع لهذه الأحكام ، فيطوف بخاطره أن يسأل - ما الحكمة في هذه الأحكام وما فائدتها للعباد ، وهل من كان قبلنا من الأمم السالفة كلف بمثلها فلم يبيح لهم أن يتزوجوا كل امرأة ، وهل كان ما أمرنا به ونهانا عنه تشديدا علينا أو تخفيفا عنا ؟ .

والمعنى يريد الله بما شرعه لكم من الأحكام أن يبين لكم ما فيه مصالحكم ومنافعكم ، وأن يهديكم مناهج من تقدمكم من الأنبياء والصالحين لتتقنوا آثامهم وتسيروا سيرتهم ، فالشرائع والتكاليف وإن اختلفت باختلاف أحوال الاجتماع والأزمان كما قال « وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا » فهي متفقة في مراعاة المصالح العامة للبشر ، فروح الديانات جميعا توحيد الله وعبادته والخضوع له على صور مختلفة ، ومآل ذلك تزكية النفس بالأعمال التي تقوم بها وتهذيب الأخلاق لتبعد عن سيئ الأفعال والأقوال .

(ويتوب عليكم) أى ويريد أن يجعلكم بالعمل بتلك الأحكام تائبين . راجعين عما كان قبلها من تلك الأنكحة الضارة التي كان فيها انحراف عن سنن الفطرة إذ كنتم تنكحون ما نكح آباؤكم وتقطعون أرحامكم ولا تلتفتون إلى المعاني السامية التي في الزوجية من تقوية روابط النسب وتجديد قرابة الصهر والسعادة التي تثلج قلوب الزوجين والمودة والرحمة التي تعمرفوسهما .

(والله عليم حكيم) فعمله المحيط بما في الأكوان شرع لكم من الدين ما فيه مصلحتكم ومنفعتكم ، وبحكمته لم يكلفكم بما يشق عليكم وبما فيه الأذى والضرر لكم وبها يتقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات .

(والله يريد أن يتوب عليكم) أى إنه تعالى بما كلفكم به من تلك الشرائع يريد أن يطهركم ويزكي نفوسكم فيتوب عليكم .

(ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما) متبعو الشهوات هم الفسقة الذين يدورون مع شهوات أنفسهم وينهمكون فيها ، فكأنها أمرتهم باتباعها فامتثلوا أمرها ، فلا يبالون بما قطعوا من وشائج الأرحام ، ولا بما أزالوا من أواصر القرابة ، فليس مقصدهم إلا التمتع باللذة ، أما الذين يفعلون ما يأمر به الدين فليس غرضهم إلا امتثال أوامره لا اتباع شهواتهم ولا الجرى وراء لذاتهم .

(يريد الله أن يخفف عنكم) فأباح لكم عند الضرورة نكاح الإماء قاله مجاهد وطاوس ، وقيل بل خفف عنكم التكليف كلها ولم يجعل في الدين من حرج شريعتكم هي الخفيفة السمحة كما ورد في الحديث .

(وخلق الإنسان ضعيفا) يستميله الهوى والشهوات ويستشيطه الخوف والحزن ولا يقدر على مقاومة الميل إلى النساء ولا يقوى على الضيق عليه في الاستمتاع بهن .
وقد رحم الله عباده فلم يحرم عليهم منهن إلا ما في إباحته مفسدة عظيمة وضرر كبير ، ولا يزال الزنا ينتشر حيث يضعف وازع الدين ، ولا يزال الرجال هم المعتدين فهم يفسدون النساء ويغرونهن بالأموال ويحجر الرجل على امرأته ويحجبها ، بينما يحتال على امرأة غيره ويخرجها من خدرها ، وإنه لغير جاهل أفيظن أن غيره لا يحتال على امرأته كما احتال هو على امرأة سواء ؟ فقلما يفسق رجل إلا يكون قدوة لأهل بيته في الفسق والفجور ، وفي الحديث «عفوا تعف نساؤكم وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم» رواه الطبراني من حديث جابر .

وقد بلغ الفسق في هذا الزمان حدا صار الناس يظنونونه من الكياسة ، وزالت غيرتهم ، وأسلسوا القياد لنسائهم كما يسلسن لقياداتهم ، فوهت الروابط الزوجية ، ونخر السوس في سعادة البيوت ، ووجدت الرذيلة لها مرتعا خصيبا في أجواء الأسر ، حتى أصبح الرجل لا يثق بنسله ، وكثرت الأمراض والعلل بشتى مظاهرها .

أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : ثمانى آيات نزلت في سورة النساء هي خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت ، وعد هذه الآيات الثلاث : يريد الله ليبين لكم إلى قوله وخلق الإنسان ضعيفا ، والرابعة : إن تجنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ، والخامسة : إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، والسادسة : ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيا ، والسابعة : إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، والثامنة : والذين آمنوا بالله ورسوله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم الآية .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ
تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ
رَحِيمًا (٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُذْوَانَا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ
ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف كيفية معاملة اليتامى وإيتاء أموالهم إليهم عند الرشد
وعدم دفع الأموال إلى السفهاء ثم بين وجوب دفع المهور للنساء وأنكر عليهم أخذها
بوجه من الوجوه ، ثم ذكر وجوب إعطاء شيء من أموال اليتامى إلى أقاربهم إذا
حضرُوا القسمة ذكر هنا قاعدة عامة للتعامل في الأموال تطهيراً للأنفس في جمع المال
لحُبوب لها فقال :

الإيضاح

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ) الباطل من البطل
والبطلان وهو الضياع والخسار ، وفي الشرع أخذ المال بدون عوض حقيقى يعتد به
ولا رضا ممن يؤخذ منه ، أو إنفاقه في غير وجه حقيقى نافع ، فيدخل في ذلك
النصب والغش والخداع والربا والغبن وإنفاق المال في الوجوه المحرمة والإسراف
بوضع المال فيما لا يرضى به العقلاء .

وقوله يَنْتَكُم رَمَزَ إِلَى أَنَّ الْمَالَ الْحَرَمَ يَكُونُ عَادَةً مَوْضِعَ التَّنَازُعِ فِي التَّعَامُلِ بَيْنَ
الْأَكْلِ وَالْمَأْكُولِ مِنْهُ كُلُّ مَنْهُمَا يُرِيدُ جَذْبَهُ إِلَيْهِ ، وَالْمُرَادُ بِالْأَكْلِ الْأَخْذَ عَلَى
أَيِّ وَجْهِ ، وَعَبَّرَ عَنْهُ بِالْأَكْلِ لِأَنَّهُ أَكْثَرُ أَوْجِهٍ اسْتِعْمَالِ الْمَالِ وَأَقْوَاهَا ، وَأَضَافَ
الْأَمْوَالَ إِلَى الْجَمِيعِ وَلَمْ يَقُلْ لَا يَأْكُلُ بَعْضُكُمْ مَالَ بَعْضٍ ، تَنْبِيْهَا إِلَى تَكَاثُلِ الْأُمَةِ
فِي الْحَقُوقِ وَالْمَصَالِحِ كُنَّ مَالٌ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا هُوَ مَالُ الْأُمَةِ جَمِيعِهَا ، فَإِذَا اسْتَبَاحَ أَحَدُهُمْ

أن يأكل مال الآخر بالباطل كان كأنه أباح لغيره أن يأكل ماله فالحياة قصاص ،
وتنبيهها إلى أن صاحب المال يجب عليه بذل شئ منه للمحتاج وعدم البخل عليه به ،
إذ هو كأنما أعطاه شيئاً من ماله .

وبهذا قد وضع الإسلام قواعد عادلة للأموال لدى من يعتنق مبادئه وهى :
(١) أن مال الفرد مال الأمة مع احترام الحيازة والملكية وحفظ حقوقها ،
فهو يوجب على ذى المال الكثير حقوقاً معينة للمصالح العامة ، وعلى ذى المال القليل
حقوقاً أخرى للبائسين وذوى الحاجات من سائر أصناف البشر ، ويحث على البر
والإحسان والصدقات فى جميع الأوقات .

وبهذا لا يوجد فى بلاد الإسلام مضطر إلى القوت أو عريان سواء أكان مسلماً
أم غير مسلم ، لأن الإسلام فرض على المسلمين إزالة ضرورة المضطر ، كما فرض
فى أموالهم حقوقاً للفقراء والمساكين .

وكل فرد يقيم فى بلادهم يرى أن مال الأمة هو ماله ، فإذا اضطر إليه يجده
مذخوراً له ، كما جعل المال المفروض فى أموال الأغنياء تحت سيطرة الجماعة الحاكمة
من الأمة حتى لا يمنع من فى قلبه مرض ، وحشم على البذل ورغبتهم فيه ، وذهمهم
على البخل ووكّل ذلك إلى أنفسهم ، لتقوى لديهم مسكة السخاء والمروءة والرحمة .
(:) أنه لم يبيح للمحتاج أن يأخذ ما يحتاج إليه من أيدى أربابه إلا بإذنتهم ،
حتى لا تنتشر البطالة والكسل بين أفراد الأمة ، وتوجد القوضى فى الأموال ،
والضعف والتواني فى الأعمال ، ويدب الفساد فى الأخلاق والآداب .

ولو أفطم المسلمون معالم دينهم ، وعملوا بشرائعه ، لضربوا للناس الأمثال واستتبنا
لهم أنه خير شريعة أخرجت للناس ، ولأقاموا مدنية صحيحة فى هذا العصر يتأسى بها
كل من يريد سعادة الجماعات ، ولا يجعلها تنقث تحت أثقال العوز والحاجة ، كما هو
حادث الآن من التنافر العام والنظر الشر من العمال إلى أصحاب رؤوس الأموال
(إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم) أى لا تكونوا من ذوى الأطماع الذين

يأكلون أموال الناس بغير مقابل لها من عين أو منفعة ، ولكن كموها بالتجارة التي قوام الحل فيها التراضى ، وذلك هو اللائق بأهل المروءة والدين إذا أرادوا أن يكونوا من أرباب الثراء .

وفى الآية إيماء إلى وجوه شتى من الفوائد :

(١) أن مدار حل التجارة على تراضى المتبايعين ، فالغش والكذب والتدليس فيها من المحرمات .

(٢) أن جميع ما فى الدنيا من التجارة وما فى معناها من قبيل الباطل الذى لا بقاء له ولا ثبات ، فلا ينبغى أن يشغل العاقل عن الاستعداد للآخرة التى هى خير وأبقى .

(٣) الإشارة إلى أن معظم أنواع التجارة يدخل فيها الأكل بالباطل ، فإن تحديد قيمة الشيء وجعل ثمنه على قدره بالقسطاس المستقيم يكاد يكون مستحيلا ، ومن ثم يجرى التسامح فيها إذا كان أحد العوضين أكبر من الآخر ، أو إذا كان سبب الزيادة براعة التاجر فى ترزين سلعته ، وترويحها بزخرف القول من غير غش ولا خداع ، فكثيراً ما يشتري الإنسان الشيء وهو يعلم أنه يمكنه شراؤه من موضع آخر بثمان أقل ، وما نشأ هذا إلا من خلافة التاجر وكياسته فى تجارتة ، فيكون هذا من باطل التجارة الحاصلة بالتراضى فيكون حلالاً .

والحكمة فى إباحة ذلك ، الترغيب فى التجارة ، لشدة حاجة الناس إليها ، والتنبيه إلى استعمال ما أوتوا من الذكاء والفطنة فى اختيار الأشياء ، والتدقيق فى المعاملة ، حفظاً للأموال حتى لا يذهب شيء منها بالباطل أى بدون منفعة تقابلها .

فإذا ما وجد فى التجارة الربح الكثير بلا غش ولا تغرير ، بل بتراض من الطرفين لم يكن فى هذا حرج ، ولولا ذلك ما رغب أحد فى التجارة ، ولا اشتغل بها أحد من أهل الدين ، على شدة حاجة العمران إليها ، وعدم الاستغناء عنها .

ولما كان المال عدل الروح وقد نهينا عن إتلافه بالباطل - نهينا عن إتلاف النفس ، لكون أكثر إتلافهم لها بالمغامرات لنهب الأموال وما كان متصلا بها ، وربما أدى ذلك إلى الفتن التي ربما كان آخرها القتل ومن ثم قال :

(ولا تقتلوا أنفسكم) أى لا يقتل بعضكم بعضا . وعبر بذلك للمبالغة في الزجر ، وللإشعار بتعاون الأمة وتكافلها ووحدتها . وقد جاء في الحديث « المؤمنون كالتفيس الواحدة » ولأن قتل الإنسان لغيره يفضى إلى قتله قصاصا أو ثارا . فكانه قتل نفسه .

وبهذا علمنا القرآن أن جنابة الإنسان على غيره جنابة على نفسه ، وجناية على البشر جميعا ، لا على المتصلين به برابطة الدين أو الجنس أو السياسة كما قال تعالى : « مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا » كما أنه أرشدنا باحترام نفوس الناس بعدّها كفوسنا - إلى أن نخترم نفوسنا بالأولى فلا يباح بحال أن يقتل أحد نفسه ، ليستريح من الغم وشقاء الحياة ، فهما اشتدت المصائب بالمؤمن ، فعليه أن يصبر ويحتسب ولا ييأس من الفرج الإلهي ، ومن ثم لا يكثر بخر النفس (الانتحار) إلا حيث يقل الإيمان ويفشو الكفر والإلحاد .

(إن الله كان بكم رحيمًا) أى إنه بنهيككم عن كل الأموال بالباطل ، وعن قتلكم أنفسكم كان رحيمًا بكم ، إذ حفظ دماءكم كما حفظ أموالكم التي عليها قوام المصالح واستمرار المنافع ، وعلمكم أن تتراجعوا وتتواذوا ويكون كل منكم عونًا للآخر ، يحافظ على ماله ويدافع عن نفسه ، إذا جد الجد ، ودعت الحاجة إلى الدفاع عنه .

(ومن يفعل ذلك عدوانًا وظلمًا فسوف نصليه نارًا) العدوان هو التعدى على الحق ، وهو يتعلق بالقصد بأن يتعمد الفاعل الفعل وهو عالم أنه قد تعدى الحق وجاوزه إلى الباطل ، والظلم يتعلق بالفعل نفسه ، بالألا يتحرى الفاعل عمل ما يحل ، فيفعل مالا يحل ، والوعيد مقرون بالأمرين معا ، فلا بد من قصد الفاعل العدوان ، وأن يكون فعله ظلمًا حقًا ، فإذا وجد أحدهما دون الآخر لم يستحق الفاعل هذا التهديد الشديد ، فإذا قتل الإنسان رجلا كان قد قتل أباه أو ابنه ، فهنا قد وجد العدوان

ولم يوجد الظلم، وإذا سب امرؤ مال آخر ظاناً أنه ماله الذى كان قد سرته أو اغتصبه ثم تبين له أن المال ليس ماله، وأن هذا الرجل لم يكن هو الذى أخذ ماله. فهأنا قد وجد الظلم دون العدوان.

(وكان ذلك على الله يسيراً) أى وكان ذلك الإصلاء فى النار يسيراً على الله، هينا لا يمتنع منه مانع، ولا يدفعه عنه دافع، ولا يشفع فيه إلا بإذنه شافع، فلا يغترن الظالمون المعتدون بحماه عيهم فى الدنيا، وعدم معاجلتهم بالعقوبة، فيظنوا أنهم بمنجاة من عقابه فى الآخرة، ولا يكونون كذلك المشركين الذين قالوا «نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ».

إِنْ تَجْتَنِبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ
وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمًا (٣١)

شرح المفردات

الاجتناب ترك الشئ، جانباً، والكبائر واحدها كبيرة وهى المعصية العظيمة، والسيئات واحدها سيئة وهى النعمة التى تسوء صاحبها عاجلاً أو آجلاً، والمراد بها هنا الصغيرة، ونكفر نفجر ونمحو، ومدخلا كريماً أى مكاناً كريماً وهو الجنة.

المعنى الجملى

بعد أن نهى الله عن أكل أموال الناس بالباطل، وعن قتل النفس، وهما أكبر الذنوب المتعلقة بحقوق العباد، وتوعد فاعل ذلك بأشد العقوبات — نهى عن جميع الكبائر التى يعظم ضررها، وتؤذن بضعف إيمان مرتكبها، ووعد من تركها بالمدخل الكريم.

الإيضاح

(إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) أى إن تركوا جانباً كبائر ما ينهواكم الله عن ارتكابها من الذنوب والآثام نكح عنكم صغائرهما فلا نؤاخذكم بها .

وقد اختلف في عدد الكبائر فقليل هي سبع لما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا وما هي يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، والسحر ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربوا ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » وفي رواية لها عن أبي بكرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قننا بلى يا رسول الله ، قال : الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين — وكان متكئاً فجلس وقال — ألا وقول الزور وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قننا لبيته سكت » .

وفيها أيضاً من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه ، قالوا وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه » .

والأحاديث الصحيحة مختلفة في عددها ، ومجموعها يزيد على سبع . ومن ثم قال ابن عباس لما قال له رجل : الكبائر سبع ، قال هي إلى سبعين أقرب ، إذ لا صغيرة مع الإصرار ، ولا كبيرة مع الاستغفار ، ومراده أن كل ذنب يرتكب لعارض يعرض على النفس من استشاطه غضب أو ثورة شهوة ، وصاحبه متمكن من دينه ، يخاف الله ولا يستحل محارمه ، فهو من السيئات التي يكفرها الله تعالى ، إذ لولا ذلك العارض القاهر للنفس لم يكن ليجتزعه تهونا بالدين ، إذ هو بعد اجتراحه يندم ويتألم ويتوب ويرجع إلى الله تعالى ، ويمزم على عدم العودة إلى افتراء مثله ، فهو إذ ذاك أهل لأن يتوب الله عليه ، ويكفر عنه .

وكل ذنب يرتكبه الإنسان مع التهاون بالأمر وعدم المبالاة بنظر الله إليه ،
ورؤيته إياه حيث نهاه ، فهو مهما كان صغيرا في صورته ، أو في ضرره ، يعد كبيرا
من حيث الإصرار والاستهتار ، فتطفيف الكيل والميزان ولو حبة لمن اعتاده ،
والهمز واللمز (عيب الناس والظعن في أعراضهم) لمن تعودده - كل ذلك كبيرة
ولا شك .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يذكر في كل مقام ما تمس إليه الحاجة ، ولم يرد
الحصر والتحديد .

وقال بعض العلماء : الكبيرة كل ذنب رتب عليه الشارع حدا أو صرح
فيه بوعيد .

(وندخلكم مدخلا كريما) أى وندخلكم مكانا لكم فيه الكرامة عند
ربكم وهى الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار ، والعرب تقول أرض كريمة ، وأرض
مكرمة أى طيبة جيدة النبات قال تعالى : « فَأَخْرَجْنَا لَهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ
وَمَقَامٍ كَرِيمٍ » .

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ
مِمَّا اكْتَسَبُوا ، وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ، وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ،
إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢)

شرح المفردات

التمنى تشهى حصول الأمر المرغوب فيه ، وحديث النفس بما يكون
وما لا يكون ، من فضله أى إحسانه ونعمه المتكاثرة :

المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه عن أكل أموال الناس بالباطل ، وعن القتل ، وتوعد فاعلهم بالويل والثبور ، وهما من أفعال الجوارح ، ليصير الظاهر طاهرا عن المعاصى العظيمة العاقبة - نهى عن التمنى وهو التعرض لها بالقلب حسدا ، لتطهر أعمالهم الباطنة ، فيكون الباطن موافقا للظاهر ، ولأن التمنى قد يجر إلى الأكل ، والأكل قد يقود إلى القتل ، فإن من يرتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه .

الإيضاح

(ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ، للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن) أى إن الله كلف كلا من الرجال والنساء أعمالا ، فما كان خاصا بالرجال لهم نصيب من أجره لا يشار إليهم فيه النساء ، وما كان خاصا بالنساء لهن نصيب من أجره لا يشار إليهن فيه الرجال ، وليس لأحدهما أن يتمنى ما هو مختص بالآخر ، وقد أراد الله أن يختص النساء بأعمال البيوت ، والرجال بالأعمال الشاقة التى فى خارجها ليتقن كل منهما عمله ، ويقوم بما يجب عليه مع الإخلاص . وعلى كل منهما أن يسأل ربه الإعانة والقوة على ما نيظ به من عمل ، ولا يجوز أن يتمنى ما نيظ بالآخر ، ويدخل فى هذا النهى تمنى كل ما هو من الأمور الخلقية كالعمل والجمال ، إذ لا فائدة فى تمنى ما لم يعطها ، ولا يدخل فيه ما يقع تحت قدرة الإنسان من الأمور الكسبية ، إذ يحمد من الناس أن ينظر بعضهم إلى ما نال الآخرون ، ويتمنوا لأنفسهم مثله وخيرا منه بالسعى والجد .

والخلاصة - أنه تعالى طلب إلينا أن نوجه الأنظار إلى ما يقع تحت كسبنا ، ولا نوجهها إلى ما ليس فى استطاعتنا ، فانما الفضل بالأعمال الكسبية ، فلا تتمنوا شيئا بغير كسبكم وعملكم ، قاله الأستاذ الإمام بتصرف .

فعلى المسلم أن يعتمد على مواهبه ، وقواه فى كل مطالبه ، بالجد والاجتهاد ، مع رجاء فضل الله فى لا يصل إليه كسبه ، إما للجهل به ، وإما للعجز عنه ، فالزارع يجتهد فى زراعته ، ويتبع السنن والأسباب التى سنّها الله لعمله ، ويسأل الله أن يمنح الآفات والجوائح عنه ، ويرفع أئمن غلاته إلى نحو أولث مما هو بيد الله .
 روى عكرمة أن النساء سألن الجهاد فقان : وددنا أن الله جعل لنا النزو ، فنصيب من الأجر ما يصيب الرجال فنزلت .

(واسألوا الله من فضله) أى لا تتمنوا نصيب غيركم ، ولا تحسدوا من فضل عليكم ، واسألوا الله من إحسانه وإنعامه ، فإن خزائنه مملوءة لا تنفذ ، روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « سلوا الله من فضله ، فالله يحب أن يسأل ، وإن من أفضل العبادة انتظار الفرج » .

(إن الله كان بكل شىء عليما) وبذا فضل بعض الناس على بعض على حسب مراتب استعدادهم ، وتفاوت اجتهدهم فى معترك الحياة ، ولا يزال العاملون يستزيدونه ولا يزال ينزل عليهم من جوده وكرمه ما يفضلون به القاعدين الكسالى حتى بلغ التفاوت بين الناس فى الفضل حدا بعيدا ، وكاد التفاوت بين الشعوب يكون أبعد من التفاوت بين بعض الحيوان وبعض الإنسان .

وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ
 أَيْمَانُكُمْ ، فَأَتَوْهُمْ نَصِيْبُهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣)

شرح المفردات

الموالى من يحق لهم الاستيلاء على التركة ، مما ترك أى وارثين مما ترك ، والذين عقدت أيمانكم هم الأزواج ، فإن كلا من الزوجين له حق الإرث بالعقد ، والمتعارف عند الناس فى العقد أن يكون بالمصافحة باليدين قاله أبو مسلم الاصفهاني .

المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه عن أكل أموال الناس بالباطل ، وعن تمنى أحد ما فضل الله به غيره من المال ، حتى لا يسوته التنى إلى التعدى ، وهو وإن كان نهياً عاماً فالسياق يعين المراد منه وهو المال ، لأن أكثر التنى يتعلق به ، ثم ذكر القاعدة العامة فى حيازة الثروة وهى الكسب - انتقل إلى نوع آخر تأتى به الحيازة وهو الإرث .

الإيضاح

(ولكل جعلنا موالى مما ترك) أى إن لكل من الرجال الذين لهم نصيب مما اكتسبوا ، ومن النساء اللواتى لهن نصيب مما اكتسبن ، موالى ثم حق الولاية على ما يتركون من كسبهم .

ثم بين هؤلاء الموالى فقال :

(الولدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم) أى إن هؤلاء الموالى هم جميع الورثة من الأصول والفروع والحواشى والأزواج .

(فآتوهم نصيبهم) أى فأعطوا هؤلاء الموالى نصيبهم المتدر ثم ولا تنقصوهم منه شيئاً .

(إن الله كان على كل شئ شهيداً) أى إن الله رقيب شاهد على تصرفاتكم فى التركة وغيرها ، فلا يبدل من بيده المال أن يأكل من نصيب أحد الورثة شيئاً ، سواء أكان ذكراً أم أنثى ، كبيراً أم صغيراً .

وجاءت هذه الآية لمنع بعض الورثين فى بعض .

الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَنِيَّهِمْ عَلَى بَعْضِ
وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ، فَالصَّاحَاتُ قَاتِلَاتُ حَافِظَاتُ لَلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ

اللَّهُ ، وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا (٣٤) وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (٣٥)

شرح المفردات

يقال هذا قيم المرأة وقوامها إذا كان يقوم بأمرها ويهتم بحفظها ، وما به الفضل قسمان : فطرى وهو قوة مزاج الرجل وكاله في الخلقة ، ويتبع ذلك قوة العقل وصحة النظر في مبادئ الأمور وغاياتها ، وكسبى وهو قدرته على الكسب والتصرف في الأمور ، ومن ثم كلف الرجال بالإتفاق على النساء والقيام برياسة المنزل ، والقنوت السكون والطاعة لله وللازواج ، والحافظات للغيب أى اللاتى يحفظن ما يغيب عن الناس ، ولا يقال إلا فى الخلوة بالمرأة ، وتخافون أى تظنون ، ونشرت الأرض ارتفعت عما حوالها ، ويراد بها هنا معصية الزوج والترفع عليه ، والبغى الظلم وتجاوز الحد ، والشقاق الخلاف الذى يجعل كلا من المختلفين فى شق أى جانب ، وخوفه توقع حصوله بظهور أسبابه ، والحكم من له حق الحكم والفصل بين الخصمين وبعث الحكمين إرسالهما إلى الزوجين لينظرا فى شكوى كل منهما ويتعرفا ما يرجى أن يصلح بينهما .

المعنى الجملى

لما نهى الله تعالى كلا من الرجال والنساء عن تمنى ما فضل الله به بعضهم على بعض وأرشدهم إلى الاعتماد فى أمر الرزق على كسبهم ، وأمرهم أن يؤثروا الوارثين

أنصبتهم ، وفي هذه الأنصبة يستبين تفضيل الرجال على النساء - ذكر هنا أسباب التفضيل .

الإيضاح

(الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) أى إن من شأن الرجال أن يقوموا على النساء بالحماية والرعاية ، وتبع هذا فرض الجهاد عليهم دونهن ، لأن ذلك من أخص شئون الحماية ، وجعل حظهم من الميراث أكثر من حظهن ، لأن عليهم من النفقة ما ليس عليهن .

وسبب هذا أن الله فضل الرجال على النساء فى الحقيقة ، وأعطاهم ما لم يعطهن من الحول والقوة ، كما فضلهم بالقدرة على الإنفاق على النساء من أموالهم ، فإن فى المهور تعويضا للنساء ومكافأة لمن على الدخول تحت رياسة الرجال وقبول القيامة عليهن ، نظير عوض مالى يأخذونه كما قال تعالى : « وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ » .

والمراد بالقيام الرياسة التى يتصرف فيها المردوس بإرادة الرئيس واختياره ، إذ لا معنى لقيام إلا الإرشاد والمراقبة فى تنفيذ ما يرشد إليه ، وملاحظة أعماله ، ومن ذلك حفظ المنزل وعدم مفارقتة إلا بإذنه ولو لزيارة القرى ، وتقدير النفقة فيه ، فهو الذى يقدرها على حسب ميسرته ، والمرأة هى التى تنفذ على الوجه الذى يرضيه ، ويناسب حاله سعة وضيقا .

ولقيام الرجل بحماية المرأة وكفائتها مختلف شئونها . يمكنها أن تقوم بوظيفتها الفطرية وهى الحمل والولادة وتربية الأطفال وهى آمنة فى سربها ، مكفية ما يهملها من أمور أرزاقها .

ثم فصل حال النساء فى الحياة المنزلية التى تكون المرأة فيها تحت رياسة الرجل فذكر أنها قسمان ، وأشار إلى معاملتها فى كل حال منهما فقال :

(فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله) أى فالنساء الصالحات مطيعات للأزواج حافظات لما يجرى بينهن وبينهن فى الخلوة من الرفق والشؤون الخاصة بالزوجية ، لا يطلعن أحدا عنهما ولو قريبا ، وبالأولى يحفظن العرض من يد تلمس ، أو عين تبصر ، أو أذن تسمع .

وقوله : بما حفظ الله ، أى بسبب أمر الله بحفظه ، فهنّ يطلعنّه ويعصين الهوى .
وفى الآية أكبر عظة وزجر لمن تنفكه من النساء بإفشاء الأسرار الزوجية ولا تحفظ الغيب فيها .

وكذلك عيّن أن يحفظن أموال الرجال وما يتصل بها من الضياع ، روى ابن جرير والبيهقى عن أبى هريرة قال « خير النساء التى إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك فى مالك ونفسها ، وقرأ الآية » وهذا القسم من النساء ليس للرجال عليهن سلطان التأديب ، إذ لا يوجد ما يدعو إليه ، وإنما سلطانهم على القسم الثانى الذى ذكره الله وذكر حكمه بقوله :

(واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واجروهن فى المضجع واضربوهن) أى واللاتى تأنسون منهن الترفع وتخافون ألا يمتن بحقوق الزوجية على الوجه الذى ترضونه ، فعليكم أن تعاملوهن على النهج الآتى :

(١) أن تبدءوا بالودع الذى ترون أنه يؤثر فى نفوسهن ، فمن النساء من يكفيها التذكير بعقاب الله وغيظه ، ومنهن من يؤثر فى أنفسهن التهديد والتحذير من سوء العاقبة فى الدنيا كشتماتة الأعداء ، ومنعها بعض رغباتها كالتياب والحلى ونحو ذلك ، وعلى الجملة فاللييب لا تخفى عليه العظات التى لها الحل الأرفع فى قلب امرأته .
فإن لم يُجِد ذلك فله أن يجرب :

(٢) الهجر والإعراض فى المضجع ، ويتحقق ذلك بهجرها فى الفراش مع الإعراض والصدّ (وقد جرت العادة بأن الاجتماع فى المضجع يهيج شعور الزوجية ،

فتسكن نفس كل من الزوجين إلى الآخر، ويحول ما كان في نفوسهما من اضطراب أنارته الحوادث قبل ذلك) .

فإذا هو فعل ذلك دعاها هذا إلى السؤال عن أسباب الهجر والمبوط بها من نشر المخالفة إلى مستوى الموافقة ، فإن لم يند ذلك فله أن يجرب :

(٣) الضرب غير المبرح أى غير المؤذى إيذاء شديدا كالضرب باليد أو بعصا صغيرة .

وقد روى عن مقاتل في سبب نزول الآية أن سعد بن الربيع وكان من النقباء نشرت عليه امرأته حبيبة بنت زيد بن أبى زهير ، فطمعها فانطلق أبوها معها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أفرشته كريمتي فطمعها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لتقتص من زوجها ، فأنصرفت مع أبيها لتقتص منه فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ارجعوا ، هذا جبرائيل أتاني وأنزل الله هذه الآية فتلاها صلى الله عليه وسلم وقال : أردنا أمرا وأراد الله أمرا ، والذي أَرَادَ الله خير » .

وقد يستعظم بعض من قبل الإفرنج من المسلمين مشروعية ضرب المرأة الناشز ولا يستعظمون أن تنشر وتترفع هى عليه فتجعله وهو الرئيس مرءوسا محتقرا وتصر على نشوزها فلا تلتزم لوعظه ونصحه ولا تبالي بإعراضه وهجره ، فإن كان قد ثقل ذلك عليهم فليعلموا أن الإفرنج أنفسهم يضربون نساءهم العائلات المتهذبات ، بل فعل هذا حكماؤهم وعلمائهم وملوكهم وأمرائهم ، فهو ضرورة لا يستغنى عنها ولا سيما في دين عام للبدو والحضر من جميع أصناف البشر ، وكيف يستنكر هذا والعقل والفترة يدعوان إليه إذا فسدت البيئة وغشت الأخلاق الفاسدة ، ولم ير الرجل مناصا منه ولا ترجع المرأة عن نشوزها إلا به .

لكن إذا صحت البيئة وصارت النساء يستجبن للنصيحة ، أو يزدجرن بالهجر وجب الاستغناء عنه ، إذ نحن مأمورون بالرفق بالنساء واجتناب ظلمهن ، وإمساكنهن بمعروف أو تسريحهن بمعروف .

والأخبار التي وردت في الوصية بالنساء كثيرة، فمن ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن زَمْعَةَ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أيضرب أحدكم امرأته كما يضرب العبد ثم يضاعفها في آخر اليوم» يعنى أنه إذا لم يكن بد للرجل من هذا الاتصال الخاص بامرأته ، وهو أقوى وأحكم اجتماع يكون بين اثنين من البشر وقد قضت به الفطرة ، فكيف يليق به بعدئذ أن يجعل امرأته وهي كنفسه مهينة كهانة عبده يضربها بسوطه أو بيده ، فالرجل الكريم يأبى عليه طبعه مثل هذا الجفاء .

والخلاصة أن الضرب علاج مرقد يستغنى عنه الخير الكريم ، ولكنه لا ينزل من البيوت إلا إذا عم التهذيب الرجال والنساء وعرف كل ماله من الحقوق وكان للدين سلطان على النفوس يجعلها تراقب الله في السر والعلن وتخشى أمره ونهييه (فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا) أى إن أطعنكم واحدة من هذه الخصال التأديبية فلا تبغوا ولا تتجاوزوا ذلك إلى غيرها ، فابدعوا بما بدأ الله من الوعظ ، فإن لم يجد فبالهجر ، فإن لم يقد فبالضرب ، فإذا لم يغن فليلجأ إلى التحكيم ، ومتى استقام لكم الظاهر فلا تبجثوا عما في السرائر .

(إن الله كان عليا كبيرا) في هذه الجملة تهديد شديد ووعيد لمن يظلم النساء ويبغى عليهن ، فالله يذكّر عباده بقدرته وكبريائه عليهم ليتعظوا ويخشوه في معاملتهن فكأنه يقول لهم إن سلطانه عليكم فوق سلطانكم على نساءكم فإذا بغيت عليهن عاقبكم وإن تجاوزتم عن هفواتهن كرما تجاوز عنكم وكفر عنكم سيئاتكم .

وليس بخاف أن الرجال الذين يستذلون نساءهم إنما يلدون عبيدا لغيرهم ، إذ هم يتربون على الظلم ويستسيغونه ولا يكون في نفوسهم شيء من الكرامة ولا من الشم والإياء ، وأمة تخرج أبناء كهؤلاء إنما تربي عبيدا أذلاء لا يقومون بنصرة أمة ولا يغارون لكرامة ، فما أحرأهم بأن يكونوا قطعانا من الغنم تزدجر من كل راع وتستجيب لكل ناعق ! .

(وإن خفتن شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما) هذا الخطاب عام يدخل فيه الزوجان وأقاربهما ، فإن فاموا بذلك فذاك ، وإلا وجب على من بلغه أمرها من المسلمين أن يسعى في إصلاح ذات بينهما ، والخلاف بينهما قد يكون بنشوز المرأة ، وقد يكون بظلم الرجل ، فإن كان بالأول فعلى الرجل أن يعالجه بأقرب أنواع التأديب التي ذكرت في الآية التي سلفت ، وإن كان بالثاني وخيف من تمادى الرجل في ظلمه أو عجز عن إنزالها عن نشوزها وخيف أن يحول الشقاق بينهما دون إقامتها لأركان الزوجية الثلاث : من السكون والمودة والرحمة ، وجب على الزوجين وذوى القربى أن يبعثوا الحكامين ، وعليهم أن يوجهوا إرادتهم إلى إصلاح ذات البين ، ومتى صدقت الإرادة وصحت العزيمة فالله كفيل بالتوفيق بفضل وجوده .

وبهذا تعلم شدة عناية الله بأحكام نظام الأسر والبيوت وكيف لم يذكر مقابل التوفيق وهو التفریق لأنه يبغضه ولأنه يود أن يشعر المسلمين بأنه لا ينبغي أن يقع . ولكن وأسفا لم يعمل المسلمون بهذه الوصية الجليلة إلا قليلا حتى دب الفساد في البيوت ونخر فيها سوس العداوة والبغضاء ففتك بالأخلاق والآداب وسرى من الوالدين إلى الأولاد .

(إن الله كان عليما خبيرا) أى إن هذه الأحكام التي شرعت لكم كانت من لدن عليم بأحوال العباد وأخلاقهم ، خبير بما يقع بينهم وبأسبابه ما ظهر منها وما بطن . ولا يخفى عليه شيء من وسائل الإصلاح بينهما .

وفي الآية إرشاد إلى أن ما يقع بين الزوجين من خلاف وإن ظن أنه مستعص يتعذر علاجه فقد يكون في الواقع على غير ذلك من أسباب عارضة يسهل على الحكامين الخبيرين بدقائق الزوجين لقربهما منهما أن يحصوا ما علق من أسبابه بقلوبهما فيزيلوها متى حسنت النية وصحت العزيمة ، ولتعم أيها المؤمن أن رابطة الزوجية أقوى الروابط التي تربط بين اثنين من البشر ، فهي يشعر كل من الزوجين

بشركة مادية ومعنوية ، بها يؤخذ كل منهما شريكه على أدق الأمور وأصغرها ، فيحاسبه على فلتات اللسان ، وبالظنة والوهم ، وخفايا حاجات القلب ، فيغيريهما ذلك بالتنازع في كل ما يقصر فيه أحدهما من الأمور المشتركة بينهما ، وما أكثرها وأعسر التوفى منها ، وكثيرا ما يفضى التنازع إلى التقاطع ، والعتاب إلى الكره والبغضاء ، فعليك أن تكون حكيما في معاملة الزوجة ، خيرا بطباعها ، وبذا تحسن العشرة بينكما .

وقد صرح علماء الاجتماع بأن السعادة الزوجية قلما تمتع بها زوجان ، وإن كانت أمنية كل الأزواج ، ومن ثم اكتنوا بالمودة العملية ، واجتهدوا في تربية رجالهم ونسائهم على الاحترام المتبادل جهد المستطاع .

وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ
بِالْجُنُبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ
مُخْتَلًا فُحُورًا (٣٦) الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ
مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (٣٧) وَالَّذِينَ
يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَنْ
يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨) وَمَاذَا عَلِمْتُمْ لَوِ اتَّعَمُوا بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ، وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (٣٩)

شرح المفردات

عبادة الله الخضوع له والاستشعار بتعظيمه في السر والعلن بالقلب والجوارح ، والإخلاص له بالاعتراف بوحدانيته إذ لا يقبل عملا بدونها ، والإحسان إلى الوالدين

قصد البر بهما بالقيام بخدمتهما والسعى فى تحصيل مطالبهما والإنفاق عليهما بقدر الاستطاعة وعدم الخشونة فى الكلام معهما ، وذى القربنى صاحب القرابة من أخ وعمّ وخال وأولاد هؤلاء ، والجار ذى القربنى هو الجار القريب الجوار ، والجار الجنب هو البعيد القرابة ، والصاحب بالجنب الرفيق فى السفر أو المنقطع إليك انراجى نفعت ورفدك ، وابن السبيل هو المسافر أو الضيف ، ما ملكت أيمانكم عبيدكم وإماؤكم ، والختال ذو الخيلاء والكبر ، والفخور الذى يعدد محاسنه تعاظا وتكبيرا ، أعتدنا : هيأنا وأعددنا ، والمؤين ذو الإهانة والذلة ، رثاء الناس أى المراءاة والفخر بما فعل ، والقرين الصاحب والخليل ، وماذا عليهم أى أى ضرر بحقيق بهم لو آمنوا وأنفقوا ؟

المعنى الجملى

كان الكلام من أول السورة فى وصايا ونصائح كابتلاء اليتامى قبل تسليمهم أموالهم ، والنهى عن إيتاء الأموال للسفهاء ، وعن قتل النفس ، والإرشاد إلى كيفية معاملة النساء ، وطرق تأديهن تارة بالموعظة الحسنة وأخرى بالقسوة والشدة مع مراقبة الله عز وجل فى كل ذلك .

فناسب بعدئذ التذكير بحسن معاملة الخالق بالإخلاص له فى الطاعة ، وحسن معاملة الطوائف المختلفة من الناس وعدم الضنّ عليهم بالمال فى أوقات الشدة ، مع قصد التقرب إلى الله لا لقصد الفخر والخيلاء ، لأن ذلك عمل من لا يرجو ثواب الله ولا يخشى عقابه .

الإيضاح

(واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا) عبادة الله هى الخضوع له وتمكين هيئته وعظمته من النفس والخشوع لسلطانه فى السر والجهر ، وأمارة ذلك العمل بما به أمر ، وترك ما عنه نهى وبذا تصلح جميع الأعمال من أقوال وأفعال .

والعبادة هي الخضوع لسلطة غيبية وراء الأسباب المعروفة يرجى خيرها ويخشى شرها ، وهذه السلطة لا تكون لغير الله فلا يرجى غيره ولا يخشى سواه ، فمن اعتقد أن غيره يَشْرِكُ فيها كان مشركا ، وإذا نهى الله عن إشراك غيره معه ، فلأن ينهى عن إنكار وجوده وجحد ألوهيته أولى .

والإشراك ضروب مختلفة :

منها ما ذكره الله عن مشركى العرب من عبادة الأصنام باتخاذهم أولياء وشفعاء عند الله يقرّبون المتوسل بهم إليه ويقضون الحاجات عنده ، وقد جاء ذكر هذا فى آيات كثيرة كقوله : « وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ اتَّبِعُونِ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ » .

ومنها ما ذكره عن النصارى من أنهم عبدوا المسيح عليه السلام ، قال تعالى : « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » .

وأقوى أنواعه ما سماه الله دعاء واستشفاعا وهو التوسل بغيره له وتوسيطه بينه وبين الله ، ولا ينفع مع هذا صلاة ولا صوم ولا أى عبادة أخرى ، وقد فشا هذا النوع بين المسلمين فتراهم يستشفعون ويقولون (يا شيخ العرب — يا سيد يا بدوى يا سيدى إبراهيم الدسوقي) إلى غير ذلك .

ويعتذر بعض الناس لمثل هؤلاء وغاية ما تصل إليه المذدرة أن يحولهم من شرك جلى واضح إلى شرك أقل منه وضوحا ولكنه شرك على كل حال .

وبعد أن أمر الله بعبادته وحده لا شريك له عقبه بالوصية بالوالدين فقال :

(وبالوالدين إحسانا) أى أحسنوا بهما ولا تقصروا فى شىء مما يطلبانه لأنهما السبب الظاهر فى وجودكم وتربيتكم بالرحمة والإخلاص ، وقد فصلت هذه الوصية

في سورة الإسراء بقوله تعالى : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا نَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ، وَاحْفَظْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ، رَبُّكُمْ أَغْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا »

والخلاصة — أن العبرة بما في نفس الولد من قصد البر والإحسان والإخلاص فيه ، بشرط ألا يحد الوالدان من حرية الولد واستقلاله في شؤنه الشخصية والمنزلية ولا في الأعمال الخاصة بدينه ووطنه فإذا أراد أحدهما الاستبداد في شيء من ذلك ، فليس من البر العمل برأيهما اتباعاً لهما .

(وبنى القربى) أى أحسنوا معاملة أقرب الناس إليكم بعد الوالدين ، وإذا أدى المرء حقوق الله فصحت عقيدته وصلاح أعماله ، وفام بحقوق الوالدين ، صلح البيت وحسن حال الأسرة ، وإذا صلح البيت كان قوة كبيرة ، فإذا عاون أهله ذوى القربى الذين ينسبون إليهم كان لكل منهم قوة أخرى تتعاون مع هذه الأسرة ، وبذا تتعاون الأمة جمعاء ، وتمتد يد المعونة لمن هو في حاجة إليها من ذكروا بعد في قوله : (واليتامى والمساكين) لأن اليتيم قد فقد الناصر والمعين وهو الأب ، وقلم تستطيع الأم مهما اتسعت معارفها أن تقوم بتربيته تربية كاملة ، فعلى القادرين أن يعاونوا في تربيته ، وإلا كان وجوده جناية على الأمة لجهله وفساد أخلاقه ، وكان خطراً على من يعاشرهم من لداته ، وجرتومة فساد بينهم .

وكذلك المساكين لا ينتظم حال المجتمع إلا بالعناية بهم وصلاح حالهم ، وإلا كانوا وبالاً عليه .

وهم ضربان مسكين معذور تجب مواساته ، وهو من كان سبب عدمه الضعف والعجز أو نزول آفات سماوية ذهبت بماله ، ومثل هذا يجب عونه بمساعدته بالمال الذى يسد عوزه ويستعين به على الكسب .

ومسكين غير معذور في نقصيره ، وهو من عدم المال بإسرافه وتبذيره ، ومثل هذا يبذل له النصح ويدل على طرق الكسب فإن اتعظ وقبل النصح فيها ، وإلا ترك أمره إلى أولى الأمر فهم أولى بتقويم معوجّه وإصلاح ما فسد من أخلاقه .

(والجار ذى القربى والجار الجنب) الجوار ضرب من ضروب القرابة فهو قرب بالمكان والسكن ، وقد يأنس الإنسان بجاره القريب أكثر مما يأنس بالنسب ، فيحسن أن يتعاون الجاران ويكون بينهما الرحمة والإحسان ، فإذا لم يحسن أحدهما إلى الآخر فلا خير فيهما لسائر الناس ، وقد حث الدين على الإحسان في معاملة الجار ولو غير مسلم فقد عاد النبي صلى الله عليه وسلم ابن جاره اليهودى ، وذبح ابن عمر شاة فجعل يقول لعلامة : أهديت لجارنا اليهودى ، أهديت لجارنا اليهودى ؟ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » وروى الشيخان أنه صلى الله عليه وسلم قال « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره » .

وحدد الحسن البصرى الجوار بأربعين جارا من كل جانب من الجوانب الأربعة ، والأولى عدم التحديد بالدور وجعل الجار من تجاوره ويتراءى وجهك ووجهه في غدوك أو رواحك إلى دارك .

وإكرام الجار من شيم العرب قبل الإسلام وزاده الإسلام تأكيداً بما جاء في الكتاب والسنة ، ومن إكرامه إرسال الهدايا إليه ودعوته إلى الطعام وتعاهده بالزيارة والعيادة إلى نحو ذلك .

(والصاحب بالجنب) روى عن ابن عباس أنه الرفيق في السفر والمنقطع إليك يرجو نفعك ورفدك ، وقيل من صاحبتة وعرفته ولو وقتاً قصيراً ، فيشمل صاحب الحاجة الذى يمشى بجانبك يستشيرك أو يستعين بك .

(وابن السبيل) هو السائح الرحالة في غرض صحيح غير محرم ، والأمر بالإحسان إليه يتضمن الترغيب في السياحة والإعانة عايتها ، ويشمل الاتيظ أيضا وهو أجدر

بالعناية من البيت وأحق بالإحسان إليه ، وقد غنى الأور بيون بجمع اللقطاء وتربيتهم وتعليمهم ، ولولا ذلك لاستطار شرهم وعم ضرهم ، وقد كنا أحق بهذا الإحسان منهم لأن الله قد جعل في أموالنا حقاً معلوماً للسائل والمحروم .

(وما ملكت أيمانكم) أى أحسنوا إلى ما ملكت أيمانكم من عبيدكم وإمائكم ، ويشمل هذا تحريرهم وعنتهم وهو أتم الإحسان وأكمله ، ومساعدتهم على شراء أنفسهم دفعة واحدة أو نجوماً وأقساطاً ، وحسن معاملتهم فى الخدمة بالألا يكفوا ما لا يطيقون ولا يؤذون بقول ولا بفعل ، وقد روى الشيخان قوله صلى الله عليه وسلم « هم إخوانكم وخوالكُم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه » .

وقد أكد النبي صلى الله عليه وسلم الوصية بهم فى مرض موته وكان ذلك من آخر وصاياه ، فقد روى أحمد والبيهقى من حديث أنس قال : كانت عامة وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حضره الموت « الصلاة وما ملكت أيمانكم » . وقد أوصانا سبحانه بهؤلاء حتى لا يظن أن استرقاقهم يميز امتثالهم ويجمعهم كالحوانات المسخرة .

(إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً) المختال هو المتكبر الذى تظهر آثار الكبر فى حركاته وأعماله ، وتفخور هو المتكبر الذى تظهر آثار الكبر فى أقواله ، فتجده يذكر ما يرى أنه ممتاز به عن الناس زهواً بنفسه ، واحتقاراً لغيره .

والمختال الفخور مبغوض عند الله ، لأنه احتقر جميع الحقوق التى أوجبها للناس وأوجبها لنفسه من الشعور بعظمته وكبريائه ، فهو كالجاحد لصفات الألوهية التى لا تنبى إلا لها .

فالمختال لا يقوم بعبادة ربه حق التيمم ، لأن العبادة لا تكون إلا عن خشوع للقلب ، ومن خشع قلبه خشعت جوارحه . ولا يقوم بحقوق الوالدين ولا ذوى القربى

لأنه لا يشعر بحق لغيره عليه ، وبالأولى لا يشعر بحق لليتيم أو المسكين أو لجار قريب أو بعيد ، فهو لا يرجي منه برًّا ولا إحسان ، وإنما يتوقع منه إساءة وكفران ، ومن الكبر والخيلاء إطالة الثوب وجر الذيل بطرا ومزحا قال تعالى : « وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنَ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنَ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا » .

وليس من الكبر والخيلاء أن يكون المرء وقورا في غير غلظة ، عزيز النفس مع الأدب والركة .

روى أبو داود والترمذي عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة ، فقال صلى الله عليه وسلم « إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمص الناس » بطر الحق رده استخفافا وترفعا ، وغمص الناس احتقارهم والازدراء بهم .

(الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله)
روى ابن اسحق وابن جرير عن ابن عباس - كان جماعة من اليهود يأتون رجالا من الأنصار يتنصصون لهم ، فيقولون : لا تنفقوا أموالكم ، فإننا نخشى عليكم الفقر في ذهابها ، ولا تسارعوا في النفقة ، فإنكم لا تدرون ما يكون ، فأنزل الله تعالى : (الذين يبخلون - إلى قوله وكان الله بهم عليما) .

والمراد بالبخل في الآية البخل بالإحسان الذي أمر به فيما تقدم فيشم البخل بلين الكلام وإلقاء السلام والتصح في التعليم وإنقاذ المشرف على التهلكة ، وكتمان ما آتاهم الله من فضله يشمل كتمان المال وكتمان العلم .

(وأعدنا للكافرين عذابا مهينا) أى وهبنا لهؤلاء بكبرهم وبخيلهم وعدم شكرهم عذابا يهينهم ويذلهم ، فهو عذاب جامع بين الألم والذلة جزاء لهم على ما اقترفوا ، وسماهم الله كفارا للإيذان بأن هذه أخلاق وأعمال لا تصدر إلا من الكفور ، لا من المؤمن الشكور .

(والذين ينفقون أموالهم رياءً الناس) الرئاء والرياء والمرأاة سواء ، أى إن مانعى الإحسان من أهل الفخر والخيلاء فريقان : فريق يبخلون ويكتمون فضل الله عليهم ، وفريق يبذل المال لا شكرا لله على نعمه ولا اعترافا لعباده بحق ، بل ينفقونها مرأئين الناس أى يقصدون أن يروهم فيعظموا قدرهم ويحمدوا فعلهم .

والكبرياء كما تكون من شىء فى نفس الشخص ، تكون أيضا بما يكون له من المال والنسب . والمرأى أقل شرا من البخل ، إذ هو يحمل الناس على قبول فخره واختياله فى مقابلة ما يبذله لهم من مال ، فكأنه رأى لهم عليه حقا عوضا من التعظيم والثناء الذى يطلبه بريائه ، وأما البخل فقد بلغ من احتقاره للناس أنه لا يرى لهم عليه شيئا من الحقوق ، فهو يكلفهم تعظيمه ، وأمواله مدخرة فى الصناديق .

والمرأى بخيل فى الحقيقة إذ هو إنما يبذل المال لمن لا حق لهم عنده ويبخل على أرباب الحقوق كالزوجة والولد والخادم والأقربين كالوالدين ، ولا يتحرى فى إنفاقه النفع العام ولا الخاص ، وإنما يتحرى مواطن التعظيم والمدح ، وإن كان الإنفاق ضارا كالمساعدة على فسق أو فتنه فهو تاجر يشتري تعظيم الناس له وتسخيرهم للقيام بخدمته .

(ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) أى إن المؤمنين المرأئين فى إنفاقهم يثقون بما عند الناس من المدح والثناء والتعظيم والإطراء ولا يثقون بما أعد الله لعباده من الثواب والجزاء ويفضلون التقرب إليهم على التقرب إليه ، فالله فى نظرهم أهون من الناس . فمثل هؤلاء لا يعدون مؤمنين إيمانا حقيقيا بالله ولا باليوم الآخر ، بل إيمانهم ضرب من التخيل ليس له ما يؤيده من أثر فى القلب ولا إذعان للنفس ، فهم لا يعرفون الله وإنما يسمعون الناس يقولون قولاً فيقتلدونهم فيما يحفظونه منهم فهم لا يعرفون أنه موجد الكائنات النافذة علمه وقدرته فى الأرض والسموات ، ولو كانوا مؤمنين باليوم الآخر وأن هناك حياة أبدية لما فضلوا عليها عرض هذه الحياة القصيرة .

ومن أمارات التفرقة بين الخلف والمرأى ، أن الأول قلما يتذكر عمله أو يذكره إلا لمصلحة كترغيب بعض الناس فى البذل كأن يقول إني على ما بى من فقر

قد أعطيت كذا درهما في مصححة كذا فاللائق بمثلك أن يبذل كذا وكذا درهما .
أما الثانى فهو يهتمس الفرص والمناسبات لفخر والتبجح بما أعطى وما فعل ،
كما لا يبذل المال ولا يعمل العمل الصالح إلا بقصد الرياء والسمعة ، إذ ليس له وراء
حفظ الدنيا أمل ولا مطلب .

(ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا) أى إن هؤلاء المتكبرين ما حملهم
على ما فعلوا إلا وسوسة الشيطان وهو بئس الصاحب والخليل - والمقصد من هذا
أن حالهم فى الشر كحال الشيطان .

وفى الآية إيماء إلى تأثير قرناء المرء فى سيرته وأن الواجب اختيار القرين الصالح
على قرين السوء ، وتعرض بتنقيح الأنصار من معاشرة اليهود الذين كانوا يهونهم عن
الإنفاق فى سبيل الله وبيان أنهم شياطين يعدون الفقر وينهون عن العرف .

أما القرين الصالح فهو عون على الخير مرغب فيه ، منفر بسيرته ونصحته عن
الشر مبعد عنه ، مذكر بالتقصير مبصر بالعيوب ، ومكمل أصلح القرين الصالح فاسدا ،
وكم أفسد قرين السوء صالحا .

(وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله؟) أى ما الذى
كان يصيبهم من الضرر لو آمنوا بالله إيمانا صحيحا يظهر أثره فى العمل؟ وفى هذا
الأسلوب إثارة عجب الناس من حالهم ، إذ هم لو أخلصوا لما فانتهم منفعلة الدنيا ولغازوا
مع ذلك بسعادة العقبى .

فكثيرا ما يفوت المرأى ما يرمى إليه من التقرب إلى الناس وامتلاك قلوبهم ،
ويظفر بذلك الخالص الذى لم يكن من همه أن أحدا يعرف ما عمل ، فيكون الأول
قد رجع بخفى حنين ، بينما الثانى فاز بسعادة الدارين .

فجهله جدير بأن يتعجب منه لأنه جهل بالله وجهل بأحوال الناس ، ولو آمن
وأخلص ووثق بوعد الله ووعيدة لكان فى هذا سعادته ، فلايمان سلوى من كل

فأنت ، وقمده عرضة لليأس من كل خير ، ومن ثم يكثر الانتحار من فاقدى الايمان .
وأما المؤمن فأقل ما يؤتاه في المصائب الصبر الذى يخفف وقعها على النفس وأكثره
رحمة الله التى بها تتحول النعمة إلى نعمة بما يستفيد من الاختبار والتمحيص وكمال
العبرة والتهديب .

وقد يتلى الله المؤمن ويتمنح صبره فيعطيه إيمانه من الرجاء به ما تخاطب حلاوته
مرارة المصيبة حتى تغلبها ، وقد يأس أحياناً بها لعظم رجائه وصبره ، وهذا وإن كان
نادراً فهو واقع حاصل .

(وكان الله بهم عليماً) فينبغى للمؤمن أن يكتفى بعلم الله فى إنفاقه ولا يبالى
بعلم الناس ، فهو الذى لا ينسى عمل العاملين ولا يظلمهم من أجرهم شيئاً .
وفى هذه الآيات الكريمة الهداية الكافية فى معاملة الناس لربهم ولبعضهم
بعضاً . ولكن المسلمين تصروا فى اتباع هذه الأوامر وأعرضوا عن مساعدة ذوى
القربنى والجيران واليتامى والمساكين ، والشواهد على هذا كثيرة .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُمْضَاغْفَهَا وَيُؤْتِ
مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠) فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا
بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ
لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (٤٢)

شرح المفردات

المِثْقَال أصله المقدار الذى له ثقل مهما قل ثم أطلق على المعيار الخاص للذهب
وغيره ، والذرة أصغر ما يدرك من الأجسام ومن ثم قالوا إنها النملة أو رأسها أو الخردلة
أو الهباء (ما يظهر فى نور الشمس الداخل من الكوة) ولذلك روى عن ابن عباس

رضى الله عنهما أنه أدخل يده في التراب ثم نفخ فيه فقال كل واحدة من هؤلاء ذرة ،
والظلم النقص كما قال تعالى : « كَلِمَاتُ الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهُمَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا »
ومن لدنه من عنده ، والحديث الكلام .

المعنى الجملى

بعد أن بين عز اسمه صفات المتكبرين وسوء أحوالهم وتوعدهم على ذلك بأشد
أنواع الوعيد - زاد الأمر تأكيداً وتشديداً فذكر أنه لا يظلم أحداً من العاملين
بوصاياه لا قليلاً ولا كثيراً ، بل يوفيه حقه بالقسطاس المستقيم ، وفي هذا أعظم
الترغيب لفاعلى البر والإحسان وحفز لهممهم على العمل ، وفي معنى الآية قوله :
« فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ » .

الإيضاح

(إن الله لا يظلم مثقال ذرة) أى إنه تعالى لا ينقص أحداً من أجر عمله ، والجزاء
عليه شيئاً ما وإن صغر كذرة أهباء بل يوفيه أجره ، كما لا يعاقبه بغير استحقاق
للعقوبة ، إذ أن الثواب والعقاب تابعان لتأثير الأعمال فى النفس بتزكيتها أو تدهورها ،
فالعمل يرفعها إلى أعلى عليين أو يهبط بها إلى أسفل سافلين ، ولذلك درجات
ومثاقيل مقدرة فى نفسها لا يحيط بدقائقها إلا من أحاط بكل شيء علماً .

والخلاصة - أن الظلم لا يقع من الله تعالى لأنه من النقص الذى يقتضيه عنه وهو
ذو الكمال المطلق والفضل العظيم ، وقد خلق للناس مشاعر يدركون بها ما لا يدركه
الحس ، وشرع لهم من أحكام الدين وآدابه ما لا تستقل عقولهم بالوصول إلى مثله فى
هدايتهم وحفظ مصالحهم ، وهى تسوق إلى الخير وتصرف عن الشر وأيدىها بالوعد
والوعيد ، فمن وقع بعد ذلك فيما يضره ويؤذيه كان هو الظالم لنفسه لأن الله
لا يظلم أحداً .

(وإن تلك حسنة يضاعفها) أى إنه تعالى مع كونه لا ينقص أحدا من أجر عمله مثقال ذرة يزيد للمحسن فى حسناته ، فالسيئات جزاؤها بقدرها ، والحسنات يضاعف الله تعالى جزاءها عشرة أضعاف أو أضعافا كثيرة كما قال فى آية أخرى « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون » وقال « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة » .

(ويؤت من لده أجر عظيم) أى إنه تعالى لواسع فضله لا يكتفى بجزء الحسنين على إحسانهم فحسب بل يزيدهم من فضله ويعطيهم من لده عطاء كبيرا ، وسمى هذا العطاء أجرا ولا مقابل له من الأعمال لأنه لما كان تابعا للأجر على العمل سمي باسمه لمجاورته له . وفى ذلك إيماء إلى أنه لا يكون لتبعية الحسنين إذ هو علاوة على أجور أعمالهم ، فلا مطمع للمسيئين فيه .

(فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) أى إذا كان الله لا يضيع من عمل العاملين مثقال ذرة ، فكيف يكون الناس إذا جمعهم الله وجاء بالشهداء عليهم وهم أنبياءهم ؟ ثم من أمة إلا لها بشير ونذير .

وهذه الشهادة عبارة عن عرض أعمال الأمم على أنبيائهم (لا فرق بين اليهود والنصارى والمسلمين) ومقابلة عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم بعقائد الأنبياء وأعمالهم وأخلاقهم ، فمن شهدتهم نبيهم بأنهم على ما جاء به وما أمر الناس بالعمل به فهم ناجون ، ومن تبرأ منهم أنبياءهم لخالفه أعمالهم وعقائدهم لما جاءوا به فأولئك هم الخاسرون وإن ادعوا اتباعهم والاتباء إليهم .

وقوله : وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ، يراد به شهادة محمد صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين على أمته كما قال تعالى :

« وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا » أى إن هذه الأمة بحسن سيرتها تكون شهيدة على الأمم السالفة وحجة عليها فى انحرافها عن هدى المرسلين ، والرسول صلى الله عليه وسلم بسيرته

وأخلاقه الغالية وسننه المرضية يكون حجة على من تركها وتساهل في اتباعها ، وعلى من تغالى فيها وابتدع البدع الأحدث من بعده .

روى البخارى والترمذى والنسائى وغيرهم من حديث ابن مسعود أنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « اقرأ على » . قلت : يارسول الله اقرأ عليك ، وعليك أنزل ؟ قال نعم أحب أن أسمعه من غيرى فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد) الخ فقال (حسبك الآن) فإذا عيناه تذرفان » .

فانظر كيف اعتبر بهذه الشهادة الشهيد الأعظم صلى الله عليه وسلم فبكي لتذكر هذا اليوم ، وهل نعتبر كما اعتبر ونستعد لهول ذلك اليوم باتباع سنته ونجتهد في اجتناب البدع والتقاليد التي لم تكن في عهده ، وبذا نكون أمة وسطا لا تقرب عندها في الدين ولا إفراط لا في الشؤون الجسمية ولا في الشؤون الروحية ، أو نظال في غوايتنا تقليدا للآباء فنكون كما قال الكافرون « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » .

(يَوْمَئِذٍ يَرَوُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تَسْوَى بِهِمُ الْأَرْضَ) أى إذا جاء ذلك اليوم الذى نأتى فيه بشهيد على كل أمة ، يتنى الذين كفروا وعصوا الرسول فلم يتبعوا ما جاء ، أن يحيدروا ترابا تسوى بهم الأرض فيكونوا وإياها سواء كما قال في سورة النبأ « ويقول الكافر يا ليتنى كنت ترابا » .

(وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا) أى إنهم يودون لو يكونون ترابا فتسوى بهم الأرض ولا يكونون قد كتموا الله وكذبوا أمامه على أنفسهم بإنكار شرهم وضلالهم كما قال تعالى « وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِجَاعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ، ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ، انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » أى فهم حينئذ يكذبون ويفكرون شرهم إما اعتقادا منهم أن ما كانوا عليه ليس بشرك وإنما هو استشفاع وتوسل ،

وإما مكابرة وظنا أن ذلك يجديهم ويدفع عنهم العذاب ، فيشهد عليهم الأنبياء المرسلون أنهم لم يكونوا متبعين لهم فيما أحدثوا من شركهم ، بل كانوا مبتدعين ذلك من عند أنفسهم ، فقد قاسوا ربهم على ملوكهم الظالمين وأمرائهم المستبدن الذين يتركون عقاب بعض المسيئين بشفاعة المقرين فإذا شهدوا عليهم تمنوا لو كانوا قد سويت بهم الأرض وما افتروا ذلك الكذب .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَزِرُ بُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا ، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ، إِنْ اللَّهُ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (٤٣)

شرح المفردات

الغائط المنخفض من الأرض كالوادي ، وأهل البادية والقرى الصغيرة يقصدونه عند قضاء الحاجة للستر والاستخفاء عن الناس ، وملامسة النساء الإفضاء إليهن ، تيمموا اقصدوا ، والصعيد وجه الأرض ، والطيب الطاهر ، العفو ذو العفو ، والعفو عن الذنب محوه وجعله كأن لم يكن ، والغفور ذو المغفرة ، والمغفرة ستر الذنوب بعدم الحساب عليها .

المعنى الجملى

بعد أن وصف سبحانه الوقوف بين يديه يوم العرض والأحوال التى تؤدى إلى تمتى الكافر العدم فيقول: يا ليتنى كنت ترابا ، والتى تجعله لا يستطيع أن يكتفى

الله حديثاً ، وذكر أنه لا ينجو في ذلك اليوم إلا من كان طاهر القلب والجوارح بالإيمان به والطاعة لرسوله - وصف في هذه الآية الوقوف بين يديه في مقام الأنس وحضرة القدس ، المنجى من هول الوقوف في ذلك اليوم ، وطلب فيه استكمال القوى العقلية وتوجيهها إلى جانب العلى الأعلى ألا تكون مشغولة بذكرى غيره ، طاهرة عن الأنجاس والأخبثات ، لتكون على أتم العدة للوقوف في ذلك الموقف الرهيب مستشعرة تلك العظمة والجلال والكبرياء . فقال :

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا لا تقر بوا الصلاة وأتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) أى لاتصلوا حال السكر حتى تعلموا قبل الشروع فيها ما ستقرءونه وماستمعونه ، ذاك أن حال السكر لا يتأتى معها الخشوع والخضوع والحضور مع الله بمناجاته بكتابه وذكره ودعائه . وهذا الخطاب موجه إلى المسلمين قبل السكر بأن يحتنبوه إذا ظنوا أنهم سيصلون ليحتاطوا فيجتنبوه في أكثر الأوقات ، وقد كان هذا تمهيدا لتحريم السكر تحريماً باتاً لاهوادة فيه إذ من يتقى أن يجيء عليه وقت الصلاة وهو سكران يترك الشرب عامة النهار وأول الليل لتفرق الصلوات الخمس في هذه المدة ، فلم يبق لسكر إلا وقت النوم من بعد العشاء إلى السحر فيقل الشراب لزاحة النوم له ، وأول النهار من صلاة الفجر إلى وقت الظهيرة وقت الكسب والعمل لأكثر الناس ، ويقل أن يسكر فيه إلا أصحاب البطالة والكسل .

وقد ورد أنهم كانوا بعد نزولها يشربون بعد العشاء فلا يصبحون إلا وقد زال السكر وصاروا يعلمون ما يقولون .

روى أبو داود والترمذى عن على كرم الله وجهه قال « صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت منا وحضرت الصلاة فقدمونى فقرأت . قل يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون فنزلت الآية » .

وروى ابن جرير عن عليّ أن الإمام كان يومئذ عبد الرحمن وأن الصلاة صلاة المغرب - وكان ذلك قبل أن تحرم الخمر .

ويفترق المعنى بين الأسلوبين (لا تقرّوا الصلاة وأنتم سكارى) ولا تقرّوا الصلاة سكارى إذ الأول يتضمن النهى عن السكر الذى يخشى أن يمتد إلى وقت الصلاة فيفضى إلى أدائها فى أثناءه ؛ وخلاصة المعنى عليه احذروا أن يكون السكر وصفا لكم عند حضور الصلاة فتصلوا وأنتم سكارى ، فامثال هذا النهى إنما يكون بترك السكر فى وقت الصلاة وفيما يقرب منها ، وأن الثانى يتضمن النهى عن الصلاة حال السكر فحسب .

وأما نهيههم عن الصلاة جنباً فلا يتضمن نهيههم عن الجنابة قبل الصلاة ، لأنها من سنن الفطرة وإنما ينهاهم عن الصلاة فى أثناءها حتى يغتسلوا ولهذا قال جنباً ولم يقل وأنتم جنب .

(ولا جنباً إلا عابري سبيل) أى لا تقرّوا الصلاة جنباً فى أى حال إلا حال كونكم عابري سبيل أى مجتازين الطريق ، وقد روى أن رجلاً من الأنصار كانت أبوابهم فى المسجد وكان يصيبهم الجنابة ولا يجدون ممراً إلا فيه فرخص لهم فى ذلك ولم يأمر النبي صلى الله عليه وسلم بسد تلك الأبواب والكوى إلا فى آخر عمره الشريف ولم يستثن إلا خوخة أبى بكر رضى الله عنه (الخوخة الكوة والباب الصغير) .

(حتى تغتسلوا) أى لا تقرّوا الصلاة جنباً إلى أن تغتسلوا ، إلا ما رخص لكم فيه من عبور السبيل فى المسجد .

وحكمة الاغتسال من الجنابة أن الجنابة تحدث تهيجاً فى الأعصاب فيتأثر البدن كله ويحدث فتور وضعف فيه يزيله الاغتسال بالماء ، ومن ثم ورد فى الحديث « إنما الماء من الماء » رواه مسلم .

والخلاصة - أن الدين طلب الصلاة حال العلم والفهم وتدبر القرآن والذكر وذلك يتوقف على الصحو وترك السكر ، كما طلب أن يكون الجسم نظيفاً نشيطاً وذلك

لا يكون إلا بإزالة الجنابة ، ولما كانت الصلاة فريضة موقوتة لا هوادة فيها ، لأنها تذكر المرء ربه وتعهده للتقوى وكان الاغتسال من الجنابة يتعسر في بعض الحالات ويتعذر في بعضها الآخر ، رخص الله لنا في ترك استعمال الماء والاستعاضة عنه بالتيمم ، فقال :

(وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم) المراد بالمرض المرض الذى يخاف زيادته باستعمال الماء كبعض الأمراض الجلدية والقروح كالخصبة والجدرى أو نحو ذلك ، والسفر يشمل الطويل والتصير ، والمراد بالحيء من الغائط الحدث الأصغر بخروج شئ من أحد السبيلين (القبل والدبر) وملامسة النساء غشيانهن .

ففي هذه الحالات (المرض . السفر . فقد الماء عقب الحدث الأصغر الموجب للوضوء والحدث الأكبر الموجب للغسل) أقصدوا وتحروا صعيدا طيبا أى وجها طاهرا من الأرض لا قذارة فيه ولا أوساخ ، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ثم صلوا .
والخلاصة — أن حكم المريض والمسافر إذا أراد الصلاة كحكم الحدث حدثا أصغر أو ملامس النساء ولم يجد ماء فعلى كل هؤلاء التيمم فقط قلبه الأستاذ الإمام .
لكن المعروف فى المذاهب الأربعة أن شرط التيمم فى السفر فقد الماء فلا يجوز مع وجوده وهذا بخلاف ظاهر الآية .

ومن تأمل فى رخص السفر التى منها قصر الصلاة وإباحة الفطر فى رمضان لا يستكر أن يرخص للمسافر فى ترك الغسل والوضوء مع وجود الماء وهما دون الصلاة والصيام فى نظر الدين ، فالشاهد أن الوضوء والغسل يشقان على المسافر الواجد الماء فى هذا الزمان الذى سهلت فيه وسائل السفر فى السكك الحديدية والبواخر فكيف تكون المشقة للمسافرين على ظهور الإبل فى مفاوز الحجاز وجبالها ، فأشقى ما يشقى فى السفر الغسل والوضوء وإن كان الماء حاضرا مستغنى عنه ، ففى البواخر يوجد الماء وتوجد الحمامات للاغتسال بالماء الساخن والماء البارد ولكنها خاصة بالأغنياء الذين

يركبون في الدرجة الأولى والثانية ، وهؤلاء الأغنياء منهم من يصيبه دوار شديد يتعذر معه الاغتسال ، أو خفيف يشق معه الاغتسال ولا يتعذر ، فإذا كانت هذه السفن التي يوجد فيها الماء على هذه الحال يتعسر فيها الاغتسال أو يتعذر فكيف يكون الاغتسال في قطر السكك الحديدية أو في قوافل الجبال والبغال .

روى أن هذه الآية نزلت في بعض أسفار النبي صلى الله عليه وسلم وقد انقطع عقد لعائشة ، فأقام النبي صلى الله عليه وسلم ياتمسسه والناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء ، فلما نزلت وصلوا بالنبي صلى الله عليه وسلم جاء أسيد بن الحضير إلى مضرب عائشة فجعل يقول : ما أكثر بركتكم يا آل أبي بكر ، وفي رواية : يرحمك الله يا عائشة ما نزل بك أمر تكرهينه إلا جعل الله تعالى فيه للمسلمين فرجا .

(إن الله كان عفواً غفورا) العفو هنا التيسير والسهولة ، ومنه قوله تعالى « خُذِ الْعَذْرَ » وقوله صلى الله عليه وسلم « قد عفوت عن صدقة الخيل والرقيق » أى أسقطتها تيسيرا عليكم ، ومن عفوّه وتسهيله أن أسقط في حال المرض والسفر وجوب الوضوء والغسل .

وقد جاءت هذه الجملة مبينة لمنشأ الرخصة واليسر الذي فيها - وهو عفو الله تعالى ، وفي ذلك إيماء إلى أن ما كان من الخطأ في صلاة السكارى كقولهم قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون - مغفور لهم لا يؤاخذون عليه .

قل السيد حسن صديق خان في شرحه ل[المروضة الندية] : قد كثر الاختباط في تفسير هذه الآية : وإن كنتم مرضى أو على سفر الخ والحق أن قيد عدم وجود الماء راجع إلى قوله (أو جاء أحد منكم من الغائط أو لادستم النساء) فتكون الأعذار ثلاثة : السفر والمرض وعدم وجود الماء في الحضر ، وهذا ظاهر على قول من يقول إن القيد إذا وقع بعد جمل متصلة كان قيذا لآخرها ، وأما على قول من يقول إنه يكون قيذا للجميع إلا أن يمنع مانع فكذلك أيضا لأنه قد وجد المانع هنا من تشييد السفر

والمرض بعدم وجود الماء - وهو أن كل واحد منهما عذر مستقل في غير هذا الباب كالصوم ، ويؤيد هذا أحاديث التيمم التي وردت مطلقة وغير مقيدة بالحضر اهـ . ومنه تعلم أن رأيه كراى الأستاذ الإمام من أن السفر وحده عذر كاف في التيمم وجد الماء أو لم يوجد .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا (٤٥) مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِالسِّنْتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ ، وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٤٦)

شرح المفردات

ألم ترى ألم تنظر ، نصيبا حظا ، السبيل الطريق التويم ، وليا أى يتولى شؤونكم ، نصيرا معينا يدفع شرهم عنكم ، من الذين هادوا هم اليهود ، غير مسمع ، يحتمل أن يكون المعنى غير مسمع مكروها ، وأن يكون غير مقبول منك ولا محباب إلى ما تدعو إليه ، وراعنا إما بمعنى ارقبنا وانظرنا نكلمك ، وإما بمعنى كلمة عبرانية كانوا يتسابون بها وهى (راعينا) وليا بالسنتهم أى فتلا بها وتحريفها ، طعنا فى الدين قدحا فيه ، أقوم أعدل وأسد ، إلا قليلا أى إلا قليلا من الإيمان لا يعابأ به .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الله سبحانه فى سابق الآيات كثيرا من الأحكام الشرعية ووعد فاعلها بجزيل الثواب وأوعد تاركها بشديد العقاب انتقل هنا إلى ذكر حال بعض

الأمم الذين تركوا أحكام دينهم وحرقوا كتابهم واشتروا الضلالة بالهدى لينبه الذين خوطبوا بالأحكام المتقدمة إلى أن الله مهيمن عليهم كما هيمن على من قبلهم ، فإذا هم قصروا أخذهم بالعقاب الذى رتبته على ترك أحكام دينه فى الدنيا والآخرة ، والمؤمنون بالله حقاً بعد أن سمعوا الوعد والوعيد المتقدمين لا بد أن يأخذوا بهذه الأحكام على الوجه الموصول إلى إصلاح الأنفس وذلك هو الأثر المطلوب منها ، وإن يكون ذلك إلا إذا أخذت بصورها ومعانيها لا بأخذها بصورها الظاهرة فحسب .

ولكن قد اكتفى بعض الأمم من الدين ببعض رسومه الظاهرة فقط كبعض اليهود الذين كانوا يكتفون ببعض القرايين وأحكام الدين الظاهرة وهذا لا يكفي فى اتباع الدين والقيام به على الوجه المصلح للنفوس كما أراده الله .

فأرشدنا سبحانه إلى أن عمل الرسوم الظاهرة فى الدين كالغسل والتيمم لا يغنى عنهم شيئاً إذا لم يظفروا القلوب حتى ينالوا مرضاته ويكونوا أهلاً لكرامته ولا يكون حالهم كحال بعض من سبقهم من الأمم .

الإيضاح

(ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل) أى ألم تنظر إلى هؤلاء الذين أعطوا طائفة من الكتاب الإلهى ، كيف حرموا هدايته واستبدلوا بها ضدها ، فهم يختارون الضلالة لأنفسهم ويريدون أن تضلوا أيها المؤمنون طريق الحق القويم كما ضلوا هم ، فهم دائبون على الكيد لكم ليردوكم عن دينكم إن استطاعوا .

والتعبير بالشراء دون الاختيار للإيحاء إلى أنهم كانوا فرحين بما عموا ظانين أن الخير كل الخير فيما صنعوا ، والتعبير بالنصيب يدل على أنهم لم يحفظوا كتبهم كله إذ هم لم يستظهروه زمن التنزيل كما حفظ القرآن ولم يكتبوا منه نسخاً متعددة فى العصر الأول كما فعلنا حتى إذا ما فقد بعضها قام مقامه بعض آخر ، بل كان عند اليهود نسخة

من التوراة هي التي كتبها موسى عليه السلام ففقدت ، ويؤيد هذا قوله تعالى « فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ » .

والخلاصة . إنهم لم يأخذوا الكتاب كله بل تركوا كثيرا من أحكامه لم يعملوا بها وزادوا عليها ، والزيادة فيه كالنقص منه ، فالتوراة تنهاهم عن الكذب وإيذاء الناس وأكل الربا وكانوا يفعلون ذلك ، وزاد لهم علمهم ورؤسائهم كثيرا من الأحكام والرسوم الدينية فتمسكوا بها وهي ليست من التوراة ولا مما يعرفونه عن موسى عليه السلام .

فالذي لم يعملوا به من التوراة قسمان : أحدهما ما أضاعوه ونسوه ، وثانيهما ما حفظوا حكمه وتركوا العمل به وهو كثير أيضا .

(والله أعلم بأعدائكم) أى والله أعلم منكم بمن هم أعداؤكم فأنتم تظنون في المنافقين أنهم منكم ومماهم منكم فهم يكيدون لكم في الخفاء ويخشونكم في الجهر فيبرزون الخديعة في معرض النصيحة ويظهرون لكم الولاء والرغبة والنصرة والله أعلم بما في قلبهم من العداوة والبغضاء .

(وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا) فهو الذي يرشدكم إلى مافيه خيركم وفلاحكم ، وهو الذي ينصركم على أعدائكم بتوفيقكم لصالح العمل والهداية لأسباب النصر من الاجتماع والتعاون وسائر الوسائل التي تؤدي إلى القوة ، فلا تطلبوا الولاية من غيره ولا النصرة من سواه ، وعليكم باتباع انسان التي وضعها في هذه الحياة ، ومنها عدم الاستعانة بالأعداء الذين لا يعملون إلا لمصالحهم الخاصة كاليهود وغيرهم .

(من الذين هادوا) هذا بيان المراد من الذين أوتوا الكتاب بأنهم يهود ونصارى ، وقوله (والله أعلم) ريقه (وكفى بالله) جملتان معترضتان بين البيان والمبين .

(يحرفون الكلم عن مواضعه) جاءت هذه الجملة لتبيين المراد من اشتراطهم الضلالة بالهدى ، والتعريف يطابق على معنيين : أحدهما تأويل القول بحمله على غير معناه الذي وضع له ، كما يؤوّلون البشارات التي وردت في النبي صلى الله عليه وسلم

ويؤولون ما ورد في المسيح ويحماونه على شخص آخر ولا يزالون ينتظرونه إلى اليوم .
وثانيهما أخذ كلمة أو طائفة من الكلم من موضع من الكتاب ووضعها في موضع
آخر ، وقد حصل هذا في كتب اليهود ، خلطوا ما يؤثر عن موسى بما كتب بعده
بزمن طويل ، وكذلك ما وقع في كلام غيره من أنبيائهم ، واعترف بهذا بعض
العلماء من أهل الكتاب ، وقد كانوا يقصدون بهذا التحريف الإصلاح في زعمهم ،
وسبب هذا النوع من التحريف أنه وجدت عندهم قراطيس متفرقة من التوراة بعد
فقد النسخة التي كتبها موسى عليه السلام وأرادوا أن يؤلفوا بينها فجاء فيها ذلك
الخلط بالزيادة والتكرار ، كما أثبت ذلك بعض الباحثين من المسلمين كالشيخ رحمة
الله الهندي في كتابه [إظهار الحق] وأورد له من الشواهد ما لا يحصى .

(ويقولون سمعنا وعصينا وسمع غير مسمع وراعنا) أى ويقول هؤلاء اليهود
للنبي صلى الله عليه وسلم سمعنا قولك وعصينا أمرك ، وقد روى عن مجاهد أنهم قالوا
للنبي صلى الله عليه وسلم ، سمعنا قولك ولكن لا نطيعك ، وكذلك هم كانوا يقولون
له (اسمع غير مسمع) يدعون عليه ، على معنى لا أسمعك الله ، في الموضع الذي
يقول فيه المتأدبون للمخططين « لا سمعت أذى أو لا سمعت مكروها » .

وكذلك كانوا يقولون له راعنا ، وقد روى أن اليهود كانوا يتساجن بكلمة
(راعينا) العبرانية فسمعوا بعض المؤمنين يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم راعنا من
المراعاة ذفترصها وصاروا يلوون ألسنتهم بالكلمة ويصرفونها إلى المعنى الآخر .

(ألبا بألسنتهم وطعنا في الدين) أى هم يلوون ألسنتهم فيجاءونها في الظاهر راعنا
وبلى اللسان وإماتته (راعينا) قصدا منهم للساب والشتم والسخرية ، أو جعله راعيا
من رعاة الغنم أو من الرعونة ، ومن تحريف اللسان وليه خطيبهم للنبي صلى الله عليه
وسلم وتحيته بقولهم (السلام - الموت - عليكم) يوهمون بقتل اللسان وجمجمته أنهم
يقولون له (السلام عليكم) وقد ثبت هذا في صحيح الأحاديث ، كما ثبت أن النبي صلى
الله عليه وسلم بعد أن علم عنهم ذلك كان يحییهم بقوله (وعليكم) أى كل أحد يموت .

(ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم) أى ولو أنهم قالوا سمعنا قولك وأطعنا أمرك لعلمهم بصدقك ولوجود الأدلة والبيّنات المتظاهرة على ذلك ، وكذلك لو قالوا اسمع منا ما نقول وانظرنا أى أمهلنا وانتظرنا ولا تعجل علينا حتى نتفهم عنك ما تقول ، لكان ذلك خيرا لهم وأصوب مما قالوه لما فيه من الأدب والفائدة وحسن العاقبة .

(ولكن لعنهم الله بكفرهم) أى ولكن خذهم الله وأبعدهم عن الطاعة بسبب كفرهم ، إذ قد مضت سنة الله فى البشر بأن الكفر والعناد يمنع صاحبه من التفكير والتروى والأدب فى الخطاب ويجعله بعيدا من الخير والرحمة فلا يمت إليهما بسبب ولا يصل إليهما برحم ولا نسب .

(فلا يؤمنون إلا قليلا) أى هم لا يؤمنون إلا إيمانا قليلا لا يعتدّ به ، فهو لا يصلح عملا ولا يطهر نفسا ولا يرقى عقلا ، ولو كان إيمانهم بنبيهم وكتابهم إيمانا كاملا لهداهم إلى التصديق بمن جاء مصدقا لما معهم من الكتاب ، وبين لهم ما نسوا منه وما حرقوا فيه ، كما جاءهم بمكارم الأخلاق والنظم الكاملة فى الاجتماع والتشريع ، وبما إن اتبعوه كانوا على الهدى والرشاد وعلى الحق والسداد .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آثَرُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بَمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلُ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٤٧)

شرح المفردات

الكتاب التوراة ، الطمس إزالة الأثر بمحوه أو إخفائه كما تطمس آثار الدار وأعلام الطرق إما بنقل حجارتها. وإما أن تسفوها الرياح ، ومنه الطمس على الأموال فى قوله «رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ» أى أزها وأهلكها، والطمس على الأعين فى قوله

« وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ » إما إزالة نورها وإما محو حدقتها ، والوجه تارة يراد به الوجه المعروف ، وتارة وجه النفس وهو ما تتوجه إليه من المقاصد كما قال تعالى « أَسَلَّمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ » وقال « وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ » وقال « فَاقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا » والأدبار واحدها دبر وهو الخلف والقفأ ، والارتداد هو الرجوع إلى الوراء إما فى الحسيات وإما فى المعانى ، ومن الأول الارتداد والقرار فى القتال ، ومن الثانى قوله « إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ » ونلعنهم نهلكهم ، كما لعنا أصحاب السبت ، أى كما أهلكنا أصحاب السبت ، وقيل مسخهم الله وجعلهم قردة وخنازير كما أخرجه ابن جرير عن الحسن .

المعنى الجملى

بعد أن نعى على أهل الكتاب فى الآية السالفة اشتراءهم الضلالة بالهدى بتحريرهم بعض الكتاب وإضاعة بعضه الآخر - ألزمهم هنا بالعمل بما عرفوا وحفظوا بأن يؤمنوا بالقرآن ، ذلك أن إيمانهم بالتوراة يستدعى الإيمان بما يصدقها ، وحذرهم من مخالفة ذلك وتوعدهم بالويل والثبور وعظائم الأمور .

الايضاح

(يأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم) أى آمنوا بالكتاب الذى جاء مصدقا لما معكم من تقرير التوحيد والابتعاد عن الشرك ، وما يقوى ذلك الإيمان من ترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وتلك هى أصول الدين وأركانها والمقصد الأسمى من إرسال جميع الرسل ، ولا خلاف بينهم فى ذلك وإنما الخلاف فى التفاصيل وطرق حمل الناس عليها وهدايتهم بها وترقيتهم فى معارج الفلاح على حسب السنن التى وضعها الله فى ارتقاء البشر ، بتعاقب الأجيال واختلاف الأزمان ،

انظر إلى الحكومات الخنيفة المتعاقبة تجد أن رائدها العدل ، ولكن الوسائل الموصلة إليه تختلف باختلاف الأمم والبيئة والزمان والمكان ، فتغيير الحاكم الجديد لبعض ما كان عليه من قبله ليس ببدع ولا مستنكر إذا كان مقصده إقامة ميزان العدل فيما بين الناس ، وحينئذ يسمى مصدقا لما قبله لا مكذبا ولا مخالفا .

والقرآن قرر نبوة داود وسليمان وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام فيما جاءوا به ، ووبخ المدعين اتباعهم على إضاعتهم بعض ما جاءوا به وتحريف بعضه الآخر ، وعلى عدم الاهتداء والعمل بما هو محفوظ عندهم ، حتى إن أكثرهم هدموا الأسس التي جاءت بها الأنبياء ومن أعظمها التوحيد فاتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً .

(من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أديبارها) أى آمنوا قبل أن يحل بهم العقاب من طمس الوجوه والرد على الأديبار أى من قبل أن نطمس وجوه مقاصدكم التي توجهتم إليها من كيد الإسلام ونردها خاسرة إلى الوراء بإظهار الإسلام ونصره عليكم ، وقد كان لهم عند نزول الآية شيء من المكانة والقوة والعلم والمعرفة .
وجعل بعضهم الرد على الأديبار حسيا فقتل نردهم على أديبارهم بالجلاء إلى فلسطين والشام وهي بلادهم التي جاءوا منها .

وخلاصة المعنى — آمنوا قبل أن نعى عليكم السبيل بما نبصر المؤمنين بشؤونكم ونغريهم بكم فنردوا على أديباركم بأن يكون سعيكم إلى غير الخير لكم .
(أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت) أى آمنوا قبل أن تقعون في الخيبة والخذلان وذهاب العزة باستيلاء المؤمنين عليكم وإجلائكم من دياركم كما حدث لطائفة منكم ، أو بالهلاك كما وقع بقتل طائفة أخرى وهلاكها .

(وكان أمر الله مفعولا) المراد من الأمر الأمر التكويني المعبر عنه بقوله عز من قائل « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » أى إنما أمره بإيقاع شيء ما نافذ لا محالة ، ومن هذا ما أوعدتم به ، قال ابن عباس يريد لاراد لحكمه ولا ناقض

لأمره فلا يتعذر عليه شيء يريد أن يفعله كما تقول في الشيء الذي لاشك في حصوله :
هذا الأمر مفعول وإن لم يفعل بعد .

والمخالصة — أنه يقول لهم أنتم تعلمون أن وعيد الله للأمة السالفة قد وقع ولا
محالة فاحترسوا وكونوا على حذر من وعيده لكم .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ
يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ
بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٤٩) أَنْظِرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ
عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا (٥٠)

شرح المفردات

يقال افتري فلان الكذب إذا اعتمله واختلقه ، وأصله من الفري بمعنى القطع ،
وتزكية النفس مدحها قال تعالى « فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى » والظلم
النقص ، والفتيل ما يكون في شق نواة التمر مثل الخيط ، وبه يضرب المثل في الشيء
الحقير كما يضرب بمثقال الذرة ، قال الراغب : الإثم والآثام اسم للأفعال المبطئة عن
الثواب أي عن الخيرات التي يثاب المرء عليها ، وقد يطلق الإثم على ما كان ضاراً .

المعنى الجملى

بعد أن هدد سبحانه اليهود على الكفر وتوعدهم عليه بأشد الوعيد كطمس الوجوه
والرد على الأدبار ، ثم بين أن ذلك الوعيد واقع لا محالة بقوله : وكان أمر الله مفعولاً .
ذكر أن هذا الوعيد وشديد التهديد إنما هو لجرمة الكفر ، فأما سائر الذنوب
سواه فالله قد يغفرها ويتجاوز عن زلاتها .

أخرج ابن المنذر عن أبي مجز قال : لما نزل قوله تعالى « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » قام النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر فثلاها على الناس ، فقام إليه رجل فقال والشرك بالله ، فسكت ، ثم قام إليه فقال يا رسول الله والشرك بالله تعالى فسكت مرتين أو ثلاثا فنزلت هذه الآية .

الإيضاح

(إن الله لا يغفر أن يشرك به) الشرك بالله ضربان :

(١) شرك في الألوهية ، وهو الشعور بسطة وراء الأسباب والسنن الكونية لغير الله تعالى .

(٢) شرك في الربوبية ، وهو الأخذ بشيء من أحكام الدين بالتحليل والتحرير عن بعض البشر دون الوحي ، وهذا ما أشار إليه الكتاب الكريم بقوله « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ بْنِ مَرْيَمَ » وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم اتخاذهم أرباباً بطاعتهم واتباعهم في أحكام الحلال والحرام . وقد سرى الشرك في الألوهية والربوبية إلى بعض المسلمين منذ قرون كثيرة . وفي الآية إيماء إلى تسمية أهل الكتاب بالمشركين ، وكأنه يقول لهم : لا يغرنكم اتماؤكم إلى الكتب والأنبياء ، وقد هدمتم أساس الدين بالشرك الذي لا يغفره الله بحال .

والحكمة في عدم مغفرة الشرك أن الدين إنما شرع لتزكية النفوس وتطهير الأرواح وترقية العقول ، والشرك يناقض كل هذا ، لأنه منتهى ما تهبط إليه العقول ، ومنه تتولد سائر الرذائل التي تفسد الأفراد والجماعات ، فبه يرفعون من دونهم أو من هم مثلهم إلى مرتبة التقديس والخضوع لهم باعتبار أن السلطة العليا بأيديهم ، وأن إرضاءهم وطاعتهم هو إرضاء الله وطاعة له .

وبالتوحيد يعتق المرء من رق العبودية لأحد من البشر أو لشيء من الأشياء السماوية أو الأرضية ، ويكون حرا كريما لا يخضع إلا لمن خضعت لسننه الكائنات بما أقامه من ربط الأسباب بالمسببات .

والخلاصة — أن أرواح الموحدين تكون راقية لا تهبط بها الذنوب إلى الحضيض الذى تهوى إليه أرواح المشركين ، إذ مهما عمل المشرك من الطيبات ، فإن روحه تبقى مظلمة بالعبودية والخضوع لغير الله ، ومهما أذنب الموحدون ، فإن ذنوبهم لا تحيط بأرواحهم ، إذ خيرهم يغلب شرهم ، ولا يبعد بهم الأمد وهم فى غفلة عن ربهم كما قال تعالى « إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ » فهم يسرعون إلى التوبة ويتبعون السيئة بالحسنة حتى يذهب أثرها من النفس ، وذلك هو غفرانها .

(ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) أى ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء من عباده الذين أذنبوا ، ومشية الله تعالى تكون وفق حكمته ، وعلى مقتضى سنته فى خبيثته وقد جرت سنته بالألأ يغفر الذنوب التى لا يتوب صاحبها ، ولا يتبعها بالحسنات التى تزيل آثارها من نفس أصحابها .

وقصارى ذلك أن الشرك لإفساده للنفوس يترتب عليه العقاب حتما فى الدنيا والآخرة ، وما عداه لا يصل إلى درجته فى إفساد النفوس ، فغفرته ممكنة تتعلق بها المشية الإلهية ، فنه ما يكون تأثيره السىء فى النفوس قويا ، ومنه ما يكون ضعيفا يغفر بالتأثير بصالح العمل .

(ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما) أى ومن يجعل لغير الله شركة مع الله قيوم السموات والأرض — سواء أكانت الشركة بالإيجاد أو بالتحليل والتحرير — فقد اخترع ذنبا عظيما الضرر ، تستصغر فى جنب عظمتة جميع الذنوب والآثام ، فهو جدير بالألأ يغفر ، وما دونه قد يحى بالغفران .

(ألم تر إلى الذين يزكون) أى انظر وأعجب من الذين يدعون أنهم أزكيا

بررة عند الله ، مع ما هم عليه من الكفر وعظيم الذنب ، زعما منهم أن الله يكفر لهم ذنوبهم التي عموها ، والله لا يغفر لكافر شيئا من كفره ومعاصيه .

وتزكية النفس تارة تكون بالعمل الذي يجعلها زكية طاهرة كثيرة الخير والبركة بتنمية فضائلها وكلماتها ، ولا يكون ذلك إلا بابتعادها عن الشرور والآثام التي تعوقها عن الخير ، وهذه التزكية محمودة وهي التي عنها الله سبحانه بقوله : « قَدْ أَفْحَحَ مَنْ رَكَاهَا » .

وتارة تكون بالقول بادعاء الكمال والزكاة ، وقد اتفق العقلاء على استهجان تزكية المرء نفسه بالقول ولو حقا ، ومصدر هذه التزكية الجهل والغرور ، ومن آثاره السيئة الاستكبار عن قبول الحق ، والانتفاع بالنصح .

روى ابن جرير عن الحسن أن الآية نزلت في اليهود والنصارى حيث قالوا « نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ » وقالوا « لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى » وقالت اليهود « لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً » وروى عن السدي أنه قال : نزلت في اليهود حيث قالوا : إنا نعلم أبناءنا التوراة صغارا فلا تكون لهم ذنوب ، وذنوبنا مثل ذنوب آبائنا ، ما علمنا بالنهار كفر عنا بالليل .

وقد رد الله عليهم دعواهم الزكاة والطهارة فقال :

(بل الله يزكي من يشاء) أى لا عبرة بتزكيتكم أنفسكم بأن تقولوا نحن أبناء الله وأحباؤه ، وبأنكم لا تعذبون في النار ، لأنكم شعب الله المختار ، وتتفاخروا بنسبكم وبدينكم ، بل الله يزكي من يشاء من عباده ، من أى شعب كان ، ومن أى قبيلة كانت ، فيهديهم إلى صحيح العقائد ، وفاضل الآداب ، وصالح الأعمال .

(ولا يظلمون فتيلا) أى ولا ينقص الله هؤلاء الذين يزكون أنفسهم شيئا من

الجزاء على أعمالهم ،

نخذلأنهم في الدنيا بالعبودية لغيرهم ، وفي الآخرة بالعذاب والحرمات من النعيم والثواب ، ما كان بظلم من الله عز اسمه ، بل كان بنقصان درجات أعمالهم ، وعجزها

عن الصعود بأرواحهم إلى مستوى الرفعة والكرامة ، لتزكيتهم إياها بالقول الباطل دون الفعل ، فلم تصل بهم نفوسهم إلى مراتب الفوز والفلاح .
وفي الآية موضعان من العبرة :

(١) أن الله يجزى عامل الخير بعمله ولو مشركا ، لأن لعمله أثرا في نفسه يكون منوط الجزاء ، فيخفف عذابه عن عذاب غيره كما ورد في الأحاديث ، أن بعض المشركين ينفق عنهم العذاب بعمل فم ، فحاتم الطائي بكرمه ، وأبو طالب بكفالاته النبي صلى الله عليه وسلم ونصره إياه ، وأبو لهب لعنته جاريتته ثوبة حين بشرته بمولد النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) أن يحذر المسلمون الغرور بدينهم كما كان أهل الكتب في عصر التنزيل وما قبله ، وأن يبتعدوا عن تركية أنفسهم بالقول ، واحتقار من عداهم من المشركين ، وأن يعلموا أن الله لا يحب في نظم الخليقة أحدا لا مسلما ولا يهوديا ولا نصرانيا ، ألا ترى أن خاتم النبيين قد شج رأسه ، وكسرت سننه ، ورُدَى في حفرة من جرأ تقصير عسكره فيما يجب من اتباع أمر القائد وعدم مخالفته ، وأن يبتدوا بكتاب الله وبسننه في الأمم ، وأن يتركوا وساوس الدجالين الذين يصرفونهم عن الاهتداء بهدى كتابهم ، ويشغلونهم بما لم ينزل الله به عليهم سلطانا ، فإنه ما زال ملكهم وما ذهب عزهم إلا بتركهم لهدى دينهم ، واتباعهم لأولئك الدجالين والمشعوذين .
ثم أكد التعجيب من حالهم الذي فهم من الآية السابقة فقال :

(انظر كيف يفترون على الله الكذب) أى انظر كيف يكذبون على الله بتركية أنفسهم وزعمهم أن الله يعاملهم معاملة خاصة بهم ، لا كما يعامل سائر عباده .
(وكفى به إثما مبينا) أى إن تركية النفس والغرور بالدين والجبن مما يبطل عن نافع العمل الذي يثاب عليه الناس ، وكفى بهذا إثما ظاهرا ، لأنه لا أثر له من حق ، ولا سمة عليه من صواب ، فالله لا يعامل شعبا معاملة خاصة تغير سننه التي وضعها في الخليقة وما مصدر هذه الدعوى إلا الغرور والجهل ، وكفى بذلك شرا مستطيرا .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ
وَالطَّاغُوتِ ، وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا
سَبِيلًا (٥١) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ، وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢)
أَمْ لَهُمْ نَصِيْبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ
النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ ، وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَهِنَهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ
صَدَّ عَنْهُ ، وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥)

شرح المفردات

الجبث أصله الجبس وهو الردى الذى لا خير فيه ، ويراد به هنا الأوهام
والخرافات والدجل ، والطاغوت ما تكون عبادته والإيمان به سببا للظغيان والخروج
من الحق من مخلوق يعبد ، ورئيس يقلد ، وهوى يتبع ، وروى عن عمر ومجاهد أنه
الشيطان ، والنقيير النقرة التى فى ظهر النواة ، ومنها تنبت النخلة يضرب بها المثل
فى الشئ الحقير التافه ، كما يضرب المثل بالقطير وهو القشرة الرقيقة التى على النواة
بينها وبين القمرة ، والحسد تمنى زوال النعمة عن صاحبها المستحق لها ، والناس هنا
محمد صلى الله عليه وسلم ومن آمن معه ، والفضل النبوة والكرامة فى الدين والدنيا ،
والكتاب العلم بظاهر الشريعة ، والحكمة العلم بالأسرار المودعة فيها ، والملك العظيم
ما كان لأنبياء بنى إسرائيل كداود وسليمان عليهما السلام ، وصد عن الشئ أعرض
عنه ، ونار مسعرة موقدة ، ويقال أوقدت النار وأسعرتها .

المعنى الجملى

أخرج ابن إسحاق عن ابن عباس قال : كان الذين حزبوا الأحزاب من قريش وخطفان وبنى قريظة ، هم حِيَّ بن أخطب ، وسلام بن أبي الحقيق ، وأبو عمار ، وهوذة بن قيس ، وباقيهم من بنى النضير ، فلما قدموا على قريش قالوا هؤلاء أحبار اليهود وأهل العلم بالكتب الأولى ، فاسألوهم أدينكم خير أم دين محمد ؟ فسالوهم فقالوا دينكم خير من دينه ، وأنتم أهدى منه ومن اتبعه ، فأنزل الله (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب — إلى قوله مكا عظيما) قاله السيوطى فى لباب النقول .

وقد تكون هذه الآيات نزلت بعد غزوة الأحزاب أو فى أثناءها ، إذ نقض اليهود عهد النبى صلى الله عليه وسلم واتفقوا مع المشركين على استئصال شأفة المسلمين حتى لا يظهروا عليهم ، ومن ثم فضاوهم على المؤمنين ، كما أن هذا التفضيل ربما كان عند النداء بالنفير للحرب .

الإيضاح

(ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجلبت والطاغوت ؟)

أى ألم تنظر إلى حال هؤلاء الذين أوتوا نصيبا من الكتاب كيف حرموا هدايته وهداية العقل والفطرة ، وآمنوا بالدجل والخرافات ، وصدقوا بالأصنام والأوثان ، ونصروا أهبا من المشركين على المؤمنين المصدقين بنبوة أنبيائهم والمعترفين بحقية كتبهم ؟

(ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا) أى ويقولون إن المشركين أرشد طريقة فى الدين من المؤمنين الذين اتبعوا محمدا صلى الله عليه وسلم .

قال ابن جرير : إن الله وصف الذين أوتوا نصيبا من الكتاب من اليهود بتعظيمهم غير الله بالعبادة ، والإذعان له بالطاعة فى الكفر بالله ورسوله ومعصيتهما ، وأنهم قالوا إن أهل الكفر بالله أولى بالحق من أهل الإيمان به ، وأن دين أهل التكذيب لله ورسوله أعدل وأصوب من دين أهل التصديق لله ورسوله اه .

وروى عن عكرمة أن كعب بن الأشرف انطلق إلى المشركين من كفار قريش فاستجاشهم على النبي صلى الله عليه وسلم ، وأمرهم أن يغزوه ، وقال إنا معكم نقاتله ، فقالوا إنكم أهل كتاب وهو صاحب كتاب ، ولا نأمن أن يكون هذا مكرًا منكم ، فإن أردت أن تخرج معنا فأسجد لهذين الصنمين وآمن بهما ففعل ، ثم قالوا نحن أهدي أم محمد ؟ فنحن ننحر الكوماء (الناقة الضخمة السنام) ونسقى اللبن على الماء ونصل الرحم ونقرى الضيف ، ونطوف بهذا البيت ، ومحمد قطع رحمه وخرج من بلده ، فقال بل أنتم خير وأهدى .

(أولئك الذين لعنهم الله) أى أولئك الذين اقتضت سنن الله فى خلقه أن يكونوا بعيدين عن رحمته مطرودين من فضله وجوده .

(ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا) أى ومن يبعده الله من رحمته فلن ينصره أحد من دونه ، إذ لا سبيل لأحد إلى تغيير سننه تعالى فى خليقته ، وهو قد جعل الخذلان نصيب من يؤمنون بالجبت والطاغوت ، إذ هم قد تجاوزوا سنن الفطرة وانبعوا الخرافات والأوهام ، لأنه إنما ينصر المؤمنين باجتنايبهم ذلك « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ » .

ثم انتقل من توبيخهم على الإيمان بالجبت والطاغوت ، وتفضيلهم المشركين على المؤمنين ، إلى توبيخهم على البخل والأثرة ، وطمعهم فى أن يعود إليهم الملك فى آخر الزمان وأنه سيخرج منهم من يجدد ملكيهم ودولتهم ويدعو إلى دينهم فقال : (أم لم نصيب من الملك) أى إنهم لاحظ لهم من الملك إذ هم فقدوه بظلمهم وطفيتهم ، وإيمانهم بالجبت والطاغوت .

(فإذا لا يؤتون الناس نقيرا) أى إنه لو كان لهم نصيب من الملك لاتبعوا طريق البخل والأثرة وحصروا منافعه فى أنفسهم فلا يعطون الناس منه نقيرا .
والخلاصة - أن اليهود ذوو أثره وشح يشق عليهم أن ينتفع منهم غير اليهودى فإذا صار لهم ملك حرصوا على منع الناس أدنى النفع وأحقره ، ومن كانت هذه حاله

حرص أشد الحرص على ألا يظهر نبي من العرب يكون لأصحابه ملك يخضع لهم فيه بنو إسرائيل ، ولا تزال هذه حالهم إلى اليوم ، فإن تم لهم ما يسمعون إليه من إعادة ملكهم إلى بيت المقدس وما حوله فإنهم يطردون المسلمين والنصارى من تلك الأرض المقدسة ولا يعطونهم منها نقيرا .

ولكن هل يعود الملك كما يريدون ؟ ليس فى الآية ما يثبت ذلك ولا ما ينفيه ، وإنما الذى فيها بيان طبايعهم فيه لو حصل .

ثم انتقل من توبيخهم بالدخول إلى توبيخهم بالحسد فقال : (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) أى إن هؤلاء يريدون أن يضيق فضل الله بعباده ، ولا يحبون أن يكون لأمة فضل أكثر مما لهم أو مثله لما استحوذ عليهم من الغرور بنسبهم ونقايلهم مع سوء حالهم .

وهم قد رأوا أن محمدا صلى الله عليه وسلم بعد أن أعطى النبوة جعله الله كل يوم أقوى دولة وأعظم شوكة وأكثر أعوانا وأنصارا من أجل هذا حسدوه حسدا عظيما .

و بعد أن ذكر أن كثرة نعمه عليه صارت سببا لحسد هؤلاء اليهود بين ما يدفع ذلك الحسد قتل :

(فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما) أى إن يحسدوا محمدا على ما أوتي فقد أخطئوا إذ ليس هذا بيدع منا لأننا قد آتينا مثل هذا من قبل لآل إبراهيم والعرب منهم فإنهم من ذرية ولده إسماعيل ، فلم لم تعجبوا مما آتى آل إبراهيم وتعجبون مما آتى محمدا صلى الله عليه وسلم ؟ ولم لا يكون مستبعدا فى حق هؤلاء ومستبعدا فى حق محمد صلى الله عليه وسلم ؟ وفى الآية رمز إلى أنه سيكون للمسلمين ملك عظيم يتبع النبوة والحكمة ، وقد ظهرت تبشيريه عند نزول الآيات بالمدينة فقد قويت شوكتهم وأخذ أمرهم يعظم رويدا رويدا .

والخلاصة — أن اليهود إما مغرورون مخدوعون يظنون أن فضل الله لا يعدوهم ورحمته تضيق بغيرهم ، وإما حاسبون أن ملك السكون فى أيديهم فهم لا يعطون

أحدا منه ولو حقيرا كالنقيير ، وإما حاسدون للعرب على ما أعطاهم الله من الكتاب والحكمة والملك الذى ظهرت مبادئه ومقدماته .

(فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه) قوله به أى بمن تقدم من الأنبياء كإبراهيم وآله ، أى إن أولئك الأنبياء مع ما اختصوا به من النبوة والملك لم تؤمن أمتهم جميعا بهم بل منهم من آمن بهم ومنهم من بقى على كفره ، فلا تعجب أيها الرسول مما عليه قومك ، فإن هذه حال جميع الأمم مع أنبيائهم .

وفى هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ليكون أشد صبرا على ما يناله من قبلهم من الأذى والجحود والإنكار « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » .

(وكفى بجهنم سعيرا) أى إن انصرف عنهم بعض العذاب فى الدنيا فكفاهم ما أعد لهم من سعير جهنم فى العقبى ، لأنهم آثروا اتباع الباطل والعمل بما يزينه لهم على اتباع الحق ، ولا يزال ذلك دأبهم حتى يردىهم فى دار الشقاء والنكال وهى جهنم وبئس القرار .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧)

تفسير المفردات

نصليهم نشويهم بالنار ، يقال شاة مصلية ، أى مشوية ونضجت احترقت وتهرأت وتلاشت من قولهم نضج الثمر واللحم نضجا إذا أدرك ، ليذوقوا العذاب أى ليدوم لهم

ذوقه ولا ينقطع كما تقول للعزیز : أعزك الله أى أدام لك العز وزادك فيه ، العزیز القادر الغالب على أمره ، والحكيم هو المدبر للأشياء وفق الحكمة والصواب ، ومطهرة أى من العيوب والأدناس الحسية والمعنوية ، وقوله ظلاً ظليلاً كقولهم ليل أليل وصف للمبالغة والتأكيد فى المعنى أى ظل وارف لا يصيب صاحبه حر ولا سموم ودائم لا تنسخه الشمس ، وقد يعبر بالظل عن العزة والمتعة والرفاهية فيقتل «السلطان ظل الله فى أرضه» ، ولما كانت بلاد العرب غاية فى الحرارة كان الظل عندهم أعظم أسباب الراحة ، وكان ذلك عندهم رمزا للنعيم المقيم ، والآيات الأدلة التى ترشد إلى أن هذا الدين حق ، ومن أجتها القرآن لأنه أول الدلائل وأظهر الآيات وأوضحها ، والكفر بها يعم إنكارها والعقلة عن النظر فيها وإلقاء الشبهات والشكوك مع العلم بصحتها عنادا وحسداً ، والخلود الدوام وقد أكد به بقوله أبداً ، ومطهرة أى بريئات من المعاييب الجسمية والطباع الردية .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه فى الآية السالفة أن ممن دعوا إلى التصديق بالأنبياء فريقاً نأى وأعرض عن اتباع الحق ، ثم توعد من أعرض بسعير جهنم .
فصل هنا الوعيد بذكر أحوال الفريقين وما يلاقيه كل منهم من الجزاء يوم القيامة فقال :

الإيضاح

(إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا) أى إن الله تعالى قد أعد لمن جحد بآياته التى أنزلها على أنبيائه نارا مسعرة تشويهم وتحرق أجسامهم حتى تفقدها الحس والإدراك .

(كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها) أى كلما فقدت التماسك الحيوى وبعدت عن الحس والحياة بدلها جلودا أخرى حية تشعر بالألم وتحس بالعذاب .

قال الدكتور عبد العزيز إسماعيل باشا عليه سحائب الرحمة في كتابه [الإسلام والطب الحديث] والحكمة في تبديل جلود الكفار ، أن أعصاب الألم هي في الطبقة الجلدية ، وأما الأنسجة والعضلات والأعضاء الداخلية فالإحساس فيها ضعيف ، ولذلك يعلم الطبيب أن الحرق البسيط الذي لا يتجاوز الجلد يحدث ألما شديدا ، بخلاف الحرق الشديد الذي يتجاوز الجلد إلى الأنسجة ، لأنه مع شدته وخطره لا يحدث ألما كثيرا ، فالله يقول لنا إن النار كما أكلت الجلد الذي فيه الأعصاب تجرده كي يستمر الألم بلا انقطاع ، ويذوقوا العذاب الأليم ، وهنا تظهر حكمة الله قبل أن يعرفها الإنسان ، وكان الله عزيزا حكيما هـ .

(ليذوقوا العذاب) ليدوم لهم ذوق العذاب ، لأن الإحساس يصل إلى النفس بواسطة الحياة في الجلد ، وفي هذا إزالة لوهم ربما يعرض لبعض الناس قياسا على ما يعهدون في أنفسهم في الدنيا من أن الذي يتعود الألم يقل شعوره به ويصير عاديا عنده ، كما يشاهد في كثير من الآلام والأمراض التي يطول أمدها ، وفي قوله ليذوقوا إيماء إلى أن إحساسهم بذلك العذاب يكون كإحساس الذائق المذوق لا يدخل فيه نقصان ولا زوال بسبب ذلك الاحتراق .

(إن الله كان عزيزا حكيما) أي إنه تعالى عزيز قادر لا يمتنع عليه شيء مما توعده به أو وعد ، حكيم يعاقب من يعاقبه وفق الحكمة ، ومن حكمته أن ربط الأسباب بالمسببات فلا يستطيع أحد أن يغلبه على أمره فيبطل إرادتها ، فهو كما جعل الكفر والمعاصي سببا للعذاب كما تقدم في الآية ، جعل الإيمان والعمل الصالح سببا للنعيم وذلك ما بينه تعالى بقوله :

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا) أي إن الذين آمنوا بالله وصدقوا برسوله سيدخلون جنات يتمتعون بنعيمها العظيم كفاء ما أختبوا إلى ربهم وقدموا من عمل صالح لأن الإيمان وحده

لا يكفي لتزكية النفس وإعدادها لهذا الجزاء ، بل لا بد معه من عمل صالح يشعر به المرء بالقرب من ربه والشعور بهيئته وجلال سلطانه .

(لهم فيها أزواج مطهرة) أى لهم أزواج مبرات من العيوب الجسدية والعيوب الخلقية ، فليس فيهن ما يوحشهن منهن ولا ما يكدر صفوهن ، وبذا تكمل سعادتهن ، ويتم سرورهم فى تلك الحياة التى لا نعرف كنهها ، وإنما نفهمها على طريق التمثيل وقياس الغائب على الشاهد .

(وندخلهم ظلاً ظليلاً) أى ونجعلهم فى مكان لا حر فيه ولا قر ، وفى ذلك إيماء إلى تمام النعمة والتمتع برغد العيش وكمال الرفاهية .

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ، إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩)

شرح المفردات

الأمانة الشئ الذى يحفظ نيؤدى إلى صاحبه ، ويسمى من يحفظها ويؤديها حفيظاً وأميناً ووفياً ، ومن لا يحفظها ولا يؤديها خائناً ، والعدل إيصال الحق إلى صاحبه من أقرب الطرق إليه ، والتأويل بيان المآل والعاقبة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الله تعالى فى الآية السابقة الأجر العظيم للذين آمنوا وعملوا الصالحات وكان من أجل تلك الأعمال أداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس - لا جرم أمر بهما فى هذه الآية .

روى عن ابن عباس قال: « لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة دعا عثمان ابن طلحة ، فلما أتاه قال أرني المفتاح (مفتاح الكعبة) فلما بسط يده إليه قام العباس فقال يارسول الله بآتي أنت وأمي اجمعه لى مع السقاية ، فكف عثمان يده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هات المفتاح ياعثمان ، فقال هاك أمانة الله ، فقام ففتح الكعبة ثم خرج فطاف بالبيت ثم نزل عليه جبريل برد المفتاح فدعا عثمان بن طلحة فأعطاه المفتاح ثم قال (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) حتى فرغ من الآية ».

الإيضاح

(إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) الأمانة على أنواع :

(١) أمانة العبد مع ربه ، وهى ماعهد إليه حفظه من الأتجار بما أمره به والانتها عما نهاه عنه ، واستعمال مشاعره وجوارحه فيما ينفعه ويقربه من ربه ، وقد ورد فى الأثر : إن المعاصى كلها خيانة لله عز وجل .

(٢) أمانة العبد مع الناس ، ومن ذلك رد الودائع إلى أربابها وعدم الغش وحفظ السر ونحو ذلك مما يجب للأهل والأقربى وعامة الناس والحكام .

ويدخل فى ذلك عدل الأمراء مع الرعية وعدل العلماء مع العوام بأن يرشدوهم إلى اعتقادات وأعمال تنفعهم فى دنياهم وأخراهم من أمور التريبة الحسنة وكسب الحلال ، ومن المواعظ والأحكام التى تقوى إيمانهم وتنقذهم من الشرور والآثام وترغبهم فى الخير والإحسان ، وعدل الرجل مع زوجه بالألا يفشى أحد الزوجين سرا للآخر ولا سىا السر الذى يختص بهما ولا يطعن عليه عادة سواهما .

(٣) أمانة الإنسان مع نفسه ، بالألا يختار لنفسه إلا ما هو الأصلح والأنفع له فى الدين والدنيا ، وألا يقدم على عمل يضره فى آخرته أو دنياه ، ويتوق أسباب الأمراض والأوبئة بقدر معرفته وما يعرف من الأطباء ، وذلك يحتاج إلى معرفة عم الصحة ولا سى فى أوقات انتشار الأمراض والأوبئة .

(وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) أمر الله بالعدل في آيات كثيرة منها هذه الآية ، ومنها « اَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » وقوله « كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ » والحكم بين الناس له طرق : منها الولاية العامة والقضاء وتحكيم المتخاصمين لشخص في قضية خاصة . والحكم بالعدل يحتاج إلى أمور :

(١) فهم الدعوى من المدعى والجواب من المدعى عليه ليعرف موضوع النزاع والخصم بأدلته من الخصمين .

(٢) خلوا الحاكم من التحيز والميل إلى أحد الخصمين .

(٣) معرفة الحاكم الحكم الذى شرعه الله ليفصل بين الناس على مثاله من الكتاب أو السنة أو إجماع الأمة وقد ورد الأمر بالعدل في كثير من الآيات والأحاديث كقوله تعالى « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » وقوله « فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » .
(٤) تولية القادرين على القيام بأعباء الأحكام .

وقد أمر المسلمون بالعدل في الأحكام والأقوال والأفعال والأخلاق ، قال تعالى « وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى » .

(إن الله نعماء يعظكم به) أى نعم الشيء الذى يعظكم به : أداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس ، إذ لا يعظكم إلا بما فيه صلاحكم وفلاحكم وسعادتكم فى الدارين .

(إن الله كان سميعا بصيرا) أى عليكم أن تعملوا بأمر الله ووعظه فإنه أعلم بالمسموعات والمبصرات ، فإذا حكمتم بالعدل فهو سميع لذلك الحكم ، وإن أديتم الأمانة فهو بصير بذلك .

وفى هذا وعد عظيم للمطيع ، ووعيد شديد للعاصى ، وإلى ذلك الإشارة بقوله عليه السلام « اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » وفيه أيضا إيماء إلى الاهتمام بحكم القضاة والولاة لأنه قد فوض إليهم النظر فى مصالح العباد .

وبعد أن أمر سبحانه برد الأمانات إلى أهلها ، وبالحكم بين الناس بالعدل مخاطبا بذلك جمهور الأمة ، أمر بطاعة الله والرسول وطاعة أولى الأمر إذا لا تقوم المصالح العامة إلا بذلك ، فقال :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ) أى أطيعوا الله واعملوا بكتابه وأطيعوا الرسول لأنه يبين للناس ما نزل إليهم ، فقد جرت سنة الله بأن يبلغ عنه شرعه رسل منهم تكفل بعصمتهم وأوجب علينا طاعتهم .

وأطيعوا أولى الأمر وهم الأمراء والحكام والعلماء ورؤساء الجند وسائر الرؤساء والزعماء الذين يرجع إليهم الناس في الحاجات والمصالح العامة ، فهو لاء إذا اتفقوا على أمر أو حكم وجب أن يطاعوا فيه بشرط أن يكونوا أمناء وألا يخالفوا أمر الله ولا سنة رسوله التي عرفت بالتواتر ، وأن يكونوا مختارين في بحشهم في الأمر واتفاقهم عليه . وأما العبادات وما كان من قبيل الاعتقاد الديني فلا يتعلق به أمر أهل الحل والعقد ، بل إنما يؤخذ عن الله ورسوله فحسب ، وليس لأحد رأى فيه إلا ما يكون في فهمه .

فأهل الحل والعقد من المؤمنين إذا أجمعوا على أمر من مصالح الأمة ليس فيه نص عن الشارع وكانوا مختارين في ذلك غير مكرهين بقوة أحد ولا نفوذه فطاعتهم واجبة كما فعل عمر حين استشار أهل الرأي من الصحابة في الديوان الذى أنشأه وفي غيره من المصالح التي أحدثها برأى أولى الأمر من الصحابة ولم تكن في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يعترض عليه أحد من علمائهم في ذلك .

(فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول) أى فإذا لم يوجد نص على الحكم في الكتاب ولا في السنة ينظر أولو الأمر فيه لأنهم هم الذين يوثق بهم فإذا اتفقوا وأجمعوا وجب العمل بما أجمعوا عليه ، وإن اختلفوا وتنازعوا وجب عرض ذلك على الكتاب والسنة وما فيهما من القواعد العامة ، فما كان موافقا لهما علم أنه صالح لنا ووجب الأخذ به ، وما كان مخالفا لهما علم أنه غير صالح ووجب تركه ،

وبذا يزول التنازع وتجتمع الكلمة ، وهذا الرد واستنباط الفصل في الخلاف من القواعد هو الذى يعبر عنه بالقياس ، والأول هو الاجماع الذى يعتد به .

ومما تقدم تعلم أن الآية مبينة لأصول الدين فى الحكومة الإسلامية ، وهى :

(١) الأصل الأول القرآن الكريم ، والعمل به هو طاعة الله تعالى .

(٢) الأصل الثانى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والعمل به طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٣) الأصل الثالث إجماع أولى الأمر وهم أهل الحل والعقد الذين تثق بهم الأمة من العلماء والرؤساء فى الجيش والمصالح العامة كاللجاء والصناع والزراع ، ورؤساء العمال والأحزاب ومديرى الصحف ورؤساء تحريرها - وطاعتهم حينئذ هى طاعة أولى الأمر .

(٤) الأصل الرابع عرض المسائل المتنازع فيها على القواعد والأحكام العامة المعلومة فى الكتاب والسنة ، وذلك قوله : فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول . فهذه الأربعة الأصول هى مصادر الشريعة ، ولا بد من وجود جماعة يقومون بعرض المسائل المتنازع فيها على الكتاب والسنة ممن يختارهم أولو الأمر من علماء هذا الشأن .

ويجب على الحكام الحكم بما يقرّونه ، وبذلك تكون الدولة الإسلامية مؤلفة من جماعتين ، الأولى الجماعة المبينة للأحكام الذين يسمون الآن (الهيئة التشريعية) والجماعة الثانية جماعة الحاكمين والمنفذين وهم الذين يسمون (الهيئة التنفيذية) .

وعلى الأمة أن تقبل هذه الأحكام وتخضع لها سرا وجهرا ، وهى بذلك لا تكون خاضعة لأحد من البشر ، لأنها لم تعمل إلا بحكم الله تعالى أو حكم رسوله صلى الله عليه وسلم بإذنه ، أو حكم نفسها الذى استنبطه لها جماعة أهل الحل والعقد والعلم والخبرة من أفرادها الذين وثقت بإخلاصهم وعدم اتفاقهم إلا على ما هو الأصلح لها .

(إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) أى ردوا الشئ المتنازع فيه إلى الله ورسوله بعرضه على الكتاب والسنة إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، فإن المؤمن لا يقدم شيئاً على حكم الله ، كما أنه يهتم باليوم الآخر أشد من اهتمامه بحفظ الدنيا . وفى هذا دليل على أن من لا يقدم اتباع الكتاب والسنة على أهوائه وحظوظه فإنه لا يكون مؤمناً حقاً .

(ذلك خير وأحسن تأويلاً) أى ذلك الرد للشئ المتنازع فيه إلى الله ورسوله خير لكم ، لأنه أقوى الأسس فى حكومتكم ، والله أعلم منكم بما هو الخير لكم ، ومن ثم لم يشرع لكم فى كتابه وعلى لسان رسوله إلا ما فيه مصالحكم ومنافعكم وما هو أحسن عاقبة لما فيه من قطع عرق التنازع وسد ذرائع الفتن .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ، وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بَمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣)

شرح المفردات

الزعم فى أصل اللغة القول حقاً كان أو باطلاً ثم كثر استعماله فى الكذب ، قال الراغب : الزعم حكاية قول يكون مظنة للكذب ، وقد جاء فى القرآن فى كل موضع

ذم القائلين به كقوله «زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ» وقوله «قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا» والطاغوت بمعنى الطغيان الكثير ، ضلالا بعيدا أى بعيدا صاحبه عن الحق إذ هو لا يهتدى إلى الطريق الموصلة إليه ، صدودا أى إعراضا متعمدا عن قبول حكمك ، إحسانا أى فى المعاملة بين الخصوم ، وتوفيقا بينهم وبين خصومهم بالصلح ، فأعرض عنهم أى اصرف وجهك عنهم ، وعظهم أى ذكرهم بالخير على الوجه الذى ترق له قلوبهم ، قولاً بليغا أى يبلغ من نفوسهم الأثر الذى تريد أن تحدثه فيها .

المعنى الجملى

بعد أن أوجب الله تعالى فى الآية السانفة على جميع المؤمنين طاعة الله وطاعة الرسول ذكر فى هذه الآية أن المنافقين والذين فى قلوبهم مرض لا يطيعون الرسول ولا يرضون بحكمه بل يريدون حكم غيره . أخرج الطبرانى عن ابن عباس قال «كان أبو برزة الأسلمى كاهنا يقضى بين اليهود فيما يتنافرون فيه فتنافر إليه ناس من المسلمين فأنزل الله تعالى : ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا - إلى قوله - إلا إحسانا وتوفيقا» . وأخرج ابن جرير عن الشعبي قال : كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة فقال اليهودى أحاكمك إلى أهل دينك أو قال إلى النبى لأنه قد علم أنه لا يأخذ الرشوة فى الحكم فاختلفا ثم اتفقا على أن يأتيا كاهنا فى جهينة فنزلت .

الإيضاح

(ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكوا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به) أى انظر إلى عجيب أمر هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بك وآمنوا بمن قبلك من الأنبياء ويأتون بما ينفى الإيمان ، إذ الإيمان الصحيح يكتب الله ورسله يقتضى العمل بما شرعه الله على السنة أولئك

الرسول ، وترك العمل مع الاستطاعة دليل على أن الإيمان غير راسخ في نفس مدعيه ، فكيف إذا عمل بضد ما شرعه الله ، فهؤلاء المنافقون إذا هربوا من التحاكم إليك وقبلوا التحاكم إلى مصدر الطغيان والضلال من أولئك الكهنة والمشعوذين - سواء أكان أبابرة الأسلمى أم كعب بن الأشرف - دليل على أن الإيمان ليس له أثر في نفوسهم بل هي كلمات يقولونها بأفواههم لا تعبر عما تلجج في صدورهم ، وكيف يزعمون الإيمان بك وكتابك المنزل عليك يأمرهم بالكفر بالجنت والطاغوت في نحو قوله « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ ابْغُذُوا اللَّهَ وَاجْتَبُوا الطَّاغُوتَ » وقوله « فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى » وهم يتحاكمون إليه ؟ فآلسنتهم تدعى الإيمان بالله وبما أنزله على رسله وتدل أفعالهم على كفرهم بالله وإيمانهم بالطاغوت وإيثارهم لحكمه .

ويدخل في هؤلاء كل من يتحاكم إلى الدجالين كاعرافين وأصحاب المندل والرمل ومدعى الكشف والولاية، وفي الآية إيماء إلى أن من رد شيئاً من أوامر الله أو أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم فهو خارج من الإسلام ، سواء رده من جهة الشك أو من جهة التمرد ، ومن أجل هذا حكم الصحابة بردة الذين منعوا الزكاة وقتلهم وسبى ذراريهم .

(ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً) أى يريد الشيطان أن يجعل بينهم وبين الحق مسافة بعيدة، فهم أشدة بعدهم عن الحق لا يهتدون إلى الطريق الموصلة إليه .
والخلاصة — أن الواجب على المسلمين ألا يقبلوا قول أحد ولا يعملوا برأيه في شيء له حكم في كتاب الله أو سنة رسوله ، وما لا حكم له فيهما فالعمل فيه برأى أولى الأمر ، لأنه أقرب إلى المصلحة .

(وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً) أى وإذا قيل لأولئك الزاعمين للإيمان الذين يريدون التحاكم إلى الطاغوت تعالوا إلى ما أنزل الله في القرآن لنعمل به ونحكمه فيما بيننا ، وإلى الرسول ليحكم بيننا

بما أراه الله ، رأيتهم يعرضون عنك ويرغبون عن حكمك إعراضاً متعمداً منهم ، وهذه الآية مؤكدة لما دلت عليه الآية التي قبلها من نفاق هؤلاء الذين يرغبون عن حكم الله وحكم رسوله إلى حكم الطاغوت من أصحاب الأهواء ، لأن حكم الرسول لا يكون إلا حقاً متى بينت الدعوى على وجهها ؛ وأما حكم غيره بشريعته فقد يقع فيه الخطأ بجهل القاضى بالحكم ، أو بجهل تطبيقه على الدعوى .

وهي أيضاً دالة على أن من أعرض عن حكم الله متعمداً ، ولا سيما بعد دعوته إليه وتذكيره به ، فإنه يكون منافقاً لا يعتد ما يزعمه من الإيمان ، ولا ما يدعيه من الإسلام .

(فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً) أى فكيف يفعلون إذا أطلعك الله على شأنهم فى إعراضهم عن حكم الله وعن التحاكم إليك ، وتبين أن عملهم يكذب دعواهم ، وأن تلك الحال التى اختاروا فيها التحاكم إلى غير الرسول لا تدوم لهم ، وأنه يوشك أن يتعوا فى مصاب بسبب ما قدمت أيديهم من هذه الأعمال وأمثالها ثم اضطروا إلى الرجوع إليك لتكشفه عنهم واعتذروا عن صدورهم بأنهم ما كانوا يريدون بالتحاكم إلى غير الرسول إلا إحساناً فى المعاملة وتوفيقاً بينهم وبين خصومهم بالصالح أو بالجمع بين منفعة الخصمين ويحلفون بالله على ذلك وهم مخادعون .

وفى الآية وعيد شديد لهم على ما فعلوا وأنهم سيندمون حين لا ينفعهم الندم ويعتذرون ولا يغنى عنهم الاعتذار .

(أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم) هذا أسلوب يستعمل فيما يعظم من خير أو شر ، مسرة أو حزن ، فيقول الرجل لمن يحبه ويحفظ وده : الله يعلم ما فى نفسى لك ، أى إنه لكثرة وقوته لا يقدر على معرفته إلا الله تعالى ، ويقول فى العدو إذا كره الخداع : الله يعلم ما فى قلبه . أى إن ما فى قلبه من الخبث والخديعة بلغ حداً كبيراً لا يعلمه إلا علام الغيوب .

أى إن ما فى قلوبهم من الكفر والحق والكيد وترى الدوائر بالمؤمنين بلغ من القضاة مقداراً لا يحيط به إلا من يعلم السر وأخفى .
(فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغاً) طيب إليه سبحانه أن يعاملهم بثلاثة أشياء .

(١) الإعراض عنهم وعدم الإقبال عليهم بالبشاشة والتكريم ، إذ هذا يحدث فى نفوسهم الهواجس والخوف من سوء العاقبة ، وهم لم يكونوا على يقين من أسباب كفرهم ونفاقهم وكانوا يحذرون أن تنزل عليه سورة تنبئهم بما فى قلوبهم ، وإذا استمر هذا الإعراض عنهم ظنوا الضنون وقالوا لعله عرف ما فى نفوسنا ، لعله يريد أن يؤاخذنا بما فى بطوننا .

(٢) النصيح والتذكير بالخير على وجه ترقى له قلوبهم ويبعثهم على التأمل فيما يلقى إليهم من العظات والزواجر .

(٣) القول البليغ المؤثر فى النفس الذى يغمون به ويستشعرون منه الخوف بأن يتوعدهم بالقتل والاستئصال إن نجس منهم النفاق ، ويخبرهم بأن ما فى نفوسهم من مكنونات الشر والنفاق غير خاف على العليم بالسر والنجوى ، وأنه لافرق بينهم وبين الكفار ، وإنما رفع الله عنهم السيف لأنهم أظهروا الإيمان وأسروا الكفر وأضمره ، فإن فعلوا ما ينكشف به غطاؤهم لم يبق إلا السيف ، وفى الآية شهادة للنبي صلى الله عليه وسلم بالقدرة على بليغ الكلام وتفويض أمر الوعظ والقول البليغ إليه ، لأن لكل مقام مقالاً والكلام يختلف تأثيره باختلاف أفهام الخطابين ، كما أن فيها شهادة له بالحكمة ووضع الكلام فى مواضعه ، وهذا نحو ما وصف الله به نبيه داود « وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ » .

قال القاضى عياض فى كتابه [الشفاء] فى وصف بلاغته صلى الله عليه وسلم :
وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول فقد كان صلى الله عليه وسلم من ذلك بالحل الأرفع ، والموضع الذى لا يجهل ، قد أوتى جوامع الكلم وخص ببدايع الحكم ، وعلم

السنة العرب ، يخاطب كل أمة بلسانها ، ويجاورها بلغتها ... حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موضع عن شرح كلامه وتفسير قوله ... وليس كلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد كلامه مع ذى المعشار الهمداني وطهفة النهدي والأشعث بن قيس ووائل بن حجر الكندي وغيرهم من أقبال حضرموت وملوك اليمن .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّتُوا تَسْلِيمًا (٦٥)

شرح المفردات

إذن الله إعلامه الذى نطق به وحيه وطرق آذانكم - كقوله: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول - استغفروا الله أى طلبوا مغفرته وندموا على ما فعلوا ، واستغفر لهم الرسول أى دعا الله أن يغفر لهم ، يحكموك يحملوك حكما ويفوضوا الأمر إليك ، وشجر اختلاف واختلط الأمر فيه ، مأخوذ من التفاف الشجر ، فإن الشجر تتداخل بعض أغصانه فى بعض ، حرجا ضيقا ، قضيت حكمت ، التسليم الانقياد والإذعان .

المعنى الجملى

بعد أن أوجب سبحانه فى سلف طاعة الله وطاعة الرسول وشنع على من رغب عن التحاكم إلى الرسول وآثر عليه التحاكم إلى الطاغوت - ذكر هنا ما هو كالدليل على استحقاق الرسول للطاعة ، وعلى استحقاق المناققين الذين لم يقبلوا التحاكم للمقت والخذلان ، لأنهم لم يرضوا بحكم الرسول صلى الله عليه وسلم .

الإيضاح

(وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله) أى إن سنتنا فى هذا الرسول كسنتنا فى الرسل قبله ، فما نرسلهم إلا ليطاعوا بإذن الله ، فمن خرج عن طاعتهم أو رغب عن حكمهم خرج عن حكمنا وسنتنا وارتكب أكبر الآثام .

وحجى بقوله : بإذن الله ، لبيان أن الطاعة الذاتية لا تكون إلا لله رب العالمين لكنه قد أمر أن تطاع رسله فطاعتهم واجبة بإذنه وإيجابه .

(ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً) أى ولو أن أولئك القوم حين ظلموا أنفسهم ورغبوا عن حكمك إلى حكم الطاغوت - جاءوك فاستغفروا الله من ذنبهم وندموا على ما فرط منهم وتابوا توبة نصوحا ودعا لهم الرسول بالمغفرة لتقبل الله توبتهم وغمرهم بإحسانه ، فرحمته وسعت كل شيء .

وإنما قرن استغفار الرسول باستغفار الله ، لأن ذنبهم لم يكن ظلماً لأنفسهم فحسب ، بل تعدى إلى إيذاء الرسول من حيث إنهم أعرضوا عن حكمه وهو صاحب الحق فى الحكم وحده ، فكان لابد فى توبتهم وندمهم على ما فرط منهم أن يظهروا ذلك للرسول ليصفح عنهم لأنهم اعتدوا على حقه ، وليدعوا لهم بالمغفرة إذ أعرضوا عن حكمه .

وفى الآية إيماء إلى أن التوبة الصحيحة تقبل حتماً إذا استكملت شرائطها ، ومنها أن تكون عقب الذنب مباشرة ، وقد سمى الله ترك طاعة الرسول ظلماً للأنفس ، أى إفساداً لها لأن الرسول هو الهادى إلى مصالح الناس فى الدنيا والأخرى ، وهذا الظلم شامل للاعتداء والبغى والتجاءكم إلى الطاغوت وغير ذلك .

والاستغفار لا يكون مقبولاً إلا إذا ناجى العبد ربه عازماً على اجتناب الذنب وعدم العودة إليه مع الصدق والإخلاص لله فى ذلك - أما الاستغفار باللسان عقب

الذنب دون أن يوجد هذا التوجه بالقلب فلا يكون استغفاراً معتدّاً به عند الله ،
إذ لا بد أن يشعر القلب أولاً بألم المعصية وسوء مغبتها ، وبالحاجة إلى التزكى من
دنسها ، مع العزم القوي على اجتناب هذا الدنس ، ومتى أخلص الداعي أجاب الله
دعائه بإعطائه ما طلب أو بغيره من الأجر والثواب .

(فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم
حرجاً مما قضيت ويساموا تسلياً) أقسم الله تعالى بأن أولئك الذين رغبوا عن التحاكم
إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ومن مآلتهم من المناققين ، لا يؤمنون إيماناً حقاً وهو
إيمان الإذعان والانقياد إلا إذا كملت لهم ثلاث خصال :

(١) أن يحكموا الرسول في القضايا التي يختصمون فيها ويستجرون ولا يتبين لهم
وجه الحق فيها .

(٢) ألا يجدوا حرجاً وضيقاً فيما يحكم به أى أن تدعن نفوسهم لتقضائه وحكمه
فيما شجر بينهم بلا امتعاض من قبوله والعمل به ، إذ المؤمن الكامل ينشرح صدره
لحكم الرسول لأول وهلة لأنه الحق وأن الخير والسعادة في الإذعان له .

(٣) الانقياد والتسليم لذلك الحكم ، فكثيراً ما يعرف الشخص أن الحكم
حق لكنه يتمرد عن قبوله عناداً أو يتردد في ذلك .

وفي هذه الآية إشارة إلى شيئين :

(١) عصمة النبي صلى الله عليه وسلم بمعنى أنه لا يحكم إلا بالحق المطابق لصورة
الدعوى وظاهرها لا بحسب الواقع في نفسه ، إذ الحكم في شريعته على الظاهر ، والله
يتولى السرائر ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليّ فاعل
بعضكم أن يكون الحن بحجته من بعض ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من
النار فليأخذها أو ليتركها » رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن ، ومن ثم كانوا يسألونه

إذا أمر بأمر لم يظهر لهم أنه الرأى ، أعن وحى هو أم عن رأى ، فإن كان عن وحى أطاعوا وسلموا ، وإن كان عن رأى ذكروا ما عندهم وربما يرجع إليهم كما حدث يوم بدر .

(٢) أنهم لا يكونون مؤمنين إيماناً صحيحاً مستحقاً للفوز بالثواب والنجاة من العقاب إلا إذا كانوا موقنين بقلوبهم مدعين في بواطنهم بصدق الرسول فى كل ما جاء به الدين .

ومن أمانة ذلك أن يحكموه فيما شجر بينهم من خلاف ، وألا يجدوا ضيقاً وحرماً فى حكمه ، إذ الضيق إنما يلزم قلب من لم يخضع ، وأن ينقادوا انقياداً كاملاً بلا تمرد ولا عناد فى قبوله .

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ ثَبَاتًا (٦٦) وَإِذَا لَا تَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٦٨)

شرح المفردات

كتبنا أى فرضنا ، ما يوعظون به : أى من الأوامر والنواهي المقرونة بذكر حكمها وأحكامها والوعد لمن عمل بها والوعيد لمن صد عنها ، والتثبت التقوية وجعل الشئ ثابتاً راسخاً .

المعنى الجملى

بعد أن بين عز اسمه فيما سلف أن الإيمان لا يتم إلا بتحكيم الرسول فيما شجر بينهم من خلاف مع التسليم والانقياد لحكمه - ذكر هنا قصور كثير من الناس فى ذلك لو هن إسلامهم وضعف إيمانهم .

الإيضاح

(ولو أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم) أن يقتلوا أنفسهم أى اقتلوها ، يبيع النفس (الانتحار) - كما أمر بنو إسرائيل بذلك ليتوبوا من عبادة العجل ، وقوله أو اخرجوا من دياركم بالهجرة إلى بلاد أخرى ، وقوله ما فعلوه أى المأمور به من القتل والهجرة من الوطن .

بين الله لنا فى هذه الآية أن صادق الإيمان هو الذى يطيع الله فى كل ما يأمر به فى السهل والصعب والمحجوب والمكروه ، ولو كان ذلك بقتل النفس والخروج من الديار (الجسم دار الروح والوطن دار الجسم) أما المناق فىعبء الله على ما يوافق هواه وشهوته ، فإن أصابه خير اطمأن به ورضى ، وإن ناله أذى انقلب على وجهه وارتد على عقبه وباء بالخسران فى الدنيا والآخرة .

(ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد نفعيا) أى ولو أنهم فعلوا ما أمروا به وتركوا ما نهوا عنه لكان ذلك خيرا لهم فى مصالحهم وأشد نفعيا لهم فى إيمانهم إذ الأعمال هى التى تطبع الأخلاق والفضائل فى نفس العامل وتبديد الأوهام والخاوف من نفسه ، فبذل المال مثلا آية من آيات الإيمان وقربة من أعظم القرب ، فمن فعله كان مؤمنا إيمانا صادقا ، ومن آمن بذلك ولم يفعله كان علمه بمنافعه ومزاياه له وللأمة والدين علما ناقصا ، فكلما دعا الداعى إلى البذل طاف به طائف البخل والإمساك ، وعرض له شبح الفقر والإملاق ، أو نقصان المال عن مال بعض الأقران ، لكنه إذا اعتدل البذل صار السخاء خلقا له وسجية ، وقلما امتنع عن فعله حين تدعو الحاجة إليه ، إذ الطاعة تدعو إلى مثلها ، فالمرء يطلب الخير أولا حتى إذا حصله طلب أن يكون الحاصل ثابتا قويا .

(وإذا آتيناكم من لدنا أجرا عظيما، ولهديناكم صراطا مستقيما) أى لو أنهم فعلوا هذا الخير العظيم وامتلأوا ما أمروا به وأخلصوا العمل لأعطيناكم الثواب العظيم من

عندنا ، وكيف لا يكون عظيما وقد وصفه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله « فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » ولهديتاهم إلى طريق العمل الصالح على الوجه المرضي الموصل إلى الفوز بالسعادة في الدنيا والآخرة ، وهو صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين .

وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩)
ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠)

شرح المفردات

الصدّيق من غلب عليه الصدق ، وقيل من صدق في قوله واعتقاده كما قال (واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا) والشهيد هو الذي يشهد بصحة الدين تارة بالحجة والبرهان ، وأخرى بالسيف والسنان ، والصالح من صلحت نفسه وصلاح عمله وغلبت حسناته سيئاته .

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه بطاعته وطاعة الرسول ، ثم شنع على الذين تخاكموا إلى الطاغوت ، وصدّوا عن الرسول ثم رغب في تلك الطاعة بقوله : لكان خيرا لهم وأشدّ تثبيتا - حث على الطاعة وشوق إليها بذكر مزاياها وبيان حسن عواقبها وأنها منتهى ما تصل إليه لهم ، وأرفع ما تشرب إليه الأعناق .

الإيضاح

(ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين) أى إن كل من يطع الله ورسوله على الوجه المبين فى الآيات

السالفة ويفعل الأوامر ويترك النواهي يكون يوم القيامة مرافقا لأقرب عباد الله وأرفعهم درجات عنه ، وهم الأصناف الأربعة الذين ذكروا في الآية وهم صفوة الله من عباده وقد وجدوا في كل أمة ، ومن أطاع الله ورسوله من هذه الأمة كان منهم وحشر يوم القيامة معهم .

(وحسن أولئك رفيق) أى بن الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين يكونون كالرفقاء له من شدة محبتهم إياه وسرورهم برؤيته .

روى الطبراني وابن مردويه عن عائشة قالت « جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إنك لأحب إليّ من نفسي ، وإنك لأحب إليّ من ولدي ، وإنني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتي فانظر إليك ، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين ، وإنني إذا دخلت الجنة خشيت ألا أراك ، فلم يرد النبي صلى الله عليه وسلم شيئا حتى نزل جبريل بهذه الآية (ومن يطع الله والرسول) الآية » .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مسروق أن سبب نزولها قول الصحابة : يا رسول الله ما ينبغي لنا أن نفارقك في الدنيا فإنك إذا فارقتنا رفعت فوقنا ولم نترك . وقال الكوفي إن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديد الحب له قليل الصبر عنه ، وقد نحل جسمه وتغير لونه ، خوف عدم رؤيته صلى الله عليه وسلم بعد الموت فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

ويؤيد هذه الروايات ما رواه الطبراني مرفوعا « من أحب قوما حشره الله معهم » وما أخرجه الشيخان عن أنس « المرء مع من أحب » وآية الحبة الطاعة كما قال تعالى « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ » .

(ذلك الفضل من الله) أى إن هذا الذي ذكر من الجزاء لمن يطيع الله والرسول - هو الفضل الذي لا يعلوه فضل ، فإن السموات إلى إحدى تلك المنازل

في الدنيا ومرافقة أهلها في الآخرة هو منتهى ما يأمله المرء من السعادة ، وبه يتفاضل الناس فيفضل بعضهم بعضا .

(وكفى بالله عليم) أى كفى به سبحانه عليا بالعصاة والمطيعين والمنافقين والخلصين ومن يصلح لمرافقة هؤلاء ومن لا يصلح ، فهو لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

وليحذر المنافقون المراءون لعلهم يتذكرون فيتوبوا ، وليطمئن المؤمنون الصادقون لعلهم ينشطون ويزدادون في الطاعة ويتعدون عن التقصير .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا (٧١)
وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ ، فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَاتْنِ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لِيَقُولَنَّ
كَأَن لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ : يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزُ
فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣)

شرح المفردات

حذركم ، الحذر والحذر كلثل والمثل : الاحتراس والاستعداد لانقاء شر العدو ،
النفير : الانزعاج عن الشئ وإلى الشئ كالنزوع عن الشئ وإلى الشئ ، ومن الأول
« وَالْقَدْ صَرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذْكُرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا » ومن الثاني
النفير إلى الحرب ، والثبات واحدها ثبة : وهى الجماعة المنفردة ، والتبطؤ : يطلق على
الإبطاء وعلى الجمل على البطء ، والبطء التأخر عن الانبعاث في السير ، مصيبة كقتل
وهزيمة ، شهيدا أى حاضرا معهم ، فضل كفتح وغنيمة .

المعنى الجملى

بعد أن بين الله لنا فى هذه السورة كثيرا من الأمور الدينية من عبادة الله وعدم الشرك ، والمدنية كعاملته ذوى القربى والجيران واليتامى والمساكين ، والشخصية كأحكام الزواج والمصاهرة والمواريث ، بين لنا فى هذه الآيات بعض الأحكام الحربية والسياسية ، ورسم لنا الطريق التى نسير عليها فى حفظ ملتنا وحكومتنا المبنية على تلك الأصول من الأعداء .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا خذوا حذرکم) أى احترسوا واستعدوا لاتقاء شر العدو، بأن تعرفوا حاله ومبلغ استعدادة وقوته، وإذا كان لكم أعداء كثيرون فاعرفوا ماينهم من وفاق وخلاف ، واعرفوا الوسائل لمقاومتهم إذا هجموا ، واعملوا بتلك الوسائل ، ويدخل فى ذلك معرفة حال العدو ومعرفة أرضه وبلاده وأسلحته واستعمالها ومايتوقف على ذلك من معرفة الهندسة والكيمياء وجبر الأتقال ، وعلى الجملة اتخاذ أهبة الحرب المستعملة فيه من طيارات وقنابل ودبابات وبوارج مدرعة ومدافع مضادة للطائرات إلى نحو ذلك حتى لا يهاجمكم على غرة أو يهددكم فى دياركم ، وحتى لا يعارضكم فى إقامة دينكم أو دعوتكم إليه .

وقد كان النبی صلى الله عليه وسلم والصحابة على علم بأرض عدوهم ، كما كان لهم عيون وجواسيس يأتونهم بالأخبار (قلم مخبرات) ولما أخبروه بنقض قريش للعهد (إخلاهم بشروط المعاهدة فى صالح الحديبية) استعد لفتح مكة ولم يفلح أبوسفیان فى تجديد العهد مرة أخرى ، وقد كان يظن أن المسلمين لم يعلموا بنكثهم له .

. وقد قال أبو بكر لخالد بن الوليد فى حرب اليمامة حاربهم بمثل ما يحاربونك به ، السيف بالسيف والرمح بالرمح .

ومارواه الحاكم عن عائشة « لا يغنى حذر من قدر » لا يناقض أخذ الحذر ، لأن الأمر بالحذر داخل في القدر فالأمر به لندفع عنا شر الأعداء لا لندفع القدر ونبطله ، إذ القدر هو جريان الأمور بنظام تأتي فيه الأسباب على قدر المسببات والحذر من جملة الأسباب فهو عمل بمقتضى القدر لا بما يضاده .

(فانفروا ثبات أو انفروا جميعا) أى انفروا جماعة إثر جماعة بأن تكونوا فصائل وفرقا - إذا كان الجيش كبيرا أو موقع العدو يستدعى ذلك - أو تنفر الأمة كلها جميعا إذا اقتضت الحال ذلك على حسب قوة العدو .

والخلاصة - إنكم إما أن تنفروا جماعات جماعات ، وإما أن ينفر جميع المؤمنين على الإطلاق على حسب حال العدو .

وامثال هذا الأمر يقتضى أن تكون الأمة على استعداد دائم للجهاد بأن يتعلم كل فرد من أفرادها فنون الحرب ويتمرن عليها ، وأن تقتنى السلاح الذى تحتاج إليه فى هذا النضال ، وتعلم كيفية استعماله فى كل زمان بما يناسبه .

ومن هذا تعلم أن الحكومة الإسلامية يجب عليها أن تقيم هذا الواجب بنفسها لا أن تبقى عالة على غيرها ، وعلى الأمة أن تساعد عليها ، بل تلزمها إياه إذا قصرت فيه ، بعكس ما نراه الآن من تراخى الأمم الإسلامية وضعفها وتوانها فى ذلك ، حتى طمعت فيها كل الدول التى تجاورها واجتاحتها من أطرافها واجتشت كثيرا من كورها وأقاليمها .

وقد شدد الدين أيما تشديد فى هذا الأمر فجاء مثل هذا فى قوله تعالى « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ » وجاءت أحاديث كثيرة بهذا المعنى .

(وإن منكم لئمن لبيطن) أى لبيتقلن ويتأخرن عن الجهاد ، والخطاب للجماعة المؤمنين على حسب الظاهر ومنهم المنافقون وضعفة الإيمان والجبنة ، فالمنافقون يرغبون عن الحرب لأنهم لا يحبون أن يبقى الإسلام وأهله ولا أن يدافعوا عنه ويحموا ببضته

فهم يبطئون عن القتال ويبطئون غيرهم عن النفر إليه ، والجبناء وضعفة الإيمان يبطئون بأنفسهم عن القتال خوفا وخوفا من صليل السيوف ومن الكر والفر ومقاولة العدو وهو شاكي السلاح ، ثم فصل الله أحوال هؤلاء الضعفاء قتل :

(فَإِنْ أَصَابَكُمْ مَصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا) أى قال ذلك للبطيء فرحا بما فعل حامدا رأيته شاكرا ربه ، إذا أصابتكم المصيبة من قتل أو هزيمة - إن الله قد أنعم على بالقيود فلم أكن حاضرا معهم فيصيبني مثل ما أصابهم من البلاء والشدة .

(وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولُنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا) أى ولئن من الله عليكم بالظفر وفتح البلاد فغنمتم وأخذتم السبايا والأسرى ليقولن قول من ليس منكم ومن لم تجمعوه مودة بكم - ليتنى كنت معهم فأفوز كما فازوا . فهو قد نسي ما يجب عليه من مد يد المعونة إليكم وبذل كل ما يمكنه من نفس أو مال ليت ذلك الظفر .

ولكن ضعف إيمانه أو جبنه منعه عن هذا ، إذ هذا التمنى بعد فوات الفرصة دليل على ضعف العقل وكونه ممن يشرى الحياة الدنيا بالآخرة وفي قوله كأن لم تكن بينكم وبينه مودة تقربع وتوبيخ بالطف القول وأرق العبارة ، إذ أن قليلا من المودة كان ينبغي أن يمنع مثل هذا التمنى وأن يعد هذا الإحجام نعمة ، فهذا يشعر بأن صاحبه لا يرى نعمة الله على المؤمنين نعمة وفضلا عليه ولا ما يصيبهم من جهد و بلاء كأنه يصيبه هو ، مع أن القرآن يصرح بأن المؤمنين إخوة والحديث يدل على أنهم كأعضاء الجسم الواحد وكالبنين يشد بعضه بعضا .

ومن فوائد هذا الأسلوب أنه يؤثر في نفس سامعه تأثيرا لا يدنو من مثله الطعن بهُجر القول ، إذ يدعو صاحبه إلى التأمل والتفكير في حقيقة حاله ومعابرة نفسه ، والتوبة إلى ربه والرجوع إلى أوامر دينه .

فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ، وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤)
وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ
وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ،
وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا
يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ،
فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦)

شرح المفردات

سبيل الله : هي تأييد الحق والانتصار له بإعلاء كلمة الدين ونشر دعوته ودفاع الأعداء
إذا هددوا أمتنا أو أغاروا على أرضنا أو نهبوا أموالنا أو صدونا عن استعمال حقوقنا مع
الناس ، ويشرون ببيعون كما جاء في قوله « وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ » وقوله « وَلَبِئْسَ مَا
شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ » وقوله « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ »
والطاغوت : من الطغيان وهو مجاوزة حقوق الحق والعدل والخير إلى الباطل والظلم
والشر ، والسكيد : السعى في الفساد على وجه الحيلة .

المعنى الجملي

بعد أن بين الله عز اسمه حال ضعفاء الإيمان الذين يبطئون عن القتال في سبيله -
دلهم بهذه الآية على طريق تطهير نفوسهم من ذلك الذنب العظيم ذنب القعود عن
القتال وأمر به إشاراً لما عند الله من الأجر والثواب على ما في الدنيا من نعيم زائل
وعرض يفنى .

الإيضاح

(فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة) أى فليقاتل في سبيل الله من أراد أن يبيع الحياة الدنيا ويبدلها ويجعل الآخرة ثمنًا لها وعوضًا منها ، لأنه يكون قد أعز دين الله وجعل كلمته هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى والله عزيز ذو انتقام .

(ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا) أى ومن يقاتل في سبيله فيظفر به عدوه أو يظفر هو بعدوه فإن الله سيؤتيه أجرًا عظيمًا من عنده خالدًا أبدًا في دار الجزاء ، وفي الآية إيحاء إلى شرف الجهاد لأنه إنما كان في سبيل الحق والعدل والخير لا في سبيل الهوى ولطمع ، كما أن فيها إيماء إلى أنه ينبغي للمقاتل أن يوطن نفسه على أحد الأمرين إما أن يقتله العدو ويكرم نفسه بالشهادة وإما أن يظفر به فيعز كلمة الحق والدين ولا يحدث نفسه بالهرب بحال ، لأنه إن فعل ذلك فما أسرع ما يقع في ذلك الفخ الذى نصبه لنفسه .

(وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله) أى أى عذر لكم يمنعكم أن تقاتلوا في سبيل الله لتقيموا التوحيد مقام الشرك وتحلوا الخير محل الشر وتضعوا العدل والرحمة موضع الظلم والقسوة ، وفي هذا حث شديد على القتال لكونه في سبيل الحق .

(والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان) أى وفي سبيل المستضعفين إخوانكم في الدين الذين استذلهم أهل مكة الأقوياء الجبابرة وآذوهم أشد الإيذاء لينعموا من الهجرة ويفتنوهم عن دينهم ويردوهم في متهم .

وقد جعل الله هؤلاء سبيلًا لإثارة النخوة وهز الأريحية وإيقاظ شعور الرحمة والأنفة .

وقد وصفهم الله بما يجعل نفس الحر تشتعل حماسه وغيرة على إنقاذهم والسعى في رفع الظلم عنهم فقال :

(الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا) أى إن هؤلاء المستضعفين فقدوا النصير والمعين وتقطعت بهم أسباب الرجاء فاستغاثوا بربهم ودعوه ليفرج كربهم ويخرجهم من تلك القرية (مكة) لظلم أهلها لهم ويسخر لهم بعنايته من يتولى أمرهم وينصرهم على من ظلمهم فيتمكنوا بذلك من الهجرة إليكم ويرتبطوا بكم أقوى الروابط وهى رابطة الإيمان فهى أقوى من رابطة الأنساب والأوطان ، وما كل أحد من المسلمين قدر على الهجرة فقد كانوا يصدونهم عنها ويعذبون مريديها عذابا شديدا ، وما شرع القتال إلا لعدم حرية الدين وظلم المشركين للمسلمين ، فالقتال قبيح ولا يجيزه العقل السليم إلا لإزالة قبيح أشد منه ضررا والأمور بمقاصدها وغايتها كما قال :

(الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت) أى إن المؤمنين إنما يقاتلون لأجل إعلاء كلمة الحق والكافرين إنما يقاتلون اتباعا لوسوسة الشيطان وتزيينا للكفر ، فهو ترك المؤمنون القتال لغيب الطغيان وعم الفساد «وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ» .

(فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا) أى فقاتلوا أيها المؤمنون أولياء الرحمن - أولياء الشيطان الذين زين لهم الشيطان بوسوسته وخداعه أن فى الظلم وإهلاك الحرث والنسل شرفا لهم أيما شرف .

وقد جرت سنة الله أن الحق يعلمو والباطل يسفل ، وأن الذى يبقى هو الأصاح والأمثل ، فالذين يقاتلون فى سبيل الله يطلبون ما تقتضيه سنة العمران ، والذين يقاتلون فى سبيل الشيطان يطلبون الانتقام والاستعلاء فى الأرض بغير الحق ، وتسخير الناس لأغراضهم وشهواتهم ، وسنن العمران تأبى ذلك فلا يكون لذلك قوة ولا بقاء ، إلا لنومة أهل الحق عن حقهم ، فإذا هم أفاقوا من غفوتهم تغلب الحق على الباطل وردده خاسئا محسورا .

إلى أن الذين يقاومون في تأييد الحق تتوجه همهم إلى إتمام الاستعداد ويكونون أجدر بالثبات والصبر ، وفي ذلك من القوة ما ليس في كثرة العدد والعدد .
وهذا في الحروب الدينية التي فد تركها المسلمون منذ أزمان طويلة ، ولو وجدت في الأرض حكومة إسلامية تقيم القرآن وتحوط الدين وأهله بما أوجبه من إعداد العدة للحرب لاتخذها أهل المدينة قدوة لهم وإماما في أعمالهم .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ، فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ، وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ ، لَوْ أَنَّا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ، قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ . وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ ، وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ، قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، فَمَالَهُمْ لَا يُقِيمُونَ حَدِيثًا (٧٨) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ ، وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩)

شرح المفردات

كفوا أيديكم أي عن القتال ، كتب عليهم أي أمروا به ، يخشون الناس أي يخافون أن يقتلهم المشركون ، خشية الله أي كما يخافون أن ينزل الله عليهم بأسه

وعذابه ، لولا أخرتنا إلى أجل قريب أى هلا تركتنا حتى نموت حنفاً أنوفنا بأجالنا القريبة ، متاع الدنيا ما يستمتعون به من لذاتها ، قليل أى سريع الزوال ، أين تكونوا يدرككم الموت أى فى أى مكان كنتم يلحقكم الموت ، البروج المشيدة القصور العالية المطلية بالشيد وهو الجص ، أو الحصون والقلاع المتينة التى تعتصم فيها حامية الجند حسنة أى شئ يحسن عند صاحبه كالرضاء والخصب والظفر بالغنيمية ، سيئة هى ما تسوء صاحبها كالشدّة والبأساء والضراء والمزيمّة والجرح والقتل ، يفقهون حديثاً يفهمون كلاماً يوعظون به .

المعنى الجملى

بعد أن أمر الله تعالى بأخذ الحذر والاستعداد للقتال والنفر له وذكر حال المبطلين الذين ضعفت قلوبهم وأمرهم بالقتال فى سبيله وفى سبيل إنقاذ المستضعفين . ذكر هنا أن الإسلام كفهم ترك ما كانوا عليه فى الجاهلية من تخاصم وتلاحم وحروب مستمرة ولا سيما بين قبيلتى الأوس والخزرج فإن الحروب بينهم لم تنقطع إلا بمجيء الإسلام ، وأمرهم بكف أيديهم عن القتال والعدوان على غيرهم ، وطلب إليهم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة لما فيهما من تهذيب النفوس والعطف والرحمة حتى خمدت من نفوس كثير منهم حمية الجاهلية وحل محلها شريف العواطف الإنسانية ، إلى أن اشتدت الحاجة الى القتال للذود عن بيضة الإسلام ودفع العدوان من أولئك المشركين الذين آذوا المسلمين وأحبوا فتنهم فى دينهم وردهم إلى ما كانوا عليه ، ففرضه عليهم فكبره المنافقون والضعفاء فنعى الله عليهم ذلك ووبخهم أشد التوبيخ .

الإيضاح

(ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية) انخطاب الجماعة

المسلمين وفيهم المنافقون والضعفاء ، أى ألم ترى إلى أولئك الذين أمرهم الله بحققن الدماء وكف الأيدي من الاعتداء ، وإقامة الصلاة والخشوع والعبودية لله ، وإيتاء الزكاة التى تمكن الإيمان فى القلوب وتشد أواصر التراحم بين الخلق ، وقد كانوا من قبل ذوى إحن وأحقاد وتحاصم وتلاحم وحروب مستمرة ، فلما جاء الإسلام أحبوا أن يكتب عليهم القتال ليسيروا على ما تعودوه ، ولكن حين كتب عليهم كرهه الضعفاء منهم وخافوا أن يقاتلهم الكفار وينزلوا بهم النكال والوبال ، كما خافوا أن ينزل الله بهم بأسه وعقابه ، بل رجح خوفهم من الناس على خوفهم من الله .

(وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب) أى وقالوا ربنا لماذا كتب علينا القتال فى هذا الوقت ، هلا نموت حتف أنوفنا موتا طبعيا . وربما لا يكونون قد قصدوا وقتا معيناً بل قصدوا من ذلك الهرب والتفصى عن القتال كما تقول لمن يرهقك عسرا فى أمره أمهلنى قليلا ، أنظرنى إلى أجل ، وقد أمر الله رسوله أن يرد عليهم شبهتهم فقال :

(قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى) أى إن طلبكم للانظار إنما هو خشية الموت والرغبة فى متاع الدنيا ولذاتها ، مع أن كل ما يتمتع به فى الدنيا فهو قليل بالنسبة إلى متاع الآخرة لأنه محدود فان ، ومتاع الآخرة كثير باق ولا يناله إلا من اتقى الله وابتعد عن الأسباب التى تدنس النفس بالشرك وبالأخلاق الذميمة ، فحاسبوا أنفسهم واعلموا أنكم ستجزون بأعمالكم إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

(ولا تظلمون فتيلا) أى ولا تنقصون من الجزاء على أعمالكم مقدار فتيل - والفتيل ما يكون فى شق نواة التمر مثل الخيط وبه يضرب المثل فى القبة والحقارة - . (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة) أى إن الموت أمر محتم لا مهرب منه ، فهو لا بد أن يدرككم فى أى مكان ولو تحصنتم فى شواهد القصور التى يسكنها ذوو الثراء والنعمة أو فى القلاع والحصون التى تتطنها حامية الجند ، وإذا كان الموت لا مفر منه وكان المرء قد يقتحم غمار الوغى ولا يصاب بالأذى ،

وقد يموت المعتصم في البروج والحصون وهو في غصارة العيش فلا عذر لكم أيها المشعلون المبطلون ، ولماذا تختارون لأنفسكم الحقير على العظيم ؟ ولماذا لا تدافعون عن الحق وتمنعون الشر أن يفشو حتى تستحقوا مرضاة الله وسعادة الآخرة ؟ ولماذا تكرهون القتال وتجنبون وتخافون الناس وتتمنون البقاء ، أليس هذا بضعف في الدين وركعة في العقل وخور في العزيمة تؤاخذون بها وتقوم عليكم بها الحجة ، ثم ذكر سبحانه شأننا آخر من شئونهم أشد دلالة على الحق وضعف العقل ومرض القلب فقل (وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ، قل كل من عند الله) أى إن أصابهم رخاء ونعمة قالوا إن الله أكرمهم بها عناية بهم وليس لهداية الرسول أثر في ذلك ، وإن أصابهم شدة وجهد فالوا هذا من شؤم محمد علينا ، وهذه مقالة اليهود والمنافقين حين قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وأصابهم القحط والجذب ، وهذا زعم باطل منهم ، فكل من النعمة والبلية من عند الله خلقا وإيجادا يقع في ملكه على حسب السنن التي وضعها والأسباب والمسببات التي أوجدها . (فما هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا) أى ماذا أصاب هؤلاء القوم وماذا دهام في عقولهم ، فهم لا يعقلون حقيقة ما يلقونه من الحديث ولا ما يلقى إليهم ، وإنما يأخذون بما يطفو من المعنى بادیء أى دون تمحيص ولا تحقيق وإذا كانوا قد حرموا هذا الفقه من كل حديث ، فما أحراهم أن يحرموه من حديث يباغحه الرسول عن ربه في الإخبار عن نظم الاجتماع وارتباط الأسباب بالمسببات ، وعمّا أحاط الله به المصطفين الأخيار من وافر الفضل وخصهم به جميل الرعاية ، فتلك الحكم العالية لا تنال إلا بفضل الروية وطول الأناة والتدبير ، ومن وصل إلى هذا القدر من الفهم لا يقول إن السيئة لا تقع بشؤم أحد ، بل ينسب كل شيء إلى سببه .

وفي الآية إيماء إلى أن حصيف الرأي يجب أن يطلب فقه القول دون الأخذ بالتحمل والظواهر إذ من قنع بذلك بقى في عماية ويظل طوال دهره غرّاجا هالما يحيط به من نظم هذا العالم .

(ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) هذا خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمقصود منه من أرسل إليهم .

أى إن كل حسنة تصيبك أيها المؤمن فهي من فضل الله وجوده ، فهو الذى سخر لك المنافع التى تتمتع بها وتحسن لديك ، فقد سخر لك الهواء الذى يحفظ الحياة ، والماء العذب الذى يمد كل الأحياء ، وأزواج النبات والحيوان وغيرهما من مواد الغذاء ، وأنعم عليك بوسائل الراحة والهناء ؛ وكل سيئة تصيبك فهي من نفسك فإنك بما أوتيت من قدرة على العمل واختيار فى درء المفاسد وجلب المنافع وترجيح لبعض المقاصد على بعض قد تخطئ فى معرفة ما يسوء وما ينفع ، لأنك لاتنضبط برادتك وهواك ولا تحيط علما بالسنن والأسباب ، فأنت ترجح بعضا على بعض إما بالهوى أو قبل أن تحيط خبرا بمعرفة النافع والضار فتقع فيما يسوء .

والخلاصة — أن هاهنا شيئين لا بد من معرفتهما :

(١) أن كل شئ من عند الله على معنى أنه خالق الأشياء وواضع النظام والسنن لتوصل إلى هذه الأشياء بسعى الإنسان وكسبه ، وكل شئ حسن بهذا الاعتبار لأنه مظهر الإبداع والنظام .

(٢) أن الإنسان لا يقع فيما يسوء إلا بتقصير منه فى معرفة السنن والأسباب ، فالسوء إنما ينسب إلى الأشياء بتصرف الإنسان باعتبار أنها تسوء وليس بذاتى لها ومن ثم ينسب ذلك إلى الإنسان ، فالمرض مثلا يسوءه ، وهو إنما يكون بتقصيره فى السير على نهج الفطرة فى التغذية ، فقد يكون من تخمة قادته إليها شهوته أو من إفراط فى تعب أو راحة أو من تعرض للبرد القارس أو للحر الشديد أو نحو أولئك من الأسباب التى ترجع كلها إلى سوء الاختيار ، كما أن الأمراض الموروثة هى من جنابة الإنسان على الإنسان فهي من نفسه أيضا لا من أصل الفطرة والطبيعة التى هى محض خلق الله دون اختيار الإنسان لنفسه ، فالولدان قد يجنبان على

المرء بتعريض أنفسهما للمرض الذي انتقل إلى نسلهما بالوراثة ، كما يجنيان عليه في صغره بعدم وقايته من أسبابه حين يكون اختيارهما له تاماً قائماً مقام اختياره لنفسه . وكذلك أحياناً تسند الأشياء جميعها إلى الله ويقال إنها من عنده بمعنى أنه هو الخالق لها والواضع لسنن الأسباب والمسببات فيها .

ويسند إلى الإنسان منها كل ماله فيه كسب وعمل اختياري سواء كان من الحسنات والسيئات ، وقد مضى بهذا كلام الناس وأيديته نصوص الكتاب والسنة كقوله تعالى « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَلِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظَاهَمُونَ » .

وبهذا الاعتبار يقال إصابة الحسنة من فضل الله تعالى مطلقاً وإصابة السيئة من نفس الإنسان مطلقاً ولكل من الاطلاقين مقام يقال فيه ، والمقام الذي سبقت له الآية في بيان نفي الشؤم والتطير وإبطال ما يعلم الناس أن ما يصيبهم من السيئات لا يكون بشؤم أحد وكانوا يتشاءمون ويتطيرون في الجاهلية . وقد أبطال ذلك الإسلام لكنه لا يزال فاشياً إلى الآن .

وينبغي للإنسان حينما تصيبه سيئة أن يبحث عن سببها من نفسه ، لأنها إنما تصيبه لجهله بالسنن التي وضعها الله من التماس المنافع من أسبابها واتقاء المضار بالبعد عن أسبابها بترجيحه فعل ما ينفع على فعل ما يضر .

وقد تضافرت الآثار على أن طاعة الله من أسباب النعم وأن عصيانه مما يجلب النقم ، وطاعته إنما تكون باتباع سننه وصرف ما وهب من الوسائل فيما وهب لأجله ، وهذه الآية أصل من أصول الاجتماع وعلم النفس وفيها شفاء للناس من خرافات الوثنية ، وارتقاء وتكريم للنفس الإنسانية .

(وأرسلناك للناس رسولا) والرسول ليس عليه إلا البلاغ وليس له دخل فيما يصيب الناس من الحسنات والسيئات ، لأنه لم يرسل إلا للتبليغ والهداية للتصرف في نظم الكون وتحويل سنن الاجتماع أو تبديلها ، فما زعمه أولئك الجاهلون من أن السيئة

تصيبهم بشؤمه ، محض خرافة لامستند لها من عقل أو نقل ومخالف لما بينه الله تعالى من وظيفة الرسل .

(وكفى بالله شهيدا) أنك أرسلت للناس كافة بشيرا ونذيرا لا مسيطرا ولا جبارا ولا مغتبرا انظم الكون وتحويل سنن الاجتماع أو تبديلها « فَانْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا » .

مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا (٨٠) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ، وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ، فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨١) أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَتْ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢)

المعنى الجملى

بعد أن أمر فيما تقدم بطاعة الله وطاعة الرسول وبين جزاء المطيع وأحوال الناس في هذه الطاعة على حسب قوة الإيمان وضعفه ، ثم أمر بالقتال وبين مراتب الناس في الامتثال له ، أعاد هنا الأمر بالطاعة وبين أنها أولا وبالذات لله ولغيره بالتبع ، وبين ضروب مراوغة الضعفاء والمناقضين .

الإيضاح

(من يطع الرسول فقد أطاع الله) أى إن من أطاع الرسول فقد أطاع الله لأنه الأمر والنهى فى الحقيقة ، والرسول إنما هو مبلغ للأمر والنهى فليست الطاعة له

بالذات وإنما هي لمن بلغ عنه ، إذ قد جرت سنته سبحانه ألا يأمر الناس ولا ينهاهم إلا بواسطة رسل منهم يفهمون عنهم ما يوحى إليهم ليلبثوه عنه .

أما ما يقوله الرسول من تنقاء نفسه وما يأمر به مما يستحسنه باجتهاده ورأيه من أمور المعيشة كتأبير النخل (نقيحه بطلع الذكر) ونحوه مما يسميه العلماء أمر إرشاد ، فطاعته فيه ليست من الفرائض التي فرضها الله لأنه ليس ديناً ولا شرعاً عنه تعالى فقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بكييل الطعام كالقمح وغيره من الحبوب عند طحنه وعند عجنه وهو من التدبير والاقتصاد في البيوت ، وأكثر المساهمين أهلوه إلا من تعود منهم التدبير وحسن التقدير في المنازل ، وكذلك أمر بأكل الزيت والادّهان به .

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم إذا شكوا في الأمر أمن عند الله هو أم من رأى الرسول واجتهاده ؟ وكان لهم في ذلك رأى آخر سألوه ، فإن أجابهم بأنه من الله أطاعوه بلا تردد ، وإن قال إنه من رأيه ذكروا رأيهم وربما رجع النبي صلى الله عليه وسلم عن رأيه إلى رأيهم كما فعل في بدر وأحد .

روى مقاتل أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول « من أحبني فقد أحب الله ومن أطاعني فقد أطاع الله ، فقال المنافقون ألا تسمعون إلى ما يقول هذا الرجل ؟ لقد قارف الشرك ، قد نهى أن نعبد غير الله ويريد أن نتخذة رباً كما اتخذت النصارى عيسى ، فأنزل الله هذه الآية » .

فالؤمن حقاً لا يكون خضعاً إلا لخالقه وحده دون أحد من خلقه ، والخروج عن ذلك شرك ، وهو نوعان :

(١) أن ترى لبعض المخلوقات سلطة غيبية وراء الأسباب العادية ، ومن ثم ترجو نفعها وتخاف ضررها وتدعوها وتذل لها ، وذلك هو الشرك في الألوهية .

(٢) أن ترى لبعض المخلوقين حق التشريع والتحليل والتحرير ، كما فسر النبي صلى الله عليه وسلم قوله تعالى « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ » بطاعتهم فيما يحللون ويحرمون ، وذلك هو الشرك في الربوبية .

ذاك أن المؤمن يجب أن يكون أعز الناس نفسا وأعظمهم كرامة ، فلا يرضى أن يستعبده سلطان ظالم ولا حاكم مستعبد إذ هو يعلم علم اليقين أن الكل عبيد مسخرون لله تعالى يخضعون لأمره وأن ذلك منتهى سعادتهم في الدارين .

(ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيفاً) أى ومن أعرض عن طاعتك التى هى طاعة الله فليس لك أن تكرهه عليها ، لأنك ما أرسلت إلا مبشرا ونذيرا ولم ترسل مسيطرا أوردقيا تحفظ على الناس أفعالهم وأقوالهم ، فالإيمان والطاعة إنما يكونان بالاختيار بعد الإقناع والاختبار .

(ويقولون طاعة) أى ويقول ذلك الفريق الذين أخبر الله عنهم أنهم يخشون الناس خشية الله أو أشد خشية ، إذا أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بأمر : أمرك طاعة - أى أمرك مطاع ، إظهارا لكمال الانقياد والخضوع .

(فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول) البراز - بفتح الباء - الأرض القضاء والتبليغ ما يدبر فى الليل من رأى ونية وعزم على عمل ومنه تبليغ العدو للإيقاع به ليلا أى إذا خرجوا من المكان الذى يكونون معك فيه إلى البراز وهم منصرفون إلى بيوتهم ، دبر جماعة منهم ليلا غير الذى قالوا لك وأظهروه من الطاعة نهارا .

روى ابن جرير عن ابن عباس أنه قال هم ناس يقولون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم آمنا بالله ورسوله ليؤمنوا على دماءهم وأموالهم ، وإذا برزوا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم خالفوا إلى غير ما قالوا عنده فعاتبهم الله على ذلك .

(والله يكتب ما يبيتون) أى يبينه لك فى كتابه ويفضحهم بمثل هذه الآيات ، وفى هذا من التهديد انشئ الكثير .

(فأعرض عنهم) ولا تهتم بما يبيتون ولا تأخذهم بما أسروا ولم يعلنوا .
(وتوكل على الله) أى فوض الأمر إليه وثق به فى جميع أمورك ، فإن الله يكفيك شرهم وينتقم منهم .

(وكتبى بالله وكيلا) لمن توكل عليه ، فهو قادر على إيقاع الجزاء بهم ، وعليم بمقدار ما يستحقون منه ، لا يعجزه منه شيء .

(أفلا يتدبرون القرآن) أصل التدبر التأمل فى أدبار الأمور وعواقبها ، ثم استعمل فى كل تأمل سواء كان نظرا فى حقيقة الشيء وأجزائه ، أو سوابقه وأسبابه ، أو لواحقه وأعاقبه ، وتدبر الكلام هو النظر والتفكر فى غياته ومقاصده التى يرمى إليها ، وعاقبة من يعمل به ومن يخالفه .

أى أجهل هؤلاء القوم حقيقة الرسالة وكنه هذه الهداية فلا يتدبرون القرآن الذى يدل على حقيقتها ؟ ولو تدبروه لعرفوا أنه الحق من ربهم وأن ما وعده به المتقين الصادقين وما أنذر به الكافرين والمنافقين واقع لا محالة ، فهو إذ صدق فى الإخبار عما يبيتون فى أنفسهم من القول يصدق كذلك فيما أخبر عن سوء مصيرهم والوبال والنكال فى عاقبتهم .

(ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) أى ولو كان من عندك لا من عند الله الذى أرسله به لوجدوا فيه اختلافا كثيرا لأسباب كثيرة :

(١) أن أى مخلوق لا يستطيع تصوير الحقائق كما صورها القرآن بلا اختلاف ولا تفاوت فى شيء منها .

(٢) أنه حكى عن الماضى الذى لم يشاهده محمد صلى الله عليه وسلم ولم يتف على تاريخه ، وعن الآتى فوقه كما أنبأ به ، وعن الحاضر فأخبر عن خبايا الأنفس ومكنونات الضمائر كما أخبر عما يبيتته هذه الطائفة مخالفا لما تقول لارسول أو ما يقوله لها فتقبله فى حضرته وترفضه فى غيبته .

(٣) أن أحدا لا يستطيع أن يأتى بمثله فى بيان أصول العقائد وقواعد الشرائع وسياسة الشعوب والقبائل مع عدم الاختلاف والتفاوت فى شيء من ذلك .

(٤) أن أحدا لا يستطيع أن يأتى بمثله فى سنن الاجتماع ونواميس العمران وطبائع الملل والأقوام مع إيراد الشواهد وضرب الأمثال وتكرار القصة الواحدة

بالعبارات البليغة تنوعا للعبارة وتلوينا للموعظة ، واتفاق كل ذلك وتواطئه على الصدق ، وبراءته من الاختلاف والتناقض .

(٥) أن أحدا لا يستطيع أن يأتي بمثله فيما جاء به من فنون القول وألوان العبر في أنواع الخبوءات في الأرض أو في السموات ، فقد تكلم على الخلق والتكوين ووصف جميع الكائنات كالسكواكب ونظامها والرياح والبحار والحيوان والنبات وما فيها من الحكم والآيات ، وكان في كل ذلك يؤيد بعضه بعضا لاتفاوت فيه ، ولا اختلاف بين معانيه .

(٦) أنه أخبر عن عالم الغيب والدار الآخرة وما فيها من الحساب على الأعمال والجزاء العادل ، وكان في كل ذلك جاريا على سنة الله تعالى في تأثير الأعمال الاختيارية في الأرواح ، مع اللثام بين الآيات الكثيرة وهو غاية الغايات في ذلك عند من أوتي الحكمة وفصل الخطاب .

هذا إلى أنه نزل منجما على حسب الوقائع والأحوال ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم عند نزول الآية أو الآيات يأمر بأن توضع في محلها من سورة كذا وهو يحفظه حفظا ، وقد جرت العادة بأن من يأتي بكلام من عنده في مناسبات مختلفة لا يتذكر جميع ما سبق له في السنين الطوال ولا يستحضره حتى يجعل الآخر موافقا للأول مع أن بعض الآيات كان ينزل في أيام الحزن والكروب وبعضها عند تنازع الأقوام حين الخصام .

إلى أن كر الغداة ومر العشى لا يزيده إلا جدّة ولا يزيده أحكامه إلا ثباتا ورسوخا ، وكلما اتسعت دائرة العلوم والمعارف ونمت أحوال العمران زاد إيمان الناس به إذ تتوثق روابط الصلة بين الدين والعلم وتنتظر أحكامه مع نوايس الاجتماع وشؤون الكون .

والخلاصة — أن تدبر القرآن وتأمّل ما امتاز به هو طريق الهداية القويم وصراط الحق المستقيم ، فإنه يرشد إلى كونه من عند الله وإلى وجوب الاهتداء به

وإلى أنه معقول في نفسه موافق للفطرة ملائم للمصلحة وفيه سعادة الخلق في الدنيا والآخرة .

ولو تدبر المسلمون القرآن واهتدوا به في كل زمان لما فسدت أخلاقهم وآدابهم ، ولما ظلم واستبد حكمهم ، ولما زال ملكهم وسلطانهم ، ولما صاروا عالة في معاشهم على سواهم .

وهذا التدبر لا يمنع أن يستنبط أولو الأمر الأحكام العامة في السياسة والقضاء والإدارة ، وتتبعهم فيها سائر الأمة .

وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ، وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ ، وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (٨٣)

تفسير المفردات

أذاع الشيء وأذاع به : نشره وأشاعه بين الناس ، ورد الشيء : أرجعه وأعاده ، والاستنباط : استخراج ما كان مستترا عن الأبصار ، فضل الله : هو هدايتكم بطاعة الرسول ، إلا قليلا أى قليلا منكم ممن أوتوا صفاء الفطرة وسلامتها .

المعنى الجملى

قال ابن جرير : إن هذه الآية نزلت في الطائفة التي كانت تبيت غير ما يقول لها الرسول أو تقول له اه . ولا يبعد أن تكون في جمهور المسلمين بلا تعيين ، لأن المشاهد في أحوال الناس أن الإذاعة بمثل أخبار الأمن والخوف لا تكون من دأب المناقير خاصة ، بل هي مما يلجج به الناس في مختلف البيئات على حسب المناسبات وإن كانت

تختلف نياتهم ، فلما نفي قد يذيع ما يذيعه لأجل الضرر ، وضعيف الإيمان قد يذيع استشفاء مما في صدره من الإحزن والبغضاء ، وغيرهما قد يذيع رغبة في كشف الأسرار وابتلاء الأخبار ، وهذا أمر معتاد بين الناس وهو كثير الضرر إذا شغلوا به عن أعمالهم وضرره أكثر إذا أذاعوه وعلمه جواسيس العدو لما يكون لذلك من العواقب الوخيمة على الأمة ، ومثل ذلك سائر الأمور السياسية والشؤون العامة التي لا ينبغي أن تعدو الخاصة وتصل إلى العامة .

الإيضاح

(وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به) هذا بيان لجناية ضعفاء الإيمان إر بيان جنائية المنافقين .

أى إن هؤلاء قد بلغ من طيشهم وخفة أحلامهم أن كل خير يصل إليهم يستفزه ويطلق ألسنتهم بالكلام فيه وإذاعته بين الناس ، سواء أ كان من ناحية الجيش الذى يغزو ويقابل العدو ، أو من ناحية المركز العام للسلطة ، ولا ينبغي أن تشيع العامة أخبار الحرب وأسرارها ، ولا أن تخوض في السياسة العامة للدولة لأن ذلك مضرة لها ومفسدة لشؤونها ومرافقتها العامة وعلاقتها مع غيرها من الأمم ، إلى أن في ذلك مشغلة لهم عن شؤونهم الخاصة وضياع زمن كانوا فيه أحوج إلى العمل بما يفيدهم ويفيد الأمة .

(ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) أى ولو أن أولئك المذيعين فوضوا الكلام في الأمور العامة إلى الرسول وهو الإمام الأعظم والقائد العام في الحرب ، وإلى أولى الأمر من أهل الحل والعقد ورجال الشورى لوجدوا علم ذلك عندهم لأنهم هم الذين يستنبطون مثله ويستخرجون خفاياه بدقة نظرهم ، إذ لكل طائفة منهم استعداد للإحاطة ببعض المسائل المتعمقة بسياسة الأمة دون بعض ، فهذا إحصائي في المسائل المالية ، وذاك في الأمور القضائية ، وذاك

فى بناء القناطر والجسور ، ورايع فى شؤون الحرب ، وكل هذه المسائل يدرسها رجال الشورى [مجلس الوزراء بالاصطلاح العصرى] ويستنبطون منها ما يكون فيه المصلحة للدولة وينفذونه ، ولا ينبغى أن تضيعه العامة لما فى ذلك من الضرر بها من سائر الوجوه والاعتبارات .

(ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا) أى ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم إذ هذا كم لطاعة الله والرسول ظاهرا وباطنا ، ورد الأمور العامة إلى الرسول وإلى أولى الأمر منكم ، لاتبعتم وسوسة الشيطان كما اتبعته تلك الطائفة التى تقول للرسول طاعة لك وتبيت غير ذلك والى تضيع أمر الأمن والخوف وتفسد على الأمة سياستها به وأخذتم بآراء المناهقين فيما تأتون وما تذكرون ولم تهتدوا إلى الصواب ، إلا قليلا منكم ممن استنارت عقولهم بنور الإيمان وعرفوا الأحكام بالاعتباس من مشكاة النبوة كأبى بكر وعلى ، فهى كقوله تعالى « وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا » .

فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ، وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا (٨٤)

تفسير المفردات

التحريض : الحث على الشئ بتزيينه وتسهيل الأمر فيه ، والبأس : القوة وكان بأس الكافرين متجها إلى إذلال المؤمنين لإيمانهم ، والتنكيل : معاقبة المجرم بما يكون فيه عبرة ونكال غيره بحيث يمنع أن يفعل مثل فعله .

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه بالجهاد ودرغ فيه أشد الترغيب ، وذكر قلة رغبة المنافقين فيه وسعيهم في تشييط المسلمين عنه ، عاد هنا إلى الأمر به مرة أخرى .

الإيضاح

(فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرّض المؤمنين) أى وإذا أردت الفوز والظفر على الأعداء فقاتل في سبيل الله امتثالا لأمره ، وأنت لا تكلف إلا أفعال نفسك دون أفعال الذين قالوا : لم كتب علينا القتال ؟ والذين يقولون لك طاعة وبيعتون غير ذلك ، فمن أطاع الله لا يضره عصيان من عصاه ، وعليك أن تحت غيرك على القتال وتحرضه عليه ، لا أن تلزمه ذلك بالقهر والجبروت .

وفي الآية إيماء إلى أنه صلى الله عليه وسلم كلف قتال الكافرين الذين قاوموا دعوته بقوتهم وبأسهم وإن كان وحده ، كما أنها تدل على أنه صلى الله عليه وسلم أعطى من الشجاعة ما لم يعط أحد من العالمين ، وفي سيرته الشريفة أصدق الأدلة على ذلك فقد تصدى لمقاومة الناس جميعا بدعوتهم إلى ترك ما هم عليه من الضلال ، وحين قاتلوه قاتلهم وقد انهزم عنه أصحابه في أحد فبقى ثابتا كالجبل لا يتزلزل .

(عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا) عسى هنا للتهيئة والإعداد فهى بمعنى الخبر والوعد ، وخبره تعالى حق فإنه لا يخلف الميعاد .

والمعنى — إن تحريض النبي للمؤمنين على القتال معه هو الذى يحملهم بباعث الإيمان والإذعان النفسى على الاستعداد له وتوطئ النفس عليه ، بينما هو يعد الكافرين لترك الاعتداء على المؤمنين وكف بأسهم عنهم ، إذ لاشئ أدعى إلى ترك القتال من الاستعداد للقتال كما قال أبو تمام :

وأخافكم كي تغمدوا أسيافكم إن الدم المغبر يحرسه الدم

وعلى هذا النحو جرى عمل الملائك الكبيرة في هذا العصر ، فكل دولة منها تبذل منتهى ما في وسعها من اتخاذ العدة والعتاد في البر والبحر وتنظيم الجيوش لتكون القوى بينها متوازنة ولا تطمع القوية في الضعيفة إذ يغريها ضعفها بالإقدام على حربها (والله أشد بأسا وأشد تنكيلا) أى لا تخافوا بأس هؤلاء الكافرين وشدتهم ولا يصدنكم ذلك عن طاعة الرسول والعمل بتحريضه ، فإن الله الذى وعد الرسول بالنصر أشد منهم بأسا وأشد منهم تنكيلا ، وقد جرت سنته أن تكون العاقبة للمتقين ما استمسكوا بأوامره وتركوا نواهيه وأعدوا العدة مع الصبر والثبات والتباعد عن أسباب الخذلان والفشل .

مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا ، وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا (٨٥) وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَخَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (٨٦) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧)

تفسير المفردات

قال الراغب : الشفع ضم الشيء إلى مثله ، والشفاعة : الانضمام إلى آخر ناصرا له وسائلا عنه ، نصيب : حظ ، كفل : نصيب ، مقيتا أى مقتدرا أو حافظا أو شاهدا . قال الراغب : وحقيقته قائما عليه يحفظه ويعينه فهو مأخوذ من القوت وهو ما يعسك الرمح من الرزق وتحفظ به الحياة ، يقال قاته يقوته إذا أطعمه قوته ، وأقاته يقيته إذا جعل له ما يقوته ، والتحية : مصدر حياه إذا قال له حياك الله ، وهى فى الأصل الدعاء بالحياة ثم صار اسما لكل دعاء وثناء كقولهم : أنعم صباحا وأنعم مساء وعم صباحا

وعم مساء ، وجعل الشارع تحية المسامين (السلام عليكم) إشارة إلى أن الدين دين سلام وأمان ، الحسيب : المحاسب على العمل كالجلس بمعنى المجلس وقد يراد به المكافئ والسكافي من قولهم حسبك كذا إذا كان يكفيك .

المعنى الجملي

بعد أن أمر الله تعالى نبيه أن يحرض المؤمنين على الجهاد وذكر أنه ليس عليه وزر من ترد وعصى — بين في هذه الآية أنهم حين أطاعوك ولبوا دعوتك أصابهم من هذه الطاعة خير كثير ، وأن لك من هذا الخير نصيبا تستحق عليه الأجر لأنك قد بذلت الجهد في ترغيبهم فيه بجعل نفسك شفيعا ونصيرا لهم في الوصول إلى تحصيل هذه الأغراض الشريفة .

الايضاح

(من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها) أى من يجعل نفسه شفعا لك ويناصرک في القتال — وقد أمرت به وحدك — يكن له من شفاعته نصيب بما يناله من الفوز والشرف والغنيمة في الدنيا عند ما ينتصر الحق على الباطل ، وبما يناله من الثواب في الآخرة في جميع الحالات سواء أدرك النصر في الدنيا أم لم يذكره ، ووصف الشفاعة بالحسنة لأنها تأييد ونصر للحق ، ومثل هذا كل من يعاون فاعل الخير ويساعده .

(ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها) أى ومن ينضم إلى عدوك فيقاتل معه أو يخذل المؤمنين عن قتاله يكن له نصيب من سوء العاقبة بما يناله من الخذلان في الدنيا والعقاب في الآخرة ، وهذه هي الشفاعة السيئة لأنها إغانة على السيئات ، وسمى هذا النصيب كفلا لأنه نصيب مكفول للشافع إذ هو أثر عمله ، أو محدود لأنه على قدره .

والخلاصة — أن من ينضم إلى غيره معين له في فعل حسن يكن له منه نصيب ، ومن ينضم إلى غيره معين له في فعل سيئ يناله منه سوء وشدة .

ويدخل في الآية شفاعة الناس بعضهم لبعض ، وهي قسمان : حسنة ، وسيئة ؛
فالحسنة أن يشفع الشافع لإزالة ضرر ورفع مظامة عن مظلوم أو جر منفعة إلى مستحق .
ليس في جرّها إليه ضرر ولا ضرار ؛ والسيئة أن يشفع في إسقاط حد أو هضم حق
أو إعطائه لغير مستحق أو محاباة في عمل بما يوصل إلى الخلل والزلل ، ولأجل هذا قال
العلماء : الشفاعة الحسنة ما كانت في استحسنة الشرع ، والسيئة فيما كرهه أو حرّمه .
وفي الآية من العبرة لنا أن نتذكر أن الحاكم العادل لا تنفع الشفاعة عنده
إلا بإخباره بما لم يكن يعلم من مظامة المشفوع له أو استحقاقه لما يطلب له ، ولا يقبل
الشفاعة لإرضاء الشافع فيما يخالف الحق والعدل ويخالف المصلحة العامة .

أما الحاكم الظالم فتروج عنده الشفاعات لأنه يجابى أعوانه المقرين منه ليكونوا
شركاء له في استبداده ليثبتوا على خدمته وإخلاصهم له ، والحكومات التي تروج
فيها الشفاعات وتعتمد عليها الرعية في كل ما تطب تضعيف فيها الحقوق ويحل الظلم محل
العدل ويسرى من الدولة إلى الأمة فيعم فيها الفساد ويختل نظام الأعمال .

(وكان الله على كل شيء مقبلاً) أى وكان الله مقتدرًا على كل شيء فهو
لا يعجزه أن يعطى الشافع نصيبا وكفلا من شفاعته على قدرها في النفع والضرر ،
ويجازى كلاً بما يستحق ، لأن سننه قد قضت بأن يربط الجزاء بالعمل .

وبعد أن علم الله المؤمنين طريق الشفاعة الحسنة والسيئة وهي من أسباب التواصل
بين الناس ، علمهم سنة التحية بينهم وبين إخوانهم ليؤدّبهم بأدب دينه ويركّهم
ويطهر نفوسهم من الغل والحسد فقال :

(وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) أى إذا حياكم أحد بتحية
فردوها بتحية مثلاً ، أو بتحية أحسن منها ، فقولوا لمن قال : السلام عليكم - وعليكم
السلام ، أو وعليكم السلام ورحمة الله ، وإذا قال هذا في تحيته فالأحسن أن تقولوا :
وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، وهكذا يزيد الحبيب على المبتدى كلمة أو أكثر .

وقد يكون حسن الجواب بمعناه أو كيفية أدائه وإن كان يمثل لفظ المبتدئ بالتحية أو مساويه في الألفاظ أو أخصر منه ، فمن قال لك السلام عليكم بصوت خافت يشعر بقلّة العناية فقلت له وعليكم السلام بصوت أرفع وباقبال يشعر بالعناية وزيادة الإقبال والتكريم كنت قد حييته بتحية أحسن من تحيته في صفتها ، وإن كانت مثلها في لفظها .

والخلاصة — أن الجواب عن التحية له مرتبتان : أدناها ردها بعينها ، وأعلىها الجواب عنها بأحسن منها ، والحبيب مخير بينهما ، وقد روى ابن جرير عن ابن عباس عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه وإن كان مجوسيا فإن الله يقول (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) ومن قال لخصمه السلام عليكم فقد أئمنه على نفسه وكانت العرب تقصد هذا المعنى والوفاء من شيمتها ، وبعض المسلمين الآن يكره أن يحييهم غيرهم بلفظ السلام ، كما يكرهون رد السلام على غير المسلم ، وكأنهم غفلوا عن أن الآداب الإسلامية إذا ألفت عرفوا فضل الإسلام وجذبهم ذلك إليه .

والسنة أن يسلم القادم على من يقدم عليه ، وإذا تلاقى الرجلان يبدأ الكبير في السن أو القدر بالسلام ، وقد جاء في الصحيحين أنه « يسلم الراكب على الماشى والماشى على القاعد والقليل على الكثير » وروى « أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ بصبيان فسلم عليهم » وروى الترمذى « أنه مرّ بنسوة فأومأ بيده بالتسليم » وقد ورد في الصحيحين قوله صلى الله عليه وسلم « إن أفضل الإسلام وخيره إطعام الطعام وأن تقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » وروى الحاكم قوله صلى الله عليه وسلم « أفشوا السلام تسلموا » .

(إن الله كان على كل شيء حسيبا) أى إنه تعالى رقيب عليكم في مراعاة هذه الصلة بينكم بالتحية ومحاسنكم على ذلك ، وفي هذا إشارة إلى تأكيد أمر هذه الصلة بين الناس ، ووجوب رد التحية على من يسلم علينا ويحيينا .

(الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه) جمعت هذه الآية التوحيد والإيمان بالبعث والجزاء في الدار الآخرة وهما الركنان الأساسيان للدين ، وقد أرسل الرسل جميعا لتبليغ الناس ما يجب عليهم من إقامتهما وتأييدهما بصالح الأعمال ، والقرآن قد يصرح بهما تارة معا ، وبالأول منهما تارة أخرى أثناء ذكر الأحكام إذ هما العون الأكبر والباعث الأقوى على العمل بها ولا سيما أحكام القتال الذي يبذل المرء فيه نفسه ونفيسه للدفاع عن حرية الدين ونشر هدايته وتأمين دعائه وأهله .

والمعنى — لا إله يعبد غيره فلا تقصروا في عبادته والخضوع لأمره ونهيه ، فإن في ذلك سعادتكم وارتقاء أرواحكم وعقولكم وتحريككم من رق العبودية لأمثالكم من البشر، بل من دونهم من المعبودات التي ذل لها لمشركون ، وليس هذا هو كل الجزاء فإنه سيجمعكم ويحشركم إلى يوم القيامة ، وهو يوم لا ريب فيه ولا فيما يكون فيه من الجزاء على الأعمال .

(ومن أصدق من الله حديثا) أى لا أحد أصدق منه عز وجل ، إذ كلامه تعالى عن علم محيط بسائر الكائنات كما قال تعالى « لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى » فلا يمكن أن يكون خبره غير صادق بسبب النقص في العلم أو الغرض أو الحاجة لأنه تعالى غنى عن العالمين .

أما كلام غيره فهو محتمل للصدق والكذب عن عمد وعلم أو عن سهو وجهل ، وقد دل الدليل على أن القرآن كلام الله فلم يبق عذر لمن قام عليه الدليل إذا آثر على قوله أقوال الخنوقين كما هو دأب الضالين .

فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَّ كَسَبُهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَمْ تَبْغُونَ
أَنْ تَهْتَدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ، وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨)

وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ
 حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ
 وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى
 قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ
 أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ ، فَإِنْ
 اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ
 سَبِيلًا (٩٠) سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ
 كُلَّمَا رُزِّدُوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ، فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ
 السَّلَمَ وَيَكْتُمُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ ، وَأُولَئِكَ
 جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (٩١)

شرح المفردات

الفتنة : الجماعة ، والركس بوزن النصر : إرجاع الشيء منكوساً على رأسه إن كان
 له رأس أو متحولاً عن حال إلى أردأ منها كتحويل الطعام والعلف إلى الرجيع والروث ؛
 والمراد به هنا تحولهم إلى الغدر والقتال بعد أن أظهروا الولاء والتحيز إلى المسلمين ،
 والسبيل : الطريق ، والولى : النصير والمعين ، يصلون أى يتصلون بهم ، الميثاق : العهد ،
 حصرت : ضاقت ، السلم : الاستسلام والانقياد ، الفتنة الشرك ، ثقتمهم وجدتمهم ،
 السلطان المبين : الحجة الواضحة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أحكام القتال وختمها ببيان أنه لا إله غيره يخشى ضربه أو يرجى خيره فترك هذه الأحكام لأجله - ذكر هنا أنه لا ينبغي التردد في أمر المنافقين وتقسيمهم فئتين، مع أن دلائل كفرهم ظاهرة جلية، فيجب أن تقطعوا بكفرهم وتقاتلوهم حيثما وجدوا .

روى ابن جرير عن ابن عباس أنها نزلت في قوم أظهروا الإسلام بمكة وكانوا يعينون المشركين على المسلمين فاختلف المسلمون في شأنهم وتشاجروا فنزلت الآية .

الإيضاح

(فما لكم في المنافقين فئتين) أى فما لكم صرتم في المنافقين فئتين واختلفتم في كفرهم مع تظاهر الأدلة عليه ، فليس لكم أن تختلفوا في شأنهم ، بل عليكم أن تقطعوا بثبوته .

وهؤلاء فريق من المشركين كانوا يظهرون المودة للمسلمين والولاء لهم وهم كاذبون فيما يظهرون فضلهم مع أمثالهم من المشركين لكنهم يحتاطون و يظهرون الولاء للمسلمين إذا رأوا منهم القوة ، فإذا ما ظهر لهم منهم ضعف انقلبوا عليهم وأظهروا لهم العداوة .

وكان المؤمنون في أمرهم على فرقتين ، فرقة ترى أنهم يعدون من الأولياء ويستعان بهم على سائر المشركين الجاهرين لهم بالعداوة ، وفرقة ترى أن يعاملوا كما يعامل غيرهم من المشركين العلنيين بالعداوة .

(والله أركسهم بما كسبوا) أى كيف تفرقون في شأنهم والله قد صرفهم عن الحق الذى أتم عليه بما كسبوا من أعمال الشرك واجترحوا من المعاصى حتى إنهم لا ينظرون إليكم نظرة المودة والإخاء، بل نظرة العداوة والبغضاء و يتر بصون بكم الدوائر .

وقد جعلهم الله مركسين كأنهم قد نكسوا على رؤوسهم وصاروا يمشون على وجوههم كما قال تعالى « أَفَنَ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ؟ » لأنهم قد فسدت فطرتهم وأحاطت بهم خطيئاتهم فأوغلوا في الضلال وبعدوا عن الحق حتى لم يعد يجول في أذهانهم إلا الثبات على ما هم فيه ومقاومة ما عداه .

وقد نسب الله تعالى إليه لأنه ما كان سببا إلا بسنته في تأثير الأعمال الاختيارية في نفوس العاملين .

(أتريدون أن تهتدوا من أضل الله؟) أى إنه ليس في استطاعتكم أن تبدلوا سنن الله في نفوس الناس ، فتنالوا منها ضد ما يقتضيه ما ينطبع فيها من الأخلاق والصفات بتأثير ما كسبته طول عمرها من الأعمال .

(ومن يضل الله فلن تجد له سبيلا) أى ومن تقضى سننه في خلقه أن يكون ضالا عن طريق الحق فنن تجد له سبيلا يصل بسواكها إليه، فإن للحق سبيلا واحدة هي صراط الفطرة المستقيم ، وللباطل سبل كثيرة عن يمين سبيل الحق وعن شمالها ، كل من سلك منها سبيلا بعد عن سبيل الحق بقدر إيغاله في السبيل التي سلكها كما قال تعالى « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ » وقد أوضح النبي صلى الله عليه وسلم معنى الآية بالخطوط الحسية ، فخط في الأرض خطا وجعله مثالا لسبيل الله ، وخط على جانبيه خطوطا لسبيل الشيطان ، وهذه الخطوط المستقيمة لا تاتقى مع الأول بحال .

وسبيل الفطرة تقتضى أن يعرض الإنسان جميع أعماله على سنن العقل ويتبع ما يظهر له أنه الحق الذى فيه منفعته عاجلا وآجلا ، وفيه كماله الإنسانى .

وأكثر ما يصدده عن هذه السبيل التقليد والغرور وظنه أنه لبس هناك ماهو أكل مما هو فيه ، وبهذا يقطع على نفسه طريق العقل والنظر والتفكير والضرر والحق والباطل . وشبهته في ترك صراط الفطرة أن عقله قاصر عن التمييز بين الحق والباطل

والخير والشر ، فعليه أن يتبع ما وجد عليه الآباء والأجداد من زعماء عصره ولو كانوا لا يعقلون شيئا ولا يهتدون .

(ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء) أى إن هؤلاء لا يقنعون بما هم عليه من الضلال والغواية بل يطمعون أن تكونوا أمثالهم وتتخذوا حذوهم حتى يقضى على الإسلام الذى أتم عليه ، وهذا منتهى ما يكون من الغلو والتماهى فى الكفر ، حيث لا يكتفون بضلالهم بل يرجون إضلال غيرهم .

(فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله) أى وإذا كانت هذه حالهم فلا تتخذوا منهم أنصارا يساعدونكم على المشركين حتى يؤمنوا ويهاجروا ويتحدوا بكم فإن الصادقين فى إيمانهم لا يدعون النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه عرضة للخطر ولا يتركون الهجرة إلا إذا عجزوا عنها ، وإذا فتركم لها علامة على نفاقهم الذى اختلفتم فيه .

(فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولدا ولا نصيرا) أى فإن أعرضوا عن الهجرة فى سبيل الله ولزموا مواضعهم فى خارج المدينة فخذوهم إذا قدرتم عليهم واقتلوهم أينما وجدتموهم فى الحل والحرم ، ولا تتخذوا منهم ولدا يتولى شيئا من مهام أموركم ولا نصيرا ينصركم على أعدائكم .

وقد استثنى منهم من يؤمن غائتهم بأحد أمرين :

(١) (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق) أى إلا الذين يتصلون

بقوم معاهدين للمسلمين فيدخلون فى عهدهم ويرضون بحكمهم فيمنع قتالهم مثلهم .

(أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاثلوا قومهم) أى أو جاءوكم قد ضاقت صدورهم عن قتالكم وعن قتال قومهم فلا تشرح لأحد الأمرين .

وخلاصة ذلك - أن يجيئوا المسلمين مسلمين لا يقاتلونهم ولا يقاتلون قومهم معهم

بل يكونون على الحياد فهم لا يقاتلون المسلمين حفظا للعهد ولا يقاتلون قومهم لأنهم

قومهم ، وقبول معذرة القر يقين موافق لما بنى عليه الإسلام من التسامح والسماحة وعدم

الاعتداء كما قال « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا » .

(ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم) أى إن الله تعالى رحيم بأن كف بأس

هاتين الفئتين وصرفهم عن قتالكم وقذف الرعب في قلوبهم ، ولو شاء لسطم عليكم : بأن يلهمهم من الآراء ويسوق إليهم من الأخبار ما به يرجحون ذلك فيقتلونكم ولكنه بتوفيقه ونظامه في الأسباب والسببب وسننه في الأفراد والجماعات جعل الناس في ذلك العصر أصنافا ثلاثة :

- (١) سليمو الفطرة الذين حصفت آراؤهم فساروا إلى الإيمان واستناروا بنور الإسلام .
- (٢) المسلمون الذين رجحوا أن يكونوا على الحياد لا مع المشركين ولا مع المؤمنين
- (٣) ملوغلون في الضلال والشرك والمحافظون على القديم وهم الحارثيون .

(فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سيلا) أى فإن اعتزلتكم إحدى هاتين الفئتين ولم تقااكم بل أقلت إليكم السلم وأعطتكم زمام أمرها ، فما جعل الله لكم من سبيل تسلكونها للاعتداء عليها ، إذ من قواعد ديننا ألا نعتدى إلا على من يعتدى علينا ولا نقاتل إلا من قاتلنا .

روى ابن أبي حاتم وابن مردويه عن الحسن أن سراقه بن مالك المدلجى حدثهم قال - لما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل بدر وأسلم من حولهم فال سراقه بغى أنه عليه السلام يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومي من بني مُدَجَجَ فأتيته فقلت أشدك النعمة ، فقالوا له ، فقال دعوه ، ما تريد ؟ قلت بلغنى أنك تريد أن تبعث إلى قومي وأنا أريد أن توادعهم ، فإن أسلم قومك أسلموا . وإن لم يسلموا لم تخش بقاوب قومك عليهم ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد خالد فقال (اذهب معه فافعل ما يريد) فصالحهم خالد على ألا يعينوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن أسامت قرش أسلموا معهم ، ومن وصل إليهم من الناس كان له مثل عهدهم ، فأُتِلَ الله تعالى (ودوا لو تكفرون - حتى بلغ - إلا الذين يصلون) فكان من وصل إليهم كانوا معهم على عهدهم .

وقال الرازى : إن النبي صلى الله عليه وسلم وادع وقت خروجه إلى مكة هلال ابن عويمر الأسلمى على ألا يعينه ولا يعين عليه ، وعلى أن كل من وصل إلى هلال ولجأ إليه فله من الجوار مثل ما لهلال .

(ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم) هؤلاء فريق ممن لم يهتدوا بالإسلام ولم يتصدوا إلى محالدة أهله وقتالهم فكانوا مذبذبين بين المؤمنين والكافرين ، فهم قد غلت عليهم أرواحهم ورخصت عليهم عقولهم ، يظهرون لكل من الفتنين أنهم منهم أو معهم ؛ وقد روى عن مجاهد أن ناسا كانوا يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيسلمون رياء ثم يرجعون إلى قریش فيرتكسون في الأوثان يبتغون بذلك أن يأمنوا هاهنا وهاهنا فأمر بقتالهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا .

(كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها) أى كلما دعوا إلى الشرك (كما روى عن السدى) أركسوا فيه وتحولوا إليه أقبح تحول ، فهم يريدون أن يأمنوا جانب المسلمين إما بإظهار الإسلام وإما بالعهد على السلم وترك القتال ثم يفتنهم المشركون أى يحملونهم على الشرك أو على مساعدتهم على قتل المسلمين فيرتكسون ويتحولون شر التحول معهم ، وهكذا يفعلون ذلك المرة بعد المرة فهم قد مردوا على النفاق .
وقد بين الله حكمهم بقوله :

(فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتموهم) أى فإن لم يعتزلوكم ويتركوكم وشأنكم ويلتزموا الحياد ويلقوا إليكم السلم أى زمام المسامحة على الطريق التى ترونها نافعة لكم ، ويكفوا أيديهم عن القتال مع المشركين أو عن الدسائس -- فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم فلا علاج لهم غير ذلك كما ثبت بالتجارب والاختبار .

(وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا) أى جعلنا لكم عليهم حجة واضحة وبرهانا ظاهرا على قتالهم .

قال الرازى : قال الأكثرون وهذا يدل على أنهم إذا اعتزلوا قتلنا وطلبوا الصلح منا وكفوا أيديهم عن قتالنا لم يجوز لنا قتالهم ولا قتلهم .

ونظيره قوله « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا » إذ خص فيها الأمر بقتال من يقاتلنا دون من لم يقاتلنا .

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً ، وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً
فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا ، فَإِنْ كَانَ
مِنْ قَوْمٍ عَدُوٌّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ
قَوْمٍ يَبْغُونَكُمْ وَيَبْغُونَكُمْ مِثْلَ قُدْيَةٍ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ،
فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا
حَكِيمًا (٩٢) وَمَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ، وَغَضِبَ
اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣)

المعنى الجملى

بعد أن بين الله تعالى أحكام قتال المناققين الذين يظهرون الإسلام خداعا
ويسرون الكفر ويساعدون أهله على قتال المؤمنين ، والذين يعاهدون المسلمين على
السلم ويحالفونهم على الولاء والنصر ، ثم يغدرون ويكونون عوناً لأعدائهم عليهم -
ذكر هنا قتل من لا يحل قتله من المؤمنين والمعاهدين والذميين وما يقع منهم من ذلك
عمداً أو خطأ .

الإيضاح

(وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ) أى ليس من شأن المؤمن ولا من
حُفَّه أن يقتل أحداً من المؤمنين ، إذ الإيمان وهو صاحب السلطان على النفس
والحكم على الإرادة والمصرف لها يمنع أن يجترح هذه الكبيرة عمداً لكنه قد يفعل
ذلك خطأ (والخطأ ما لا يقارنه قصد إلى انفعال أو الشخص أو لا يقصد به زهوق
الروح غالباً) .

ذلك أنه لا يكمل إيمان المؤمن إذا شعر بحقوق الإيمان عليه وهي حقوق لله وحقوق للعباد ، ومن الثانية التقصاص لما في ذلك من الزجر عن القتل ولما في تركه من الاستهزاء بحقوق الدماء ، ومن استهزأ بها كان قد انتهك أكبر حقوق الأمة وهدد ركناً من أركان الإيمان ، يرشد إلى ذلك قوله « مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا » .

وسبب العقوبة على الفعل الخطأ كالقتل أن الخطأ لا يخلو من التهاون وعدم العناية بالاحتياط ، ومثله النسيان ، إذ من شأنهما أن يعاقب الله عليهما ، ومن ثم أمرنا الله تعالى أن ندعوه ألا يؤاخذنا عليهما بقوله « رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَاْنَا » كما ثبت بنص القرآن أن آدم نسي وسميت مخالفته معصية وعوقب عليها لكن ورد في السنة قوله صلى الله عليه وسلم « وضع الله عن هذه الأمة ثلاثاً : الخطأ والنسيان والأمريكرهون عليه » رواه ابن ماجه .

روى ابن جرير في سبب نزول الآية عن عكرمة قال « كان الحرث بن يزيد من بنى عامر بن لؤى يعذب عياش بن أبي ربيعة مع أبي جهل ، ثم خرج الحرث مهاجراً إلى النبي صلى الله عليه وسلم فلقى عياش بالحرّة (من أرياض المدينة) فعلاه بالسيف وهو يحسب أنه كافر ، ثم جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فنزلت الآية فقرأها النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال له : قم فخر » .

(ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة) تحرير الرقبة عتقها من الرق أى ومن قتل مؤمناً خطأ بأن أراد رمى صيد أو غرض فأصاب مؤمناً ، أو ضربه بما لا يقتل عادة كأن صفعه باليد أو ضربه بعصا فمات وهو لم يكن يقصد قتله ، فعليه عتق رقبة من أهل الإيمان ، لأنه لما أعدم نفساً مؤمنة كان كفارته أن يوجد نفساً (والعتق كالإيجاد من عدم) .

(ودية مسلمة إلى أهله) - الدية هي المال الواجب بالجنابة على الحر في النفس أو فيما دونها ويعطى إلى ورثة المقتول عوضاً عن دمه أى وعليه من الجزاء على عتق

الرقبة دية يدفعها إلى أهل المقتول ، وقد بينتها السنة وحددتها على الوجه الذى كان مقبولا عند العرب ، وهى مائة بعير مختلفة فى السن أو قيمتها إذا حصل التراضى بين الدافع والمستحق ، ودية المرأة نصف دية الرجل لأن المنفعة التى تفوت أهل الرجل بفقده أعظم من المنفعة التى تفوت بفقدها .

وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى أهل اليمن كتباً جاء فيه « إن من اعتبط (قتل بغير سبب شرعى) مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود (أى قصاص يقتل به) إلا أن يرضى أولياء المقتول - وإن فى النفس الدية مائة من الإبل - ثم قال وعلى أهل الذهب ألف دينار » وفى هذا دليل على أن دية الإبل على أهلها إذا كانت هى رأس أموالهم ، وأن الذين يتعاملون بالذهب كأهل المدن تكون من الذهب أو الفضة وعلى أن هذا أصل لاقية للإبل .

(إلا أن يصدقوا) أى إن الدية تجب على القاتل قتلاً خطأ لأهل المقتول إلا أن يعفوا عنها ويستطوها باختيارهم ، لأنها إنما وجبت تطيباً لقلوبهم حتى لا تقع عداوة ولا بغضاء بينهم وبين القاتل ، وتعويض عما يفوتهم من المنفعة بقتله ، فإذا هم عفوا فقد طابت نفوسهم وانتفى الحذور وكانوا هم ذوى الفضل على القاتل ، وقد سمي الله هذا العفو تصدقاً ترغيباً فيه .

(فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة) أى فإن كان المقتول من أعدائكم وهو مؤمن كالحارث بن يزيد كان من قريش وهم أعداء النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون فى حرب معهم ولم يعلم المسلمون بإيمانه لأنه لم يهاجر وقد قتله عياش حين خروجه مهاجراً وهو لم يعلم بذلك ، ومثله كل من آمن فى دار الحرب ولم يعلم المسلمون بإيمانه حين قتله - فالواجب على قاتله عتق رقبة من أهل الإيمان فقط ، ولا تجب الدية لأهله لأنهم أعداء يحاربون المسلمين فلا يعطون من أموالهم ما يستعينون به على قتالهم والتنكيل بهم .

(وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق) وهم الذين عاهدوكم على السلم لا يقتلونكم ولا تقاتلونهم كما هو حال الدول في العصر الحاضر يعقد بعضهم معاهدات ومواثيق مع بعض آخر ألا يقتلوه ولا يساعدوا عليهم عدوا .

(فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة) أى فالواجب في قتل المعاهد كالواجب في قتل المؤمن دية إلى أهله تكون عوضا عن حقهم ، وعتق رقبة مؤمنة تكون كفارة عن حق الله الذى حرم قتل المعاهد كما حرم قتل المؤمن ، ولم يعين هذه الدية للإشارة إلى أن للعرف العام والخاص حكمه ولا سيما إذا ذكر ذلك في عقد الميثاق الذى بينهما ، لأن هذا النص يكون أقطع لعرق النزاع وأجدر بالتراضى .

وقد اختلف الفقهاء في دية غير المسلمين لاختلاف الرواية في ذلك ، روى أحمد والترمذى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «عقل (دية) الكافر نصف دية المسلم» وروى عن أحمد «أن ديته كدية المسلم إن قتل عمدا وإلا فنصف ديته» ، وذهب الزهري وأبو حنيفة إلى أن ديته كدية المسلم لظاهر الآية في أهل الميثاق وهم المعاهدون وأهل الذمة ، وعلى الجملة فالروايات متعارضة ومن ثم اختلف فيها الفقهاء .

وظاهر الآية يدل على أن الدية على القاتل ولكن السنة بينت أن العاقلة (العائلة) وهم عصبته الأقربون هم الذين يدفعون الدية .

وحكمة هذا تقرير التضامن بين الأقربين ، وإذا عجزت العاقلة عن دفعها جعلت في بيت المال (وزارة المالية) .

(فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين) أى فمن لم يجد رقبة يعتقها بأن لم يجد مالا يشتريها به من مالها ليحررها من الرق ، أو لم يجد رقيقا (وهذا مقصد من مقاصد الإسلام) فعليه صيام شهرين متتابعين قريبن لا يفصل بين يومين منهما إفطار في النهار ، فإن أفطر يوما غير عذر شرعى استأنفه وكان ماصامه قبل كأن لم يكن . (توبة من الله) أى قد شرعها لكم ليتوب عليكم ويظهر نفوسكم من التهاون وقلة التحري التى تفضى إلى القتل الخطأ .

(وكان الله عليا حكيما) أى وكان الله عليا بأحوال النفوس وما يطهرها ،
حكيما فيما شرعه من الأحكام والآداب التى بها هدايتكم وإرشادكم إلى ما فيه سعادتكم
فى الدنيا والآخرة .

(ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له
عذابا عظيما) خالدا فيها أى ما كثر إلى الأبد أو ما كثر مكثا طويلا ، غضب الله
عليه أى انتقم منه ، لعنه أبغده عن رحمته ، أعد له أى هيا له .
والعلماء فى توبة قاتل المؤمن عمدا راء ثلاثة :

(١) يرى ابن عباس وفريق من السلف أن قاتل المؤمن عمدا لا تقبل له توبة
وهو خالد فى النار أبدا . ويدل على ذلك ما أخرجه أحمد والنسائى عن معاوية قال :
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل
يموت كافرا أو الرجل يقتل مؤمنا متعمدا » ، وأخرج البيهقى عن ابن عمر قال : قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم « من أعان على دم امرئ مسلم بشطر كلمة كتب بين عينيه يوم
القيامة آيس من رحمة الله تعالى » ، وروى عن البراء بن عازب أن النبى صلى الله عليه
وسلم قال « لزوال الدنيا وما فيها أهون عند الله من قتل مؤمن ، ولو أن أهل سمواته وأهل
أرضه اشتروا فى دم مؤمن لأدخبه الله تعالى النار » ، وعن ابن عمر أنه عليه السلام
قال « لو أن الثقلين اجتمعوا على قتل مؤمن لأكبهم الله تعالى على مناخرهم فى النار
وإن الله تعالى حرم الجنة على القاتل والأمر به » .

وهؤلاء يرون أن التائب من الشرك وقد كان قاتلا زانيا تقبل توبته ولا تقبل
توبة المؤمن الذى ارتكب القتل وحده ، إذ الأول لم يؤمن بالشريعة التى تحرم هذه
الأمر فله شبه عذر إذا هو كان متبعا لهواه بالكفر وما يتبعه ولم يكن ظهر له صدق
النبوة ، فلما ظهر له الدليل على أن ما كان عليه كفر وضلال وتاب وأناب وعمل
صالحا كان جديرا بالعفو .

وأما المؤمن الموقن بصحة النبوة وحرمة القتل فلا عذر له ، إذ هو يعلم أن المؤمن أخ له ونصير فكيف يعمد بعد هذا إلى الاستهانة بأمر الله وحكمه وتوهين أمر دينه بهدم أركان قوته ، ومن ثم يهين المسلمون ويضعفون ويكون بأسهم بينهم شديدا . وإنك لترى أنه ما انحلت الرابطة بين المسلمين وانفصمت عروة الوفاق بينهم إلا بعد أن أقدم بعضهم على سفك دماء بعض ورجحوا شهوة الغضب والانتقام على أمر الله تعالى ، ومن رجع شهوات نفسه الضارة على أمر الله وعلى مصلحة المؤمنين بغير شبهة فهم جدير بالخلود في النار والغضب واللعنة ، إذ هؤلاء قد تجرؤوا على حدود دينه ولم يبق للشرع حرمة في قلوبهم .

قال في الكشف — هذه الآية فيها من التهديد والإيعاد والإبراق والإرعاد أمر عظيم وخطب جليل ، ومن ثم روى عن ابن عباس أن توبة قاتل المؤمن عمدا غير مقبولة . . . والعجب من قوم يقرءون هذه الآية ويرون ما فيها ويسمعون هذه الأحاديث (الأحاديث التي تقدم ذكرها) وقول ابن عباس بمنع التوبة ثم لا تدعهم أشعبيتهم وطماعتهم الفارغة واتباعهم هواهم وما يخيّل إليهم من أنهم أن يطمعوا في العفو عن قاتل المؤمن بغير توبة (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها . اهـ) .

(٣) يرى فريق آخر أن المراد بالخلود المكث الطويل لا الدوام لتظاهر النصوص القاطعة بأن عصاة المؤمنين لا يدوم عذابهم ، وما في الآية إخبار من الله بأن جزاءه ذلك ، لا بأنه يجزيه ذلك كما جاء في قوله عز اسمه « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » فإنه لو كان المراد منها أنه سبحانه يجزي كل سيئة بمثلها لعارضه قوله جل شأنه « وَيَعْقُوبُ عَنْ كَثِيرٍ » ومن ثم روى عن النبي صلى الله عليه وسلم مرفوعا أنه قال هو جزاؤه إن جازاه ، وبهذا قال جمع من العلماء وقالوا هو كما يقول الإنسان لمن نزجره عن أمر : إن فعلت فجزاؤك القتل والضرب ، وهو إن لم يجازه لم يكن كذابا ، وقد روى عن ابن عباس جواز المغفرة بلا توبة أيضا ، وقال في الآية هي جزاؤه ، فإن شاء عذبه ، وإن شاء غفر له .

(٣) ويرى فريق ثالث أن حكم الآية إنما هو للقاتل المستحل ، وحكمه مما لا شك فيه ، وعكرمة وابن جريج فسرا متعمدا مستحلا في الآية
أى : ومن يقتل مؤمنا متعمدا لقتله مستحلا له ، فجزاؤه جهنم خالدا فيها أبدا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ذَرَعْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَيَّنُّوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ
أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ
مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ، كَذَلِكَ كُنتُمْ مِنْ قَبْلُ فَنَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ
كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤)

شرح المفردات

الضرب فى الأرض : السير فيها بالسفر للتجارة أو الجهاد ، لأن المسافر يضرب
الأرض برجليه وعصاه أو بقوائم راحته ، فى سبيل الله أى لجهاد أعدائكم ، فتبينوا
أى تثبتوا وتثبتوا ، ألقى إليكم السلام أى انقاد واستسلم لكم فلم يقاتلكم ، عرض الحياة
الدنيا أى متاعها الحاضر الذى يأخذ منه البر والفاجر ، مغانم كثيرة أى رزق
وفضل كثير .

المعنى الجملى

بعد أن بين الله تعالى فى الآيات السابقة أنه ليس من شأن المؤمن أن يقتل مؤمنا
إلا على سبيل الخطأ ، وأن من قتل مؤمنا متعمدا فلا جزاء له إلا جهنم خالدا فيها أبدا .
أراد هنا أن ينبه المؤمنين إلى ضرب من ضروب قتل الخطأ كان يحصل فى ذلك
العهد عند السفر إلى أرض المشركين حين انتشر الإسلام ولم يبق مكان فى بلاد
العرب وقبائلهم يخلو من المسلمين أو ممن يميل إلى الإسلام ويتجنبون الفرص للاتصال

بأهله ، فأعلمهم ألا يحسبوا كل من يجدونه في دار الكفر كافرا ، وأن يتبينوا من تظهر عليهم علامات الإسلام كالشهادة والسلام الذي هو تحية المؤمنين ، وألا يحملوا مثل هذا على الخداع ، إذ ربما يكون الإيمان قد طاف على هذه القلوب وألمّ بها إن لم يكن قد تمكن فيها ، ومن ثم أمر بالثبوت ونهى عن إنكار إسلام من يدعى الإسلام ولو بإلقاء تحيته ، فما بالك بمن ينطق بالشهادتين ، وأبان أن الذي يدعوه إلى ظن هذا الظن إنما هو ابتغاء عرض الحياة الدنيا ، وبهذا أرشد المؤمن إلى أن يتهم نفسه ويفتش عن قلبه ولا يبنى الظن على ميله وهواه ، بل عليه أن يتقبل الظاهر حتى يستبين له خلافه .

وفي سبب نزول هذه الآية روايات كثيرة : منها ما أخرجه البخاري والترمذي والحاكم وغيرهم عن ابن عباس قال « مر رجل من بنى سليم بنغر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وهو يسوق غنما له فسلم عليهم ، فقالوا ما سلم علينا إلا ليتعوذ منا ، فعمدوا إليه فقتلوه وأتوا بغنمه النبي صلى الله عليه وسلم فزلت الآية » .

وأخرج أحمد والطبراني وغيرهما عن عبد الله بن أبي حذرد الأسلمي قال : « بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة ومُحَلَّم بن جثامة ، فر بنا عامر بن الأضبط الأشجعي فسلم علينا فحمل عليه محمل فقتله ، فلما قدمنا على النبي صلى الله عليه وسلم وأخبرناه الخبر نزل فينا القرآن (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله) الآية » . وأخرج البزار من وجه آخر عن ابن عباس قال : « بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية فيها المقداد ، فلما أتوا القوم وجدوهم قد تفرقوا وبقي رجل له مال كثير فقال أشهد أن لا إله إلا الله ، فقتله المقداد فقال له النبي صلى الله عليه وسلم كيف لك بلا إله إلا الله غدا ؟ وأنزل الله هذه الآية » .

ولا مانع من تعدد الوقائع قبل نزول الآية وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرؤها على أصحاب كل واقعة فيرون أنهم سبب نزولها .

الإيضاح

(يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا) أى يا أيها الذين صدقوا الله وصدقوا رسوله واتبعوا الأوامر وتركوا النواهي ، إذا سرتهم للغزو وجهاد الأعداء رفعة لدينه وإعلاء لكلمته تأثروا في قتل من اشتبه عليكم أمره فلم تعلموا أم مسلم هو أم كافر ؟ ولا تعجلوا في قتل أحد إلا إذا علمتم يقينا أنه حرب لكم والله والرسول .

(ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا) أى ولا تقولوا لمن انقاد لكم واستسلم ولم يقاتلكم وأظهر أنه من أهل ملتكم - إنك لست بمؤمن حقا فتفتنوه ابتغاء متاع الدنيا وحطامها الزائل السريع التحول والانتقال فعند الله أرزاق كثيرة ونعم لا تحصى ولا تعد ، يغممكموها فيغنيكم إذا شاء .

(كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم) أى إنكم أول ما دخلتم في الإسلام حققت دماؤكم وأموالكم بالنطق بكلمة الشهادة من غير انتظار لمعرفة أن ما في القلب موافق لما في اللسان ، ومن الله عليكم بذلك ، فعليكم أن تعملوا مع الداخلين في الإسلام كما عمل معكم وأن تعتبروا بظاهر القول ولا تقولوا إن إقدامهم على التكلم بهذه الكلمة إنما كان لأجل الخوف من السيف .

(فتبينوا) أى كونوا على بينة من الأمر الذي تقدمون عليه ولا تأخذوا بالظن ، بل تدبروا ليظهر لكم أن الإيمان العاصم من حقن الدماء يكفي فيه ظاهر الحال كما كفى معكم من قبل ، وفي إعادة التبيين مرة أخرى المبالغة في التحذير من ذلك الفعل والوعيد عليه .

(إن الله كان بما تعملون خبيرا) أى إنه تعالى خبير بأعمالكم لا يخفى عليه شئ من البواعث التي حفزتكم على الفعل ، فإن كانت ابتغاء حظ الحياة الدنيا فهو يجازيكم على ذلك فلا تفعلوا بل تثبتوا وتبينوا ، وإن كان محض الدفاع عن الحق فهو مشيكم على ذلك ، وفي هذا وعيد وتحذير شديد من الوقوع في مثل هذا الخطأ .

وكذلك فيه إرشاد إلى ألا تحكم بتكفير من يخالفنا من أهل القبلة والعلم الصحيح والدعوة إلى كتاب الله وسنة رسوله بمجرد المخالفة لنا في رأى أو عقيدة ، فإن مثل هذا لا يقدم عليه المسلم جزافا .

وعاينا أن ننظر بعد هذا كله إلى أن الإسلام منع قتل من يلقى السلم ومن بينه وبين المسلمين عهد وميثاق إما على النصر وإما على ترك القتال ، ورغب عن ابتغاء عرض الدنيا بالقتال ، ليكون لحض رفع العدوان والبغى ونترير الحق والإصلاح . وأين هذا مما تفعله الدول الآن من القتال للربح وجمع الأموال وهم ينقضون العهد والميثاق مع الضعفاء ولا يلتزمون حفظ المعاهدات إلا مع الأقوياء؟.

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ، وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ، وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٦)

شرح المفردات

الضرر: المرض والعلل التي يعجز صاحبها معها عن الجهاد كالعمى والعرج ، المثوبة الحسنَى : هى الجنة .

المعنى الجملى

بعد أن عاتب الله المؤمنين على ما صدر منهم من قتل من تكلم بالشهادة - ذكر فضيلة الجهاد وأن من نصب نفسه له فقد فاز فوزا عظيما فعليه أن يحتزم من الوقوع في لهفوات التى تخل بهذا المنصب العظيم .

روى أن الآية نزلت فى كعب بن مالك من بنى سلمة ومسارة بن الربيع من بنى عمرو بن عوف والربيع وهلال بن أمية من بنى واقف حين تخلفوا عن رسول الله فى غزوة بدر .

الإيضاح

(لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم) أى لا يكون القاعدون عن الجهاد بأموالهم بخلاؤها وحرصا عليها ، وبأنفسهم إشارا للراحة والنعيم على التعب وركوب الأخطار - مساوين للمجاهدين الذين يبذلون أموالهم فى الاستعداد للجهاد بالسلاح والخيال والمثونة ، ويبذلون أنفسهم بتعريضها للقتل فى سبيل الحق ومنع تعدى حزب الطاغوت ، لأن المجاهدين هم الذين يحمون الأمة والبلاد ، والقاعدين لا يأخذون حذرهم ولا يعدون عدتهم للدفاع ويكونون عرضة لتعدى غيرهم عليهم كما قال تعالى « وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ » أى بغلبة أهل الطاغوت عليها ، ولكن النكوص عن الجهاد لا يكون مذمة وبخلا إلا مع القدرة ، أما مع العجز والضرر كالعمى والزمانة والمرض فلا تبعة فيه حينئذ .

ثم بين ما أجمله أولا من التفاضل الذى بين الفريقين وعدم تساويهما فقال : (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة) أى إن الله تعالى رفع المجاهدين على القاعدين درجة لا يقدر قدرها ولا يدرك كنهها ، وهى ما خولهم الله عاجلا فى الدنيا من الغنيمة والظفر والذكر الجميل ودفع شر الأعداء عن الأمة والبلاد (وكلا وعد الله الحسنى) أى ووعد الله كلا ممن جاهد وقعد عن الجهاد عجزا منه مع تمنى القدرة عليه المثوبة الحسنى وهى الجنة ، فكل منهما كامل الإيمان مخلص لله فى العمل .

(وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما) أى وفضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين من غير أولى الضرر أجرا عظيما .

(درجات منه ومغفرة ورحمة) هذا بيان للأجر العظيم ، وتلك الدرجات هي ما ادخره الله لعباده من المنازل الرفيعة التى يقصر الحصر عن عددها كما قال تعالى : « انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآ خِرَةَ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا » ودرجات الآخرة مبنية على درجات الدنيا من قوة الإيمان بالله وإيثار رضاه على الراحة والنعيم وترجيح المصلحة العامة على الشهوات الخاصة .

والمغفرة المقرونة بهذه الدرجات هي المغفرة لما يفرط منهم من الذنوب التى لا تكفرها سائر الحسنات التى يأتى بها القاعدون .

والرحمة هي ما يخصهم به الرحمن زيادة على ذلك من فضله وإحسانه ، وقد صح من حديث أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من غزوة تبوك ودنا من المدينة قال « إن فى المدينة لأقواما ما سرتهم من مسير ولا قطعهم من واد إلا كانوا معكم فيه قالوا يارسول الله وهم بالمدينة ؟ قال نعم وهم بالمدينة حبسهم العذر » .
(وكان الله غفورا رحيمًا) أى وكان شأن الله وصفته الغفران لمن يستحق المغفرة والرحمة لمن يؤتيه ذلك تفضيلا منه وإحسانا .

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ؟ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ، قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً قَتَلْتُمْ حُرًّا فِيهَا ، فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩)

وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافِقًا كَثِيرًا وَسَعَةً ، وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٠)

شرح المفردات

توفى الشئ : أخذه وافيا تاما ، وتوفى الملائكة للناس : قبض أرواحهم حين الموت ، والمأوى : المسكن ، مراغما : مكانا للهجرة ومأوى يصيب فيه الخير والسعة فيرغم بذلك أنوفهم ، وقع أجره على الله أى وجب ، والوقوع والوجوب يتواردان على معنى واحد .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآية السانفة فضل المجاهدين فى سبيل الله على القاعدين بغير عجز - ذكر حال قوم أخذوا إلى السكون وقعدوا عن نصره الدين ، وعذروا أنفسهم بأنهم فى أرض الكفر حيث اضطهدهم الكافرون ومنعواهم من إقامة الحق وهم عاجزون عن مقاومتهم ، ولكنهم فى الحقيقة غير معذورين ، لأنه كان يجب عليهم الهجرة إلى المؤمنين الذين يعتزون بهم ، إذ هم بحجمهم لبلادهم وإخلاصهم إلى أرضهم وسكونهم إلى أهلهم ومعارفهم ضعفاء فى الحق لامستضعفون ، وهم بضعفهم هذا قد حرموا أنفسهم بترك الهجرة من خير الدنيا مما أفاء الله به على المؤمنين ، ومن خير الآخرة بإقامة الحق وإعلاء كلمة الدين .

وظلمهم لأنفسهم : هو تركهم العمل بالحق خوفا من الأذى وقد الكرامة عند ذوى قرابتهم من المبطلين .

وهذا الاعتذار وما أشبهه مما يعتذر به الذين سايروا أهل البدع على بدعهم فى عصرنا الحاضر بحجة دفع الأذى عن أنفسهم بمداواة المبطلين ، وذلك عذر لا يعتد

به ، إذ الواجب عليهم إقامة الحق مع احتمال الأذى في سبيل الله ، أو الهجرة إلى حيث يتمكنون من إقامة دينهم .

أخرج ابن المنذر وابن جرير عن ابن عباس قال « إن سبب نزول الآية أن قوما من أهل مكة قد أسلموا وكانوا يخفون الإسلام فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر فأصيب بعضهم فقال المسلمون هؤلاء كانوا مساهين فأكرهوا فاستغفروا لهم فنزلت الآية فكتبوا بها إلى من بقي بمكة منهم وأنه لا عذر لهم فخرجوا فلحق بهم المشركون ففتنهم فرجعوا فنزلت « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ » فكتب إليهم المسلمون بذلك فتنحزوا فنزلت « ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا » الآية فكتبوا إليهم بذلك فخرجوا فلحقهم فنجوا من نجا وقتل من قتل .

الإيضاح

(إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم) أى إن الذين توفاهم الملائكة وتقبض أرواحهم حين انتهاء آجالهم حالة كونهم ظالمى أنفسهم برضاهم بالإقامة في دار الذل والظلم حيث لاحرية لهم في أعمالهم الدينية ولا يتمكنون من إقامة دينهم ونصره وتأييده .

(قالوا فيم كنتم؟) أى تقول لهم الملائكة بعد توفيقها لهم في أى شئ كنتم من أمر دينكم؟ أى إنهم لم يكونوا في شئ منه ، إذ هم قدروا على الهجرة ولم يهاجروا .
(قالوا كنا مستضعفين في الأرض) هذا اعتذار عن تقصيرهم الذى وبخوا عليه .
أى إننا لم نستطع أن نكون في شئ يعتد به من أمر ديننا لاستضعاف الكفار لنا فعجزنا عن القيام بواجبات الدين بين أهل مكة ، وهذه حجة لم تقبلها الملائكة ومن ثم ردوا عليهم المذرة فقالوا لهم :

(ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟) ورحلوا إلى قطر آخر من الأرض

تقدرون فيه على إقامة الدين وتحرروا أنفسكم من رق الذل الذى لا يليق بالمؤمن ، ولا هو من خصاله .

(فأولئك مأواهم جهنم) أى إن أولئك الذين فصلت حلهم القطيعة نسكنهم فى الآخرة جهنم لتركهم ما كان مفروضا عليهم ؛ إذ كانت الهجرة واجبة فى صدر الإسلام .

(وساءت مصيرا) أى وقبحت جهنم مصيرا لهم لأن كل ما فيها يسوءهم ، وفى هذا إيحاء إلى أن الرجل إذا كان فى بلد لا يتمكن فيه من إقامة دينه كما يجب لبعض الأسباب ، أو علم أنه فى غير بلده أقوم بحق الله وأدوم على العبادة وجبت عليه الهجرة . أما المقيم فى دار الكفر ولا يمنع ولا يؤذى إذا هو عمل بدينه وأقام أحكامه بلا تكبير فلا يجب عليه أن يهاجر . كما هو مشاهد من المسلمين المقيمين فى بلاد الإنجليز الآن ، إلى أن الإقامة فيها ربما كانت سببا من أسباب ظهور محاسن الإسلام وإقبال الناس عليه .

(إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان) أى إن أولئك الذين اعتذروا عن عدم إقامة دينهم وعدم الفرار به هجرة إلى الله ورسوله غير صادقين فى اعتذارهم . أما الاستضعاف الحقيقي فهو عذر مقبول كأولئك الشيوخ الضعفاء والعجزة كعيش ابن أبى ربيعة وسلمة بن هشام ، والنساء كأم الفضل أم عبد الله بن عباس ، والولدان كعبد الله المذكور وغيره .

(لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا) أى إنهم قد ضاقت بهم الحيل فلم يستطيعوا ركوب واحدة منها ، وعييت عليهم الطرق فلم يهتدوا طريقا منها ، إما للعجز كمرض وزمانة ، وإما للفقر ، وإما للجهل بمسالك الأرض ومضايقها بحيث لو خرجوا هلكوا كما قالوا فى أمثالهم (قتلت أرض جاهليا) وقد أثر عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : كنت أنا وأخى من المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون إلى الهجرة سبيلا ، والمراد بالولدان هنا المراهقون الذين تربوا من البوغ وعقلوا ما يعقل

الرجال والنساء فيلحقون بهم في التكليف بوجوب الهجرة معهم ، أو أن تكليفهم هو تكليف أوليائهم بإخراجهم من ديار الكفر .

(فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم) أى إن أولئك المستضعفين الذين لم يهاجروا للعجز وتقطع الأسباب يرجى أن يعفو الله عنهم ولا يؤاخذهم بالإقامة في دار الكفر . وفى هذا إيماء إلى أن العفو مضموع فيه غير مجزوم به ، وإلى أن أمر الهجرة مشدد فيه ولو باستعمال الحيل والبحث عن مضائق السبل ، وبذا لا يخدع أحد ممن يحب وطنه نفسه فيعد ما ليس بمانع مانعا .

وهذا الرجاء الذى تفيدته (عسى) بالنسبة إلى الخطاب ، أو أنها هنا للتهيئة والإعداد أى إنه تعالى يعدهم ويهيئهم لعفوه ، وفى هذا رمز إلى تعظيم أمر الهجرة ، وإلى أن تركها جرم عظيم ، وإلى أنه ينبغى أن يترصدها الفرصة السانحة ويعاق قلبه بها . (وكان الله عفوا غفورا) أى وكان شأن الله تعالى العفو عن الذنوب التى لها أضرار صحيحة بعدم المؤاخذه عليها ، ومغفرتها بسترها وعدم فضيحة صاحبها فى الآخرة .

(ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة) جاء هذا للترغيب فى أمر الهجرة وتنشيط المستضعفين ، إذ العادة جرت بأن الإنسان يتهيب الأمر المخالف لما اعتاد وأنس ، ويتخيل مصاعب ومشقات لا توجد إلا فى خياله ، وأن ما يتصوره بعض الناس من عسر الهجرة لا محل له وأن عسرها إلى يسر .

أى إن من يهاجر فى سبيل الله أى لقصد رضاه وإقامة دينه كما يجب وكما يحب الله تعالى ، يجد فى الأرض سبيلا يرغم به أنوف من كانوا مستضعفين له ، ومأوى نصيب فيه الخير والسعة فوق النجاة من الاضطهاد والذل .

وفى هذا وعد للمهاجرين فى سبيله بتسهيل سبل العيش لهم وإرغامهم أعداءهم والظفر بهم .

(ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره

على الله) بعد أن وعد سبحانه من يهاجر بالظفر بما يحب ، من وجدان السبل ميسورة أمامه ، ومن سعة العيش - وعد من يموت في الطريق قبل وصوله دار الهجرة بالأجر العظيم الذى ضمنه له عز وجل إذا كان يقصد بهجرته رضا الله ونصرة رسوله فى حياته وإقامة سنته بعد وفاته وكان مستحقا لهذا الأجر ولو مات بعد أن تجاوز عتبة الباب ولو لم يصب تعباً ولا مشقة ، فإن نية الهجرة مع الإخلاص كافية لاستحقاقه له كما فى الحديث « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » .

وفى إيهام هذا الأجر وجعله حقاً واجباً عليه تعالى إيدان بعظم قدره وتأكيد ثبوته ووجوبه ، والله تعالى أن يوجب على نفسه ما يشاء ، وليس لغيره أن يوجب عليه شيئاً ، إذ لا سلطان فوق سلطانه .

وما أعظم الفارق بين هذا الوعد المؤكد وبين وعد تاركى الهجرة لضعف أو عجز بأنهم محل رجاء وطمع عند الله .

(وكان الله غفورا رحيما) أى وكان شأن الله الغفران أزلاً وأبداً لأمثال هؤلاء المهاجرين الذين دعاهم إيمانهم لترك أوطانهم لإقامة دينه واتباع سبيله ، والرحمة الشاملة لهم بعظمته وإحسانه .

روى ابن جرير عن ابن جبير « أنها نزلت فى جُنْدُب بن ضمرة وكان بلغه قوله تعالى - إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم - الآية وهو بمكة حين بعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مسامها فقال لبنية احملىنى فإنى لست من المستضعفين وإنى لأهتدى إلى الطريق وإنى لأبئت الليلة بمكة فحملوه على سرير وتوجهوا به إلى المدينة ، وكان شيخا كبيرا فمات بالتنعيم (موضع قرب المدينة) ولما أدركه الموت أخذ يصفق يمينه على شماله ويقول اللهم هذه لك وهذه لرسولك صلى الله عليه وسلم أباعك على ما بايع عليه رسولك ، ولما بلغ خبر موته الصحابة رضى الله عنهم قالوا لبنية مات بالمدينة فنزلت » وروى غير ذلك .

وقد ذكر غير واحد من العلماء أن من سار لأمر فيه ثواب كطاب علم وحب

وكسب حلال ومات قبل الوصول إلى المقصد فله هذا الحكم ، أخرج البيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من خرج حاجا فمات كتب له أجر الحاج إلى يوم القيامة ، ومن خرج معتمرا فمات كتب له أجر المعتمر إلى يوم القيامة ، ومن خرج غازيا في سبيل الله فمات كتب له أجر الغازي إلى يوم القيامة » .

السبب في شرع الهجرة في صدر الإسلام

شرعت الهجرة في صدر الإسلام لأسباب ثلاثة تتعلق بحال الفرد وحال الجماعة:

(١) البعد عن الاضطهاد في أمور الدين بإقامة شعائره بحيث يكون المسلم حرا في تصرفه كما يعتقد ، فكل شخص يظن أنه ربما يفتن عن دينه أو يكون ممنوعا من إقامته ، يجب عليه أن يهاجر منه إلى مكان لا يخطر فيه على نفسه ولا على دينه ، فإن لم يفعل ذلك فقد ارتكب إثما كبيرا وحمل وزرا عظيما .

(٢) تلقى الدين والتفقه فيه وقد كان ذلك في عصر النبي صلى الله عليه وسلم حين كان إرسال الدعاة والمرشدين من قبله متعذرا لتصدى المشركين لهم وحرمانهم من أداء وظائفهم لما لهم من القوة والبطش ، وهكذا الحكم في كل من يقيم ببلد ليس فيه علماء يقيمون أحكام الدين ، عليه أن يهاجر إلى بلد يتلقى فيه أمور دينه وأحكام شريعته .

(٣) أنه يجب على جماعة المسلمين أن تكون لهم دولة قوية تنشر دعوة الإسلام وتقيم أحكامه وحدوده وتحمي دعاته وأهله من عدوان العادين ، فإذا خيف على هذه الدولة من غارة الأعداء وجب على المسلمين أينما كانوا أن يشدوا أزرها حتى تقوى وتقوم بما يجب عليها ، مهما بعدت دارهم وشط مزارهم ، وإلا كانوا راضين بضعفها ومعيين لأعداء الإسلام على إبطال الدعوة وتشريد الدعاة .

وقد كانت هذه الأسباب موفورة قبل فتح مكة ، فلما يسر الله فتحها وقوى الإسلام على الشرك في جزيرة العرب كلها ودخل الناس في دين الله أفواجا وأرسل

النبي صلى الله عليه وسلم إلى أطراف الجزيرة وغيرها من يعلم الناس شرائع الإسلام زالت هذه الأسباب ، وقد روى ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا » رواه أحمد والشيخان ؛ وإذا وجد أحد الأسباب الثلاثة المتقدمة فى أى عصر وجبت الهجرة ، وأهمها اعتداء الكفار على بلاد المسلمين وخوف استيلائهم عليها .

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِكَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا ، إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا (١٠١) وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكُمْ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ ، فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ ، وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكُمْ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ، وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٠٢) فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ، فَإِذَا اصْمَأْذَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا (١٠٣)

شرح المفردات

ضربتم فى الأرض أى سافرتم فيها . لأن المسافر يضرب الأرض برجله وعصاه أو بقوائم راحلته ، والقصر بالفتح من القصر (كنب) ضد الطول ، وقصرت الشئ :

جعلته قصيرا ، والجناح : التضييق من جُنِحَ البعير إذا انكسرت جوانحه (أضلاعه)
لثقل حمله ، يفتنكم : يؤذونكم بقتل أو غيره ، إقامة الصلاة : الذكر الذي يدعى به للدخول
فيها ، والأسلحة : واحدها سلاح وهو كل ما يقاتل به كالسيف والخنجر والمسدس
والبنديقية من أسلحة العصر الحاضر ، قضيت الصلاة أى أديتها ، فأقيموا الصلاة أى
اثبتوها مقومة تامة الأركان والشروط ، كتابا موقوتا : فرضا منجيا فى أوقات محدودة
لا بد من أدائها فيها .

المعنى الجملى

كان الكلام فى سابق الآيات فى الجهاد والحث عليه لإقامة الدين وحفظه
وإيجاب الهجرة لأجل ذلك وتوبيخ من لم يهاجر من أرض لا يقدر على إقامة دينه
فيها ، والجهاد يستلزم السفر ، وذكر هنا أحكام من سافر للجهاد أو هاجر فى سبيل الله
إذا أراد الصلاة وخاف أن يفتن عنها ، فبين أنه يجوز له أن يقصر منها وأن يصلى
جماعتها بالطريقة التى ذكرت فى الآية الثانية من هذه الآيات .

الإيضاح

(وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم
أن يفتنكم الذين كفروا) أى إذا سافرتم أى سفر فليس عليكم تضييق ولا ميل عن
محبة الدين إذا قصرتم الصلاة أى تركتم شيئا منها فتكون قصيرة ، بشرط أن تخافوا
فتنة الكافرين لكم بالقتل أو الأسر أو غيرها ، وليس هذا خاصا بزمان الحرب بل إذا
خاف المصلى قطاع الطريق كان له أن يقصر هذا القصر ، وليس هذا هو قصر الصلاة
الرابعة فى السفر المبين فى كتب الفقه ، إذ هذا مأخوذ من السنة المتواترة بل المراد
هنا القصر فى صلاة الخوف المذكور فى الآية الأولى والمبين فى الآية التى بعدها
وفى سورة البقرة بقوله تعالى « فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَاتًا » .

فالأية التى هنا بصدد القصر من عدد الركعات بأن تصلى طائفة مع الإمام ركعة

واحدة فإذا أتمتها تأتى الطائفة الأخرى وهى التى كانت تحرس الأولى فتصلى معه الركعة الثانية ، وآية البقرة فى القصر من هيئة الصلاة بالترخيص فى عدم إقامة صورتها ، بأن يكتفى المشاة والركبان بالإيماء عن الركوع والسجود .

صلاة القصر فى السفر وشرطها

كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى الظهر والعصر والعشاء فى السفر ركعتين ركعتين ، وكذلك فعل أبو بكر وعمر وسائر الصحابة ، فى صحيح البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان فى السفر لا يزيد على ركعتين ، وأبا بكر وعمر وعثمان - يعنى فى صدر خلافته وإلا فعثمان قد أتم فى آخر خلافته وكان ذلك أحد الأسباب التى أنكرت عليه ، وقد خرّج لفعله تأويلات اه .

قال ابن القيم وأحسن ما اعتذر به عن عثمان أنه قد تزوج بمنى والمسافر إذا أقام فى موضع وتزوج فيه أتم صلاته فيه وهو قول الحنفية والمالكية .
وقد روى الشيخان عن عائشة قالت «فرضت الصلاة ركعتين ركعتين فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة زيد فى صلاة الحضر وأقرت صلاة السفر» .
وقال عمر بن الخطاب : صلاة السفر ركعتان والجمعة ركعتان والعيد ركعتان تمام غير قصر على لسان محمد صلى الله عليه وسلم وقد خاب من افترى ، وكان قد سأل النبى صلى الله عليه وسلم ما بالنا نقصر؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته » .

وقال أمية بن خالد لعبد الله بن عمر : إنا نجد صلاة الحضر وصلاة الخوف فى القرآن ولا نجد صلاة السفر فى القرآن (يعنى صلاة الرباعية ركعتين) فقال له ابن عمر: يا أخى إن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم ولا نعلم شيئا فإنما نفعل كما رأينا محمدا صلى الله عليه وسلم يفعل .

فالحق ما عليه الحنفية وغيرهم من وجوب القصر في السفر خلافا للشافعية الذين أجازوا الإتمام .

وشرط القصر في الصلاة والإفطار في رمضان أن يكون السفر مسيرة ثلاثة أيام ولياليها بسير الإبل ومشى الأقدام بالاعتقاد في البر وجرى السفينة والريج معتدلة في البحر ، لحديث أنس أنه قال حين سئل عن قصر الصلاة « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج مسيرة ثلاثة أيام أو ثلاثة فراسخ صلى ركعتين » رواه أحمد ومسلم وأبو داود ، وقدره الشافعي بمسيرة يومين . وحقق المرحوم أحمد الحسيني بك في كتابه [دليل المسافر] أن هذه المسافة تقدر بنحو ٨١ كم عند الحنفية ، وبنحو ٨٩ كم لدى الشافعية والمالكية والحنابلة ، وعلى هذا فالمسافر من القاهرة إلى طنطا فافوقها يقصر الصلاة عند الحنفية لأن المسافة بينهما ٨٧ كم وإلى المحطة التي تليها (شبرا الخيمة) لدى المذاهب الثلاثة لأن المسافة بينهما ٩٣ كم .

كيفية صلاة الخوف في القرآن والسنة

(وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم) هذا بيان لما قبله من النص المجلد الوارد في مشروعية القصر وبيان كفيته عند الضرورة ، وذكر هذا البيان في القرآن واكتفى فيما عداه بالبيان بطريق السنة لمزيد الحاجة إليه لما فيه من كثرة التغير عن الهيئة الأصلية .

أى وإذا كنت أيها الرسول في جماعتك من المؤمنين وأردت أن تقيم بهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك بعد أن تجمعهم طائفتين ولتقف الطائفة الأخرى بإزاء العدو يحرسون المصلين خوفا من الاعتداء ، وليحمل الذين يقومون معك في الصلاة أسلحتهم ولا يدعوها وقت الصلاة لئلا يضطروا إلى المكافأة عقبها مباشرة أو قبل إتمامها فيكونوا مستعدين لها .

(فإذا سجدوا فليكونوا من وراءكم) أى فإذا سجد الذين يقومون معك في الصلاة فليكن الذين يحرسونكم من خلفكم ، إذ أحوج ما يكون المصلى للحراسة حين السجود لأنه لا يرى من يهجم به .

وينجب حينئذ أن يكون الباقيون مستعدين للقيام مقامهم والصلاة مع النبي صلى الله عليه وسلم كما صلوا ، وهو قوله :

(ولثلاث طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم)
 أى ولثلاث الطائفة الأخرى الذين لم يصلوا لاشتغالهم بالحراسة فليصلوا كما صلت
 الطائفة الأولى وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم في الصلاة كما فعل الذين من قبلهم .

وحكمة الأمر بالحذر للطائفة الثانية أن العدو كلما يتنبه أول الصلاة لبدء المسلمين فيها إذ هو إذا رآهم صفا ظن أنهم قد اصطفوا للقتال واستعدوا للحرب والنزال ، فإذا رآهم سجدوا عم أنهم في صلاة ، فيخشى أن يميل على الطائفة الأخرى عند قيامها في الصلاة كما يترصد ذلك بهم عند كل غفلة .

وقد بين الله تعالى علة الأمر بأخذ الحذر والسلاح حتى في الصلاة بقوله :
 (ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة)
 أى متى أعداؤكم الذين كفروا بالله وبما أنزل عليكم لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم
 التى بها بلاغكم في سفركم بأن تشغلكم صلاتكم عنها فيميلون حينئذ عليكم ويحملون
 حملة واحدة وأنتم مشغولون بالصلاة واضعون السلاح تاركون حماية المتاع والزاد
 فيصيبون منكم غيرة فيقتلون من استطاعوا قتله وينتهبون ما استطاعوا نهبه
 فلا تغفلوا عنهم .

وقد يعرض لبعض المحاربين أعذار يشق فيها حمل السلاح ومن ثم رخص
 في تركه لصاحب العذر قتال :

(ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم
 وخذوا حذركم) أى ولا إثم عليكم في وضع أسلحتكم إذا أصابكم أذى من مطر
 تمطره فيشق عليكم حمل السلاح مع ثقله في ثيابكم ، وربما أفسد الماء السلاح إذ يجعله
 يصدأ ، أو إذا كنتم مرضى بالجراح أو غير الجراح من العلل ، ولكن يجب عليكم
 في جميع الأحوال أن تأخذوا حذركم ولا تغفلوا عن أنفسكم ولا عن أسلحتكم وأمتعتكم
 فإن عدوكم لا يغفل عنكم ولا يرحمكم ، والضرورات تقدر بقدرها .

(إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا) بما هداكم إليه من أسباب النصر بأخذ الأهبة والحذر والاعتصام بالصبر والصلاة رجاء ما عند الله من المثوبة والأجر .

فهذا العذاب المهين هو عذاب غلب المسلمين وانتصارهم عليهم إذا قاموا بما أمرهم الله تعالى به ، ويؤيده قوله تعالى : « إِنَّهُمْ يَأْمُرُونَ كَمَا تَأْمُرُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ » وقوله « قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرُّكُمْ عَلَيْهِمْ »

روى البخارى أن هذه الرخصة التى فى الآية نزلت فى عبد الرحمن بن عوف وكان جريحا ، وروى أحمد والحاكم والبيهقى عن ابن عياش الزرقى قال « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عُسْفَانَ فاستقبلنا المشركون وعليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة فصلى بنا النبي صلى الله عليه وسلم الظهر فقاتلوا قد كانوا على حال لو أصبنا غربتهم ، ثم قالوا يأتى عليهم الآن صلاة هى أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم فنزل جبريل بين الظهر والعصر بهذه الآيات (وإذا كنت فيهم فأنت لهم الصلاة) » الحديث ، وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم يوم ذات الرقاع « أن طائفة صفت مع النبي صلى الله عليه وسلم وطائفة وجاه العدو (اتجأه مراقبة له) فصلى بالتي معه ركعة ثم ثبت قائما فأتوا لأنفسهم ثم انصرفوا وجاه العدو ، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة الثانية التى بقيت من صلاته فأتوا فسلم بهم » وسميت هذه الغزوة ذات الرقاع لأنها نقتب أقدامهم فلفوا على أرجلهم الرقاع والخرق .

وقد قال بهذه الصلاة أئمة الصحابة عليهم الرضوان على وابن عباس وابن مسعود وابن عمر وزيد بن ثابت وأبو هريرة وأبو موسى ، ومن فقهاء الأمصار مالك والشافعى وغيرهما .

(فإذا قضيت الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم) أى فإذا أدبتم الصلاة على هذه الصورة فاذكروا الله تعالى فى أنفسكم بتذكروا وعده بنصرته فى الدنيا ونيل الثواب فى الآخرة ، وبأسنتكم بالحمد والتكبير والدعاء وعلى كل حال تكونون عليها من قيام فى المسابقة والمقارعة ، وقعود للرعى أو المصارعة ، واضطجاع

من الجراح أو الحداعة ، فذكر الله مما يقوى القلوب ويعلى الهمم ويجعل متاعب الدنيا حقيرة ومشاقها سهلة ، والثبات والصبر يعقبهما الفلاح والنصر كما قال تعالى في سورة الأنفال «إِذَا تَقِيتُمْ فِئَةً فَأْتِبْتُوا وَادَّ كُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا أَلَّكُمْ تُفْحُونَ»
والخلاصة أننا أمرنا بالذكور على كل حال نكون عليها في الحرب كما يدل على ذلك السياق ، فأجدر بأن نؤمر به في حال السلم ، إلى أن المؤمنين في جهاد مستمر وحروب دائمة ، فهم تارة يجاهدون الأعداء ، وأخرى يجاهدون الأهواء ، ومن ثم أمرهم الله بالذكور في كثير من الآي كقوله «الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ» لما في ذلك من تربية النفس وصفاء الروح وتذكور جلال الله وعظمته وأن كل شيء هين في سبيله وابتغاء مرضاته .

وقد روى ابن جرير عن ابن عباس أنه قال : لا يفرض الله على عباده فريضة إلا جعل لها جزاء معلوما ، ثم عذر أهلها في حال العذر ، غير الذكور فإن الله لم يجعل له حدا ينتهي إليه ولم يعذر أحدا في تركه ، إلا مغلوبا على عقله فقال : فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم أي بالليل والنهار في البر والبحر ، وفي السفر والحضر ، والغنى والفقر ، والسقم والصحة ، والسر والعلانية ، وعلى كل حال اهـ .

(فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة) الاطمئنان السكون بعد اضطراب وانزعاج أي فإذا سكنت قلوبكم من الخوف وأمنتم بعد أن تضع الحرب أوزارها فأدوا الصلاة بتعديل أركانها ومراعاة شرائطها ولا تقصروا من هيئتها كما أذن لكم حال الخوف .
(إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) يقال وقت العمل يقته ووقته توقيتا : إذا جعل له وقتا يؤدي فيه أي إن الصلاة كانت في حكم الله فرضا مؤكدا في أوقات محدودة لا بد من أدائها فيها بقدر الإمكان ، فأداؤها في أوقاتها مع القصر بشرطه خير من تأخيرها لتؤدي تامة كاملة .

وهذه جملة جاءت لتعليل وجوب المحافظة على الصلاة حتى في وقت الخوف ولو مع القصر منها .

والحكمة في توقيتها في تلك الأوقات المعلومة أن الأشياء إن لم يكن لها وقت معين لا يحافظ عليها الجم الغفير من الناس .

إلى ما في هذا النوع من الذكر المذهب للنفس من التربية العملية للأمة الإسلامية بأن تلتزم أداء أعمالها في أوقات معينة مع عدم الهوادة فيها ، ومن قصر فيها في تلك الأوقات الخمسة في اليوم والليلة فهو جدير بأن ينسى ربه ويغرق في بحار الغفلة .

ومن قوى إيمانه وزكت نفسه لا يكتفى بهذا القدر القليل من ذكر الله ومناجاته بل يزيد عليه من النوافل ما شاء الله أن يزيد .

والخلاصة أن الصلوات الخمس إنما كانت موقوتة لتكون مذكرة للمؤمن بربه في الأوقات المختلفة ، لئلا تحمله الغفلة على الشر أو التقصير في الخير ، ولأن يريد الكمال في النوافل والأذكار أن يختار الأوقات التي يرى أنها أوفق بحاله .

وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ، إِنْ تَكُونُوا تَائِمُونَ فَإِنَّهُمْ يَتَأَمُونَ كَمَا تَائِمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٠٤)

شرح المفردات

الوهن : الضعف ، والابتغاء : الطلب .

المعنى الجملى

كان الكلام فيما سلف في شأن الحرب وما يقع فيها وبيان كيفية الصلاة في أثنائها وما يلاحظ فيها إذا كان العدو متأهباً للحرب من اليقظة وأخذ الحذر وحمل

السلاح في أثنائها ، وبين في أثناء السياق شدة عداوة الكفار لهم وتربصهم غفلتهم وإهمالهم ليقعوا بهم .

وهنا نهى عن الضعف في لقائهم وأقام الحجة على كون المشركين أجدر بالخوف منهم ، لأن ما في القتل من الألم والمشقة يستوى فيه المؤمن والكافر ، ويمتاز المؤمن بأن له من الرجاء في ربه ما ليس عند الكافر ، فهو يرجو منه النصر والمعونة ويعتقد أنه قادر على إنجاز وعده ، كما يرجو منه المثوبة على حسن بلائه في سبيله ، وقوة الرجاء تخفف الآلام وتنسيه التعب والنصب .

الإيضاح

(ولا تنهوا في ابتغاء القوم) أى ولا تضعفوا في طلب القوم الذين ناصبوك العداوة ، بل عليكم أن تستعدوا لقتالهم بعد الفراغ من الصلاة مع أخذ الحذر وحمل السلاح عند أدائها ، وذلك في معنى الأمر بالهجوم .

وسرّ هذا أن الذى يوجه همته إلى المهاجمة تشتد عزيمته وتعلو همته ، أما الذى يلتزم الدفاع فحسب فإنه يكون خائر العزيمة ضعيف القوة .

(إن تكونوا تأملون فإنهم يأملون كما تأملون) أى إن ما ينالكم من الآلام ينالهم منه مثله فهم بشر مشكم ، وهم مع هذا يصبرون ، فما لكم لا تصبرون وأنتم أولى منهم بالصبر ؟ وبين سبب هذا بقوله :

(وترجون من الله ما لا يرجون) من ظهور دينكم الحق على سائر الأديان الباطلة ، ومن الثواب الجزيل والنعيم المقيم في الآخرة - إلى أنه تعالى قد وعدكم إحدى الحسينين النصر أو الجنة بالشهادة إذا نصرتم دينه ودافعتم عن حماه ، وهذا الوعد من الرحمن مع خبوص الإيمان يدعوان إلى الرجاء والأمل ويضاعفان العزيمة ، ويحثان صاحبهما على العمل بصبر وثبات .

أما اليأس من هذا الوعد الكريم فإنه يكون ضعيف العزيمة ميت الهمة ،

يغلب عليه الجزع والفتور ، فإن تساويتم في الآلام فقد فضلتهم في الثقة بحسن العاقبة فأنتم أجدر منهم بالإقدام والجرأة .

(وكان الله عليا حكيمًا) وقد ثبت في واسع علمه ومضت به سننه أن العاقبة للمعتقين والنصرة لهم على الكافرين ، ماداموا عاملين بهديه سائرين على الطريق التي وضعها لنصرة الحق على الباطل من الأخذ بالأسباب وكثرة العدد والعدد ، فإذا هم فعلوا ذلك كانوا أشد منهم قتالا وأحسن منهم نظاما ، وبذا يفوزون بالمطلوب وبحسن العاقبة .

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٦) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، فَنَ الْجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (١٠٩) وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا (١١٠) وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبْهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (١١٢) وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ

وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ، وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣)

شرح المفردات

بما أراك الله أى بما عرفك وأوحى به إليك ، خصيا أى تخاضع وتناضل عنهم ، يختانون أنفسهم: يخونونها ويتكفون ما يخالف الفطرة مما يعود عليهم بالضرر، والمجادلة: أشد الخصامة، والوكيل: هو الذى يوكل إليه الأمر فى الحفظ والحماية . والمراد بالسوء هنا: ما يسوء الإنسان به غيره ، وبالظلم: ما كان ضرره خاصا بالعامل كالحلف الكاذب ، والاستغفار: طلب المغفرة من الله مع الشعور بقبح الذنب والتوبة منه ، والكسب: ما يجز منفعه أو يدفع مضرة ، والإثم: الذنب ، والخطيئة: الذنب غير المتعمد ، والإثم: ما يصدر عنه مع ملاحظة أنه ذنب ، يرم به أى يقذفه به ويسنده إليه، احتمال: كلف نفسه أن تحمل، والبهتان: الكذب على غيرك بما يبهت منه ويتحير عند سماعه .

المعنى الجملى

بعد أن حذر الله المؤمنين من المنافقين أعداء الحق وأمرهم أن يستعدوا لمجاهدتهم خوف أن يطمسوا معالم الحق ويهدكوا أهله - أمرهم هنا بأن يقوموا بحفظ الحق ولا يجابوا فيه أحدا .

« روى ابن جرير عن قتادة : أن هؤلاء الآيات أنزلت فى شأن طُعْمَةَ بن أُبَيْرِق وكان رجلا من الأنصار ، ثم أحد بنى ظفر سرق درعا لعمه كان وديعة عنده ثم قذفها على يهودى كان يغشاهم يقال له زيد بن السمين ، فجاء اليهودى إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم يهتف ، فلما رأى ذلك قومه بنو ظفر جاءوا إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم ليعذروا صاحبهم وكان نبي الله عليه السلام قد هم بقبول عذره حتى أنزل

الله في شأنه (ولا تجادل الخ) وكان طعمة قذف به بريئا ، فلما بين الله شأن طعمة نافق ولحق بالمشركين بمكة فأنزل الله فيه (ومن يشاقق الرسول) الآية » .

الإيضاح

(إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله) أى إنا أنزلنا إليك هذا القرآن بتحقيق الحق وبيانه لأجل أن تحكم بين الناس بما أعلمك الله به من الأحكام :

(ولا تكن للخائنين خصيما) أى ولا تكن لمن خان خصيما أى مخاصما ومدافعا تدافع عنه من طالبه بحقه الذى خان فيه .

وخلاصة ذلك — إن عليك ألا تتهاون في تحرى الحق اغترارا بجن الخائنين وقوة جدهم في الخصومة لئلا تكون خصيما لهم وتقع في ورطة الدفاع عنهم ، ويؤيد هذا حديث أم سلمة « إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى بنحو ما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار » .

(واستغفر الله) مما يعرض لك من شؤون البشر وأحوالهم بالميل إلى من تراه ألحن بحجته أو الركون إلى مسلم لأجل إسلامه تحسينا للظن به ، فهذا ونحوه صورته صورة من أتى ذنبا يوجب الاستغفار وإن لم يكن متعمدا للزيف عن العدل والتعيز للخصم .

وفي هذا من زيادة الحرص على الحق والتشديد فيه ما لا يخفى ، حتى كأن مجرد الالتفات إلى قول المخادع يجب الاحتراس منه .

كما أن فيه إيماء إلى أن الاعتقاد الشخصى والميل القطرى والدينى لا ينبغي أن يظهر لهما أثر في مجلس القضاء ، وإلى أن القاضى لا يساعد من يظن أنه صاحب الحق ، بل عليه أن يساوى بين المتخاصمين في كل شيء .

وأنبى صلى الله عليه وسلم لم يحكم في هذه القضية قبل نزول الآيات ولم يعمل
بغير ما يعتقد أنه تأييد للحق ، لكنه أحسن الظن في أمرين له علام الغيوب حقيقة
الواقع فيه وما ينبغى له أن يعامل به ذويه .

(إن الله كان عفورا رحيمًا) أى إنه تعالى مبالغ في المغفرة والرحمة لمن استغفره .
(ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم) هذا الخطاب وجه إلى النبي صلى الله
عليه وسلم وهو أعدل الناس وأكملهم مبالغة في التحذير من هذه الخلة المعهودة في كثير
من الحكام ، وسمى خيانة غيرهم خيانة لأنفسهم لأن ضررها عائد إليهم ، والذين يختانون
هم هذا السارق ومن عاونه لأنه شريك له في الإثم والخيانة ، ولهم نظراء في كل
زمان ومكان .

وخلاصة المعنى — لا تدافع عن هؤلاء الخونة ولا تساعدهم عند التضاصم .
(إن الله لا يحب من كان خوانا أثيمًا) المراد بعدم الحب البغض والسخط
أى إن الله يبغض من اعتاد الخيانة وأثمت نفسه اجتراح السيئات وضريت عليها ولم
يعد للعقاب الإلهي الرهبة والخشية التي ينبغى أن يفكر مثله فيها ، وإنما يحب الله أهل
الأمانة والاستقامة .

(يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى
من القول) أى إن شأن هؤلاء الخوانين أنهم يستترون من الناس عند اجتراحهم
الآثام إما حياء وإما خوفا من ضررهم ، ولا يستترون من الله ولا يستحيون منه بتركها
لضعف إيمانهم ، إذ الإيمان يمنع من الإصرار وتكرار الذنب ولا تقع الخيانة من صاحبه
إلا عن غفلة أو جهالة عارضة لاتدوم ، فمن يعلم أن الله يراه في حنادس الظلمات لا بد
أن يترك الذنب والخيانة حياء منه تعالى وخوفا من عقابه ، وهو تعالى شاهدهم حين
يدبرون ليلا ما لا يرضى من القول تبرئة لأنفسهم ورمى غيرهم بجرمتهم .

(وكان الله بما يعملون محيطا) أى حافظا لأعمالهم لا يعزب عنه مثقال ذرة
في السموات ولا في الأرض ، فلا سبيل إلى نجاتهم من عقابه .

(هاتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا) أى يا هؤلاء أتم جادلتم عنهم وحاولتم تبرئتهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة يوم يكون الخصم والحاكم هو الله تعالى المحيط بأعمالهم وأحوالهم وأحوال الخلق كافة؟ أى فلا يمكن أن يجادل هناك أحد عنهم ولا أن يكون وكيلا بالخصومة لهم ، فعلى المؤمنين أن يراقبوا الله تعالى في مثل ذلك ولا يظنوا أن من أمكنه أن ينال الفوز والحكم له وأخذه من قضاة الدنيا بغير حق ، يمكنه أن يظفر به في الآخرة «يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ» . وفى الآية إيحاء إلى أن حكم الحاكم في الدنيا لا يميز للمحكوم له أن يأخذ به إذا علم أنه حكم له بغير حقه ، كما أن فيها توبيخا وتقريرا لأولئك الذين أرادوا مساعدة بنى أيرق على اليهودى .

(ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيمًا) أى ومن يعمل قبيحا يسوء به غيره أو يظلم نفسه بفعل معصية تختص به كالحلف الكاذب يجد الله غفارا لذنوبه رحيمًا متفضلا عليه بالعفو والمغفرة .

وفى ذلك حث وترغيب لطعمة وقومه فى التوبة والاستغفار ، كما أن فيها بيان للمخرج من الذنب بعد وقوعه ، وفيها تحذير من أعداء الحق والعدل الذين يحاولون هدمهما وهما أسس الشرائع .

والمراد بوجودان الله غفورا رحيمًا : هو أن التائب المستغفر يجد أثر المغفرة فى نفسه بكرهه الذنب وذهاب داعيته ويجد أثر الرحمة بالرغبة فى الأعمال الصالحة التى تظهر النفس وتزيل الدرك منها .

(ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه) أى ومن يعمل الإثم ويرأه قد كسبه وانتفع به فإنما كسبه وبال على نفسه وضرر لا نفع له فيه كما يخطر على بال من يجهل عواقب الآثام فى الدنيا والآخرة ، من فضيحة للآثم ومهانة له بين الناس وعند الحاكم العادل كما وقع لأصحاب هذه القصة الذين نزلت فى شأنهم هذه الآيات ، ومن خزى فى الآخرة يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

(وكان الله عليما حكيما) أى إنه تعالى بعلمه الواسع حدد للناس شرائع يضرهم تجاوزها ، وبحكمته جعل لها عقابا يضر المتجاوز لها ، فهو إذا يضر نفسه ولا يضر الله شيئا .

(ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً)
أى ومن يكسب ذنبا خطأ بلا تعمد أو إثما يصدر عنه مع ملاحظة أنه ذنب ثم يبرىء نفسه وينسبه إلى برىء ويزعم أنه هو الذى كسبه فقد كلف نفسه وزر البهتان بافترائه على البرىء واتهامه إياه .

وقد فشا هذا بين المسلمين فى هذا الزمان ، ولم يكن لهذا من سبب إلا ترك هداية الدين وقلة الوازع النفسى والغفلة عن الأوامر والنواهى التى جاءت بها الشريعة .
وبعد أن ذكر المخنئين أنفسهم ومحاولتهم زحزحة الرسول صلوات الله عليه عن الحق ، بين فضله ونعمته عليه فقال :

(ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك) أى إنه تعالى بفضله ورحمته عليك صرف نفوس الأشرار عن الطمع فى إضلالك والهم بذلك ، لأنه إذا توجهت همتهم إلى التلبيس على شخص ومحاوله صرفه عن الحق ، احتاج إلى طائفة من الوقت لمقاومتهم وكشف حيلهم وتمييز تلبيسهم حتى تمحص الحقائق وينجلي الرشد من الغى فيضيع وقت هو فى أشد الحاجة إليه ولصرفه فى عمل نافع ، ومن ثم تفضل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم ورحمه بصرف كيد الأشرار عنه وزحزحته عن صراط الله الذى أفامه عليه .

والخلاصة — أنه لولا فضل الله عليك بالنبوة والتأييد بالعصمة ورحمته لك ببيان حقيقة الواقع لهمت طائفة منهم أن يضلوك عن الحكم العادل المنطبق على حقيقة القضية فى نفسها ، ولكنهم قبل أن يطمعوا فى ذلك ويهموا به جاءك الوحى ببيان الحق وإقامة أركان العدل والمساواة فيه بين جميع الخلق .

(وما يضلون إلا أنفسهم) بانحرافهم عن الصراط السوى الذى هداهم الاسلام إليه
(وما يضررونك من شئ) وقد عصمك الله من الناس ومن اتباع الهوى
فى الحكم بينهم .

(وأُنزل الله عليك الكتاب والحكمة) علمت مما سلف أن الكتاب هو القرآن ،
والحكمة فقه مقاصد الدين وأسراره ووجه موافقتها للفطرة وانطباقها على سنن الاجتماع
البشرى ومصالح الناس فى كل زمان ومكان .

(وعلمك ما لم تكن تعلم) من الكتاب والشرعة ، وخصوصا ما تضمنته هذه
الآيات من العلم بحقيقة الواقعة التى تخاصم فيها بعض المسلمين مع اليهودى .

(وكان فضل الله عليك عظيما) إذ أرسلك للناس كافة وجعلك خاتم النبيين
واختصك بنعم كثيرة ومزايا لا تدخل تحت حصر، فيجب أن تكون أعظم الناس شكرا
له ، كما يجب على أمتك مثل ذلك ليكونوا خير أمة أخرجت للناس قدوة لغيرهم
فى جميع الخيرات .

لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّبْجَاهُمْ إِلَّا مَنَ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ
أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ
نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤) وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ
الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ
مَصِيرًا (١١٥)

شرح المفردات

النجوى: المسارة بالحديث ، أوجع واحده نجى بمعنى المتناجين أى المتسارين ،
المعروف: ما تعرفه النفوس وتقره وتتلقاه بالقبول ، وبقى: الشئ ، طلبه ، والمشاقة: المعادة

والمخالفة مأخوذة من الشق كأن كل واحد من المتعادين يكون فى شق غير الذى فيه الآخر .

المعنى الجملى

لا يزال الحديث فى الذين يختانون أنفسهم ويستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهم طعمة بن أبيرق ومن أراد مساعدته من بنى جلده .

الإيضاح

(لاخير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس) أى لاخير فى كثير من تناجى أولئك الذين يسرون الحديث من جماعة طعمة الذين أرادوا مساعدته على اتهام اليهودى وبهتته ومن سائر الناس ، ولكن الخير كل الخير فى نجواهم من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، وإنما قال فى كثير لأن من النجوى ما يكون فى الشؤون الخاصة كالزراعة والتجارة مثلا فلا توصف بالشر ولا هى مقصودة من الخير ، وإنما المراد بالنجوى السكتيرة المنفى عنها الخير هى النجوى فى شؤون الناس ومن ثم استثنى منها الأشياء الثلاثة التى هى جماع الخير للناس .

والكتاب الحكيم يجعل النجوى مظنة الإثم والشر ، ومن ثم خاطب الله المؤمنين بقوله « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبَرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » .

والسر فى كون النجوى مظنة الشر فى الأكثر أن العادة قد جرت بحسب إظهار الخير والتحدث به فى الملأ . وأن الشر والإثم هو الذى يذكر فى السر والنجوى وفى الأثر « الإثم ماحاك فى النفس وكرهت أن يطبع عليه الناس » .

وقد استثنى الله من النجوى التى لاخير فى أكثرها أمورا ثلاثة لأن خيريتها أو كمالها تتوقف على السكتمان وجعل التعاون عليها سرا والحديث فيها نجوى .

فالصدقة وهى من الخير قد يؤذى إظهارها المتصدق عليه ويضع من كرامته ،
ومن ثم قال عز من قائل « إِنَّ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ، وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْنِسُوهَا
الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » . .

وقد يكون الجهر بالأمر بها والحث عليها أشد إهزاء وإهانة من إيتائه إياها جهرا
ولومع الإخلاص وابتغاء مرضاة الله .

وكذلك الأمر بالمعروف على مسمع من الناس فكثيرا ما يستاء منه المأمور به
ولا سيما إذا كان الأمر من أقرانه لأنه يرى فى أمره إياه استعلاء عليه بالعلم والفضل
واتهاما له بالتقصير أو الجهل ، فمن ثم كانت النجوى به أبعد عن الإيذاء ،
ومثله الإصلاح بين الناس ، فإنه ربما ترتب على إظهاره والتحدث به كثير من الشر ،
الآتى أن بعض الناس إذا علم أن ما يطالب به من الصلح كان بأمر فلان من الناس
لا يستجيب ولا يقبل ، أو يصدده عن الرضا به ذكره بين الناس وعلمه بأنه كان
بسعى وتواطؤ .

أخرج البيهقي عن أبي أيوب الأنصارى : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له
« يَا أَبَا أَيُوبَ أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى صَدَقَةٍ خَيْرَ لَكَ مِنْ حِمْرِ النَّعَمِ ؟ فَقَالَ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ
تَصْلَحُ بَيْنَ النَّاسِ إِذَا تَفَاسَدُوا وَتَقْرُبُ بَيْنَهُمْ إِذَا تَبَاعَدُوا » وعن عبد الله بن عمر قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ » .

(ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما) أى ومن يفعل
هذه الأعمال الثلاثة من الطاعات لوجه الله وطلب مرضاته فإن الله سيؤتيه الثواب
العظيم والأجر الجزيل ، وإنما تنال مرضاة الله بالشئ إذا فعل على الوجه الذى يحصل
به الخير ويتم به النفع الذى شرع لأجله ، وبذا ترقى روح الفاعل له ارتقاء تصل به
إلى ذلك الفضل وتنال قربا معنويا من الله وتصير أهلا للجزاء الأوفى فى حياة أشرف
من هذه الحياة وأرقى .

والخلاصة — أن ابتغاء مرضاته إنما تطلب بالإخلاص وعدم إرادة السمعة والرياء كما يفعل المتفخرون من الأغنياء (تصدقنا . أعطينا . منحنا . عملنا وعملنا) فهو لاء إنما يبتغون الربح بما يبذلون أو يعملون لا مرضاة لله تعالى ، ولذلك يشق عليهم أن يكون خفيا ، وأن يخلصوا في الحديث عنه نجيا ، لأن الاستفادة منه يجذب القلوب إليهم وتسخير الناس لخدمتهم ورفعهم لمكانتهم إنما تكون بإظهاره لهم ليتعلق الرجاء فيهم .

وبعد أن وعد الله الجزاء الحسن من يتناجون بالخير ويتبعون نفع الناس مرضاة لله عز وجل أوعد الذين يتناجون بالشر ويبينون ما يكيدون به للناس فقال :

(ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) أى ومن يشاقق الرسول بارتداده عن الإسلام وإظهار عداوته له من بعد ما ظهرت له الهداية على لسانه وقامت عليه الحجة ، ويتبع سبيلا غير سبيل أهل الهدى ، نوله ما تولى أى نتركه وما اختار لنفسه ونكاه إلى ما توكل عليه ، وفى هذا بيان لسنة الله فى عمل الإنسان وذكر لما أوتيته من الإرادة والاستقلال والعمل بالاختيار ، فالوجهة التى يتولاهما ويختارها لنفسه يوليه الله إياها أى يجعله واليا لها وسائرا على طريقها ، فلا يجد من القدرة الإلهية ما يجبره على ترك ما اختار لنفسه على حسب الاستعداد والإدراك وعمل كل فرد ما يرى أنه خير له وأنفع فى عاجله أو آجله أو فيهما معا ثم ندخله جهنم ونعذبه أشد العذاب ، لأنه استجب العمى على الهدى وعاند الحق واتبع الهوى ، وما أقبحها عاقبة لمن تفكر وتدبر! وقد اشترط فى هذا الوعيد أن يتبين له الهدى ، أما من لم يتبين له فلا يدخل فيه .

وهم أصناف : فمنهم من نظر فى الدليل ولم يظهر له الحق وبقي متوجها إلى طلبه بتكرار النظر والاستدلال مع الإخلاص وهذا معذور غير مؤاخذ ومثل هذا مثل من لم تبغه الدعوة الإسلامية أو بلغته مشوهة معكوسة ككثير من أهل أوربا فى العصر الحاضر .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١١٦) إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١١٨) وَلَا ضِلَّتْ لَهُمْ وَلَا مِئْنَنَةٌ لَهُمْ ، وَلَا مَرَّةًهُمْ فَلْيَبْتَكَنْ أَذَانُ الْأَنْعَامِ ، وَلَا مَرَّةًهُمْ فَلْيَغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ ، وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠) أُولَئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (١٢٢)

شرح المفردات

يدعون أى يتوجهون إليها ويطلبون منها المعونة لهيبة غيبية لا يعقل الإنسان معناها ، إلا إناثا أى أمواتا ، والعرب تطلق على الميت أنثى لضعفه وعجزه ، والشيطان هو الخبيث المؤذى من الجن والإنس ، والمريد والمارد من مرد على الشئ إذا مرن عليه حتى صار يأتيه بلا تكلف ، والمراد أنه مرد على الإغواء والإضلال أو تمرد واستكبر عن الطاعة ، واللعن: هو الطرد والإبعاد مع السخط والإهانة، والنصيب: الحصة والسهم من الشئ ، والمفروض: الملعين ، والأمانى جمع أمنية ، يقال تمنى الشئ إذا أحب أن يكون له وإن لم يتخذ له أسبابه ، والتمنى: تقدير شئ فى النفس وتصويره فيها سواء أكان عن تخمين وظن أم عن رؤية وبناء على أصل ، ولكنه يغلب فى ببنى على الخدس والتخمين وما لا حقيقة له ، البتك: القطع ، وسيف باتك أى قاطع والتبتيك

التقطيع ، والغرور الباطل ، والمحيص المهرب والمخلص ، يقال : وقعوا في حَيْصٍ بَيْصٍ وفي حاصٍ باصٍ أى في أمر يعسر التخلص منه .

المعنى الجملى

علمت فيما سلف أن قوله تعالى: إنا أنزلنا إليك الخ نزلت في شأن طُعْمَةَ بن أُبَيْرِق سارق الدرع ورميه اليهودى بسرقتها، وأن قوله: ومن يشاقق الرسول الخ نزلت في ارتداده عن الدين ولحقه بالمشركين ، وهنا ذكر أنه لو لم يرتد لم يكن محروما من رحمة الله ولكن بارتداده صار بينه وبين رحمته حجاب أيما حجاب فإن كل ذنب يجوز أن يغفره الله للناس إلا ذنب الشرك فإن صاحبه مطرود من عفو الله ورحمته .

الإيضاح

(إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) تقدم هذا النص بعينه في غرض آخر من هذه السورة ، وأعاده هنا مرة أخرى ، لأنه إنما ترجى الهداية والموعظة بإبراز المعانى التى يراد إيداعها في نفوس السامعين في كل سياق يقصد فيه توجيهها إليها وإعدادها لقبولها ، ولن يتم ذلك إلا بتكرار المقاصد الأساسية من تلك المعانى حتى تتمكن في النفوس بذلك التكرار ، ومن ثم نرى رجال الدين والسياسة الذين عرفوا سنن الاجتماع وفهموا طبائع البشر وأخلاقهم يكررون في خطبهم ومقالاتهم ، أغراضهم ومقاصدهم التى ينشرونها في الصحف والكتب ، فإن الذين إذا تكرروا عليه مدح الشئ أو ذمه أثر فيه .

المعنى — إن الله أكد لعباده أنه لا يغفر لأحد شركه به (البنة ، وأنه قد يغفر لمن يشاء من المذنبين ما دون الشرك من الذنوب فلا يعذبهم عليه .

ذاك أن الشرك هو منتهى أساد الأرواح وضلال العقول ، فكل خير يلابسه لا يقوى على إضعاف مفسده وآثامه والعروج بها إلى جوار ربها ، إذ أنها تكون

موزعة بين شركاء يحولون بينها وبين الخالص إليه عز وجل ، والله لا يقبل إلا ما كان خالصا له .

وبعض الناس ممن يسمون أنفسهم بالموحدين يفعلون كما يفعل سائر المشركين ، فيدعون حين يشتد الكرب ويعظم الخطب غير الله وحده أو مع الله ولا يسمون عملهم دعاء بل يسمونه توسلا واستشفاعا و يسمون من يدعوهم أولياء وشفعاء ، ولولم يكن منهم إلا هذا الدعاء لقضاء الحاجات وتفريج الكربات لكفى ذلك عبادة وشركا بالله ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « الدعاء هو العبادة » رواه أبو داود أى إن العبادة جدّ العبادة إنما تكون فى الدعاء الذى يفيض على اللسان من قرارة النفس حين وقوع الخطب واشتداد الكرب ، وهذا ما تسمعه من أصحاب الحاجات عند حدوث الملمات وفى هيا كل العبادات ولدى قبور الأموات ، فكل ذلك يمثل الخشوع والخضوع ويذرف من العين الدموع « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ » .

وما عدا هذا الدعاء من العبادات جله يفعل بالتعايم ويكون فى الغالب خاليا من الشعور الذى به يكون القول أو الفعل عبادة ، إذ هو خال من معنى العبادة وروحها وهو الشعور بالسلطة الغيبية التى هى وراء الأسباب العادية ، ولا سيما الأدعية التى تكون فى الصلوات أو فى غير الصلوات ، إذ ترى الحافظ لها يحرك بها لسانه وقلبه مشغول بشواغل أخرى ، فمثل هذا لا يمثل العبادة الحقة التى تملأ القلب نورا ، والنفس استسلاما وخضوعا والروح طهارة وزكاء .

(ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا) أى ومن يشرك بالله شيئا فيدعوه معه ويذكر اسمه مع اسمه ، أو يدعوه وحده ملاحظا أنه يقربه إليه زلفى — فقد ضل عن القصد ، وبعد عن سبيل الرشd ضلالا بعيدا فى سبيل الغواية ، لأنه ضلال يفسد العقل ، ويكدر صفاء الروح ، ويجعله يخضع لعبد مثله ، ويخضع أمام مخلوق يحاكيه ، ويكون عبدا للخرافات والأوهام .

وخلاصة ماتقدم :

(١) إن الشرك فى العبادة الذى يتجلى فى الدعاء ، هو أقوى أنواع الشرك ، لأنه يكون باعتقاد ناشئ عن وجدان حاكم على النفس مستعبد لها .

(٢) إن دون هذا — الشرك المبنى على الفكر والنظر الذى يحاجك فيه صاحبه بالشبهات المنتزعة من تشبيه الخالق بالخلق ، وقياسه على ظلمة الملوك ، كقولهم : إن الإنسان الخاطى لا يليق أن يخاطب الإله العظيم مباشرة ، بل عليه أن يتخذ له ولياً يكون واسطة بينه وبينه ، كما يتخذ آحاد الرعية الوسائط إلى الملوك والأمراء من المقر بين إليهم .

ومثله من يشرك فى ربوبية الله بالتخاذ بعض الخلقين شارعين يحلون له ما يرون تحليله ويحرمون عليه ما يرون تحريره فيتبعهم فى ذلك .

(٣) إن الجزاء فى الآخرة يكون تابعاً لما تكون عليه النفس فى الدنيا من سلامة العقيدة ومقدار درجة الفضيلة التى يلزمها فعل الخيرات ، أو فساد الفطرة وخطأ العقيدة والتدنس بالرديلة التى يلزمها فعل السيئات .

(٤) إن الناس متفاوتون فيما بين ذلك من درجات ودركات ، أحسنهم الشرك وأعلاها التوحيد ولكل منهم صفات تناسبها ، فلو جاز أن يغفر الشرك ويجعل صاحبه مع النبيين والصديقين والملائكة المقربين لكان ذلك نقضاً لسنة الله التى لا تبدل فيها ولا تغيير .

(إن يدعون من دونه إلا إناثاً) أى هؤلاء المشركون لا يدعون لقضاء حاجتهم وتفرج كربهم إلا أمواتاً فقد كانوا يعظمون الموتى ويدعونها كما يفعل ذلك كثير من أهل الكتاب ومسلمى هذه القرون ، أو إلا إناثاً كاللات والعزى ، وقد كان لكل قبيلة صنم يسمونه أثى بنى فلان .

(وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً) أى وما يعبدون بعبادتها إلا شيطاناً مريداً ، أذ هو الذى أمرهم بعبادتها وأغرام بها ، فكانت طاعتهم له عبادة .

(لَعَنَهُ اللَّهُ) أى أبعدَهُ اللَّهُ عن رحمته وفضله ، فإنه داعية الشر والباطل في نفس الإنسان بما يوسوس في صدره ويعده ويمنيه .

(وقال لأتخذنَّ من عبادك نصيبا مفروضا) النصيب المفروض هو ما للشيطان في نفس كل أحد من الاستعداد للشر ، إذ ما من إنسان إلا يشعر من نفسه بوسوسة الشيطان ، فإن لم يكن بالشرك في المعصية والإصرار عليها أو الرياء في العبادة ، لكن الله أخبر أنه ليس له سلطان على عباده الخالصين ، وقد جاء في القرآن والحديث ما يدل على هذا .

والخلاصة أن الشيطان خلق متمردا على الحق بعيدا من الخير مُغرِّىً بإغواء البشر وإضلالهم .

(ولأضننهم ولأمنينهم) إضلال الشيطان لمن يضلهم هو صرفهم عن العقائد الصحيحة وشغلهم عن الدلائل الموصلة إلى الحق والهدى ، وتمنيته لهم تزيينه لهم الاستعجال بالذات الحاضرة والتسويق بالتوبة والعمل الصالح .

والخلاصة - أن من شأن الشيطان ومقتضى طبعه إضلال العباد وشغلهم بالأمانى الباطلة كرحمة الله للمجرمين بغير توبة والخروج من النار بعد دخولها بالشفاعة ، وتزيين لذات الحياة العاجلة على ثواب الآجلة ونعيمها .

(ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام) أى ولأمرنهم بالضلال فليقطعن آذان الأنعام بموجب أمرى ، والمراد به ما كانوا يفعلونه من قطع آذان بعض الأنعام لأصنامهم كالبحائر التي كانوا يقطعون آذانها أو يشقونها شقا واسعا ويتركون الحمل عليها ، وهذا من سخيף أعمالهم الوثنية الدالة على سنة عقولهم .

(ولأمرنهم فليغيرن خلق الله) تغيير خلق الله وسوء التصرف فيه شامل للتغيير الحسى كالخصاء ورووا ذلك عن ابن عباس وأنس بن مالك ، وللتغيير المعنوى وروى أيضا عن ابن عباس وغيره ، وعلى هذا فالمراد بخلق الله دينه لأنه دين الفطرة وهى

الخلقة قال تعالى : « فَأَقَمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ » أى إنه يراد به تغيير الفطرة الإنسانية عما فطرت عليه من الميل إلى النظر والاستدلال وطب الحق وتربيتها وتعويدها الأباطيل والردائل والمنكرات ، فالله قد أحسن كل شئ خلقه ، وهؤلاء يفسدون ما خلق الله ويطمسون عقول الناس .

والخلاصة — إن الدين الفطرى الذى هو من خلق الله وآثار قدرته ليس هو مجموع الأحكام التى جاء بها الرسل ليبلغوها للناس ، بل هو ما أودعه الله فى فطرة البشر من توحيده والاعتراف بقدرته وجلاله ، وهو ما أشار إليه فى الحديث « كل مولود يولد على الفطرة » .

ومن أهم أسس هذا الدين الفطرية العبودية للسلطة الغيبية التى تنتهى إليها الأسباب وتقف ذون الوصول إلى حقيقتها العقول .

(ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا) أى ومن يتبع الشيطان ووسوسته وإغواءه وهو البعيد من أسباب رحمة الله وفضله ، فقد خسر خسرانا ظاهرا فى الدنيا والآخرة ؛ إذ أنه يكون أسير الأوهام والخرافات ، يتخبط فى عمله على غير هدى ويفوته الانتفاع التام بما وهبه الله من العقل والمواهب الكسبية التى أوتىها الإنسان وميز بها من بين أصناف الحيوان .

(يعدم ويمنيهم) فيعد الناس الفقر إذا هم أنفقوا شيئا من أموالهم فى سبيل الله ويوسوس لهم بأن أموالهم تنفذ أو تنقل ويصبحون فقراء أذلاء ويمنيهم الغنى والثروة حين الإغراء بالقمار ، ويعد من يغريه بالتعصب لرأيه وإيذاء مخالفه فيه من أهل دينه للجه والشهرة وبعد الصيت .

ويؤيد هذه الوعود بالأمانى الباطلة يلقيها إليهم .

ويدخل فى وعد الشيطان وتمنيته ما يكون من أوليائه من الإنس وهم قرناء السوء الذين يزنبون للناس الضلال والمعاصى ويمدونهم فى الطغيان وينشرون مذاهبهم

الفاصلة وآراءهم الضالة التي يبتغون بها الرفعة والجاء والمال ، وهؤلاء يوجدون في كل زمان ومكان .

(وما يعدم الشيطان إلا غروراً) أى ولا يعدم الشيطان إلا باطلا يغترون به ولا يملكون منه ما يحبون ، فيزين لهم النفع في بعض الأشياء وهي مشتملة على كثير من الآلام والمضار ، فالزاني أو المقامر أو شارب الخمر يخيل إليه أنه يتمتع باللذات بينما هو في الحقيقة يتمتع بذنائب وقتية تعقبها آلام دنيوية طويلة المدى ، وخيمة العواقب إلى عذاب أخروي لا يعلم كنهه إلا من أحاط بكل شيء علما .

(أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً) أى أولئك الذين يعذب بهم الشيطان بوسوسته أو بإغواء دعاة الباطل من أوليائه ، مأواهم جهنم لا يجدون عنها مهربا يفرون إليه ، إذ هم بطبيعتهم ينجذبون إليها ويتهاقنون عليها تهاقت الفراش على النار .

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً) بعد أن بين الله أولياء الشيطان وما يعدم الشيطان به من الوعود والأمانى بزخرف القول وغروره ، وذكر عاقبتهم بأنهم لا يجدون مستقرا ومكانا إلا جهنم ذات العذاب التي تصلى وجوههم وجنوبهم وظهورهم .

ذكر هنا عاقبة من لا يستجيب للشيطان دعوة ولا يصيخ لأمره ونهيهِ ، فبين أنها النعيم المقيم في جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وذلك هو الفوز العظيم لمن آمن وعمل صالحا وسمت نفسه عن دنس الشرك فلم يجعل لله أندادا ولم تحط بها الخطيئة في صباحها ومسائها في غدوها ورواحها .

(وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلاً ؟) أى ذلك الذي وعدكم الله به هو الوعد الحق فهو القادر على أن يعطى ما وعد بفضلله وجوده وواسع كرمه ورحمته ، وأما وعد الشيطان فهو غرور من القول وزور ، إذ هو عاجز عن الوفاء فهو يلدى إلى

أوليائه يبطله فحقه ألا يستجاب له أمر ولا نهى ولا تتبع له نصيحة ، فوساوسه أباطيل وسراب بقية يحسبه الضمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا .

لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ ، مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَاهَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا (١٢٦)

شرح المفردات

الأمانى، واحدها أمنية : وهى الصورة التى تحصل فى النفس من تمنى الشئ وتقديره ، وكثيرا ما يطلق التمنى على ما لا حقيقة له ، ومن ثم يعبرون به عن الكذب كما قال عثمان رضى الله عنه : ما تعنيت ولا تمنيت منذ أسلمت . وليا : أى يلى أمره ويدفع العقاب عنه ، ولا نصيرا : أى ينصره وينقذه مما يحل به ، والنكير والنقرة : النكته التى تكون فى ظهر النواة ويضرب بها المثل فى القلة ، الحنيف : المائل عن الزيغ والضلال ، والخليل : المحب لمن يحبه ، من الخلطة (بالضم) وهى المودة والمحبة التى تتخلل النفس وتمازجها قال شاعرهم :

قد تخلت مسلك الروح منى وبذا سمى الخليل خليلا

محيطا : أى عالم بالأشياء قادرا عليها .

المعنى الجملى

بعد أن بين الله سبحانه فى الآيات السالفة أن الشيطان يعدهم ويمنيهم، ويدخل فى تلك الأمانى ما كان يمنيهم أهل الكتاب من الغرور بدينهم إذ كانوا يرون أنهم شعب الله الخاص ويقولون إنهم أبناء الله وأحباءه وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات ، وقد سرى لهم هذا الغرور من اتكأهم على الشفاعات وزعمهم أن فضلهم على غيرهم من البشر بمن بعث فيهم من الأنبياء ، فهم يدخلون الجنة بكرامتهم لا بأعمالهم .

حذرنا فى هذه الآيات أن نكون مثلهم ، وكانت هذه الأمانى قد دبت إلى المسلمين فى عصر النبي صلى الله عليه وسلم كما دلّ على ذلك قوله : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ » الآية ، فنضعفاء الإيمان من المسلمين فى الصدر الأول ولأمثالهم فى كل زمان أنزلت هذه الموعظة ، ولو تدبروها لما كان لهذه الأمانى عليهم من سلطان ، وقد أخرج ابن أبى شيبه عن الحسن موقوفا . « ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل » وقال الحسن : إن قوما غرتهم المغفرة فخرجوا من الدنيا وهم مملوءون بالذنوب ولو صدقوا لأحسنوا العمل .

أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى قال « التقى ناس من المسلمين واليهود والنصارى فقال اليهود للمسلمين: نحن خير منكم ، ديننا قبل دينكم وكتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم ونحن على دين إبراهيم وإن يدخل الجنة إلا من كان هودا . وقالت النصارى مثل ذلك ، فقال المسلمون: كتابنا بعد كتابكم ونبينا بعد نبيكم ، وقد أمرتم أن تتبعونا وتتركوا أمركم ، فنحن خير منكم ، نحن على دين إبراهيم وإسماعيل

وإسحاق ، ولن يدخل الجنة إلا من كان على ديننا فأنزل الله ليس بأمانيكم الخ الآية «
فأفلج الله حجة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان الأخرى .

الإيضاح

(ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب) أى ليس فضل الدين وشرفه ولا نجاة أهله به أن يقول القائل منهم : إن ديني أفضل وأكمل ، بل عليه أن يعمل بما يهديه إليه ، فإن الجزاء إنما يكون على العمل لا على التمنى والغرور ، فليس أمر نجاتكم ولا أمر نجاة أهل الكتاب منوطاً بالأماني في الدين ، فالأديان لم تشرع للتفاخر والتباهى ولا تحصل فائدتها بالانتساب إليها دون العمل بها .

(من يعمل سوءاً يجز به) أى إن من يعمل سوءاً يلحق جزاءه ، لأن الجزاء على حسب سنة الله تعالى أثر طبيعي للعمل لا يتخلف في اتباع بعض الأنبياء وينزل بغيرهم كما يتوهم أصحاب الأماني والظنون ، فعلى الصادق في دينه أن يحاسب نفسه على العمل بما هداه إليه كتابه ورسوله ويجعل ذلك المعيار في سعادته ، لا أن يجعل تكاثره أن هذا الكتاب أكمل ولا أن ذلك الرسول أفضل .

وقد روى « أنه لما نزل قوله (من يعمل سوءاً يجز به) راع ذلك أبا بكر وأخافه فسأل النبي صلى الله عليه وسلم قال : من ينج مع هذا يا رسول الله ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم أما تحزن ، أما تمرض ، أما يصيبك البلاء ؟ قال بلى يا رسول الله قال هو ذاك » .

وأخرج مسلم وغيره عن أبي هريرة قال : لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين وبلغت منهم ما شاء الله تعالى فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « سدّدوا وقاربوا فإن في كل ما أصاب المسلم كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها » والأحاديث بهذا المعنى كثيرة ، ومن ثم يرى عامة العلماء أن الأمراض والأسقام ومصائب الدنيا وهمومها يكفر الله بها الخطايا .

ويرى بعضهم أن المصائب لا تكفر إلا إذا أثرت في النفس تأثيرا صالحا وكانت سببا في قوة الإيمان وترك سوء والتوبة منه والرغبة في صالح العمل بما تحدثه من العبرة فتكون مربية لعقله ونفسه ، أما إذا ضاعفت الذنوب كالمصيب التي تحمل صاحبها على الجزع ومهانة النفس وضعف الإيمان إلى ذنوب أخرى لم يكونوا ليقترفوها لولا المصيبة فلا تكفر شيئا من الخطايا بل تزيدها .

(ولا يجده من دون الله وليا ولا نصيرا) أى من يعمل سوء ويستحق العقاب عليه لا يجد له وليا غير الله يتولى أمره ويدفع الجزاء عنه ، ولا نصيرا ينصره وينقذه مما يحل به ، لامن الأنبياء الذين تفاخر بهم ولا من غيرهم من المخلوقات التي اتخذها بعض البشر آلهة وأربابا ، فكل تلك الأمانى تكون أضغاث أحلام ، وإنما يكون المدار في ذلك على الإيمان والأعمال كما قال :

(ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون فيها) أى ومن يعمل كل ما يستطيع عمله من الأعمال التي تصلح بها النفوس في أخلاقها وآدابها وأحوالها الاجتماعية ، سواء كان العامل ذكرا أو أنثى وهو مطمئن القلب بالإيمان - فأولئك العاملون المؤمنون بالله واليوم الآخر يدخلون الجنة بزكاء أنفسهم وطهارة أرواحهم ولا يظلمون من أجور أعمالهم شيئا ولو حقيرا كالنقيير ، وفي هذه الآية وما قبلها من العبرة والموعظة ما يهدم صروح الأمانى التي يأوى إليها الكسالى وذوو الجهالة من المسلمين الذين يظنون أن الله يحابي من يسمى نفسه مسلما ويفضله على اليهودى والنصرانى لأجل هذا القلب ، فالذين يفخرون بالانتساب إليه وقد نبذوه وراء ظهورهم وحرموا الاهتداء بهديه ، هم في ضلال مبين . وبعد أن بين سبحانه أن النجاة والسعادة منوطان بصالح الأعمال مع الإيمان أردف ذلك بذكر درجات الكمال فقال :

(ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) أى لا أحد أحسن ممن جعل قلبه خالصا لله وحده فلا يتوجه إلى غيره في دعاء ولا رجاء ولا يجعل بينه وبينه حجابا

من الوسطاء والشفعاء ، ولا يرى في الوجود إلا الله ويعتقد أنه سبحانه ربط الأسباب بالمسببات ، فلا يطلب شيئاً إلا من خزان رحته ، ولا يأتي بيوت هذه الخزائن إلا من مسالكها وهي السنن والأسباب التي سنّها في الخليقة .

وهو مع هذا الإيمان الكامل والتوحيد الخالص محسن للعمل متحلّ بأحسن الأخلاق والفضائل .

وقد عبر عن توجه القلب بإسلام الوجه ، لأن الوجه أعظم مظهر لما في النفس من إقبال أو إعراض وسرور أو كآبة ، وما فيه هو الذي يدل على ما في السريرة .
(واتبع ملة إبراهيم حنيفاً) أى واتبع إبراهيم في حنيفيته التي كان عليها بئله عن الوثنية وأهلها وتبريه مما كان عليه أبوه وقومه منها ، قال تعالى : « وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدُنِي . وَجَعَلَهَا كَمِثَّةٍ بَاقِيَةٍ فِي عَقَبِهِ لَعَنَهُمْ يَرْجِعُونَ » .

(واتخذ الله إبراهيم خليلاً) أى اصطفاه الله لإقامة دينه في بلاد غلبت عليها الوثنية وأفسد الشرك عقول أهلها ، وقد بلغ من الزلفي عند ربه ما صح به أن يسمى خليلاً فقد اختصه بكرامة ومنزلة تشبه الخليل لدى خليله ، ومن كانت له هذه المنزلة كان جديراً أن تتبع ملته وتؤتسى طريقته .

والخلاصة — أنه من عليه بسلامة الفطرة وقوة العقل وصفاء الروح وكمال المعرفة وفنائه في التوحيد .

(والله ما في السموات وما في الأرض) أى إن كل ما في السموات والأرض ملك له ومن خلقه مهما اختلفت صفات المخلوقات ، فجميعها مملوكة عابدة له خاضعة لأمره .

(وكان الله بكل شيء محيطاً) إحاطة قهر وتسخير ، وإحاطة علم وتدير ، وإحاطة وجود لأن هذه الموجودات ليس وجودها من ذاتها ولا هي ابتدعت نفسها

بل وجودها مستمد من ذلك الوجود الأعلى ، فالوجود الإلهي هو المحيط بكل موجود فوجب أن يخلص له الخلق ويتوجه إليه العباد .

وقد جاءت هذه الآية خاتمة لما تقدم لفوائد :

(١) بيان الدليل على أنه المستحق وحده لإسلام الوجه له والتوجه إليه في كل حال لأنه هو المالك لكل شيء ، وغيره لا يملك لنفسه شيئا .

(٢) نفى ما يتوهم في اتخاذ الله إبراهيم خليلا من أن هناك شيئا من المقاربة في حقيقة الذات والصفات .

(٣) التذكير بقدرته تعالى على إنجاز وعده ووعيده في الآيات التي قبلها ، إذ من له ما في السموات والأرض خلقا وملكا فهو أكرم من وعد .

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ، قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا (١٢٧) وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ، وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ، وَأُخْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ ، وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٢٨) وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ، فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُواهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ، وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٢٩) وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ ، وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (١٣٠)

شرح المفردات

يستفتونك أى يطلبون منك الفتيا ، يفتيكم : يبين لكم ما أشكل عليكم ، يقال أفتاه إفتاء وفتيا وفتوى ، وأفتيت فلانا رؤياه عبرتها له ، ما كتب لمن أى مافرض لمن من الميراث ، وأن تقوموا أى تعنوا عناية خاصة ، بالقسط أى بالعدل ، خافت أى توقعت ما تكره بوقوع بعض أسبابه أو ظهور بعض أماراته ، نشوزا : ترفعا وتكبيرا إعراضا : ميلا وانحرافا ، فلا جناح أى لا إثم ولا حرج ، أحضرت الأنفس الشح أى إن الشح حاضر لها لا يغيب عنها ، المعلقة : التى ليست مطلقة ولا ذات بعل ، من سعتة . من غناه ، واسعا : غنيا .

المعنى الجملى

كان الكلام أول السورة فى الأحكام المتعلقة بالنساء واليتامى والقراة ، ومن قوله واعبدوا الله إلى هنا فى أحكام عامة فى أسس الدين وأصوله وأحوال أهل الكتب والمنافقين والقتال - ثم عاد الكلام هنا إلى أحكام النساء لشعور الناس بالحاجة إلى زيادة البيان فى تلك الأحكام ، فالآيات السالفة أوجبت مراعاة حقوق الضعيفين المرأة واليتيم وجعلت للنساء حقوقا مؤكدة فى المهر والإرث وحرمت ظلمهن وأباحت تعدد الزوجات وحددت العدد الذى يحل منهن حين الخوف من عدم الظلم ، ولكن ربما يحدث لهم الاشتباه فى بعض الوقائع المتعلقة بها كأن يقع الاشتباه فى حقيقة العدل الواجب بين النساء ، هل يدخل العدل فى الحب أو فى لوازمه من زيادة الإقبال على المحبوبة والتبسط فى الاستمتاع بها أولا ، وهل يحل للرجل أن يمنع اليتيمة ما كتب الله لها من الإرث حين يرغب فى نكاحها ؟ وبماذا يصلح امرأته إذا أرادت أن تفدى منه - كل هذا مما تشدد الحاجة إلى معرفته بعد العمل بتلك الأحكام ، فمن ثم جاءت هذه الآيات مبينة أتم البيان لذلك .

أخرج ابن جرير قال : كان لا يرث إلا الرجل الذى قد بلغ أن يقوم فى المال ويعمل فيه ولا يرث الصغير ولا المرأة شيئاً ، فلما نزلت آيات المواريث فى سورة النساء شق ذلك على الناس وفالوا : أيرث الصغير الذى لا يقوم فى المال والمرأة التى هى كذلك فيرثان كما يرث الرجل ، فرجوا أن يأتى فى ذلك حدث من السماء فانتظروا فلما رأوا أنه لا يأتى حدث قالوا لئن تم هذا إنه لواجب ما عنه بدّ ، ثم قالوا سلوا فسلوا النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية .

الإيضاح

(ويستفتونك فى النساء) أى يطلبون منك الفتيا فى شأنهن ببيان ما غمض وأشكل من أحكامهن من جهة حقوقهن المالية والزوجية كالعدل فى المعاملة حين العشرة وحين الفراق والنشوز .

(قل الله يفتيك فىهن) بما يوحىه إليك من الأحكام فى كتابه .

(وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتوهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الولدان) أى ويفتيك فى شأنهن ما يتلى عليكم فى الكتاب مما نزل قبل هذا الاستفتاء فى أحكام معاملة يتامى النساء اللاتى قد جرت عادتك ألا تعطوهن ما كتب لهن من الإرث إذا كان فى أيديكم لولايتكم عليهن وترغبون فى أن تنكحوهن لجهلهم والتمتع بأموالهم ، أو عن أن تنكحوهن لدمايتهم فلا تنكحونهن ولا تنكحونهن غيركم حتى يبقى ما لهن فى أيديكم ، وقد كان الرجل منهم يضم اليتيمة وما لها إلى نفسه فإن كانت جميلة تزوجها وأكل المال ، وإن كانت دميمة عضلها عن الزوج حتى تموت فيرثها ، وما يتلى عليكم أيضاً فى شأن المستضعفين من الولدان الذين لا تعطونهم نصيبهم من الميراث ، وقد كانوا إنما يورثون الرجال دون الأطفال والنساء .

والخلاصة — أن الذى يتلى عليهم فى الضعيفين المرأة واليتيم هو ما تقدم فى أول

السورة وأن الله يذكركم بتلك الآيات المفصلة ليتدبروها ويتأملوا معانيها ثم يعملوا بها ، إذ قد جرت ضباع البشر أن يتغافوا عن دقائق الأحكام والعظات التى ترجعهم عن أهوائهم وتؤنبهم على انبعاث شهواتهم .

(وأن تقوموا لليتامى بالقسط) أى يفتيكم أن تقوموا لليتامى من هؤلاء النساء والولدان المستضعفين بالقسط ، بأن تهتموا بهم اهتماما خاصا وتغنوا بشأنهم ويجرى العدل فى معاملتهم على أكمل الوجوه وإتقانها ، فإن ذلك هو الواجب الذى لا هوادة فيه ولا خيرة فى شأنه .

(وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليا) أى وما تفعلوه من الخيرات لليتامى فهو مما لا يعزب عن علمه وهو مجازيكم به ولا يضيع عنده شئ منه .

(وإن امرأة خفت من بعلها نشوزا أو إعراضا) أى وإن توقعتم من بعلها نشوزا وترفعها عليها بما لاح لها من مخايل ذلك وأماراته بأن منعها نفسه ونفقتها والمودة والرحمة التى تكون بين الرجل والمرأة ، أو آذاها بسبب أو ضرب أو نحو ذلك ، أو إعراضا عنها بأن قلل من محادثتها ومؤانستها لبعض أسباب من طعن فى سن أو دمامة أو شئ فى الأخلاق أو الخلق أو ملال لها أو طموح إلى غيرها أو نحو ذلك .

لكن الواجب عليها أن تثبت فيما تراه من أمارات الإعراض فر بما كان الذى شغله عن مسامرتها والرغبة عن مباعلتها مسائل من مشا كل الحياة الدنيوية أو الدينية ، وهى أسباب خارجية لا دخل له فيها ولا تعلق لها بكرهاتها والجفوة عنها وحينئذ عليها أن تعذره ، وتصبر على ما لا تحب من ذلك ، أما إذا استبان لها أن ذلك لكرهته إياها ورغبته عنها .

(فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا) أى فلا بأس بهما فى أن يصلحا بينهما صلحا كأن تسمح له ببعض حقها عليه فى النفقة أو المبيت معها أو بحقتها كله فيهما أو فى أحدهما لتبقى فى عصمته مكرمة أو تسمح له ببعض المهر ومتعة الطلاق أو بكل

ذلك ليطلقها كما جاء في قوله تعالى : « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ »
 وإنما يحمل له ذلك إذا كان برضاها لاعتقادها أن في ذلك الخير لها بلا ظلم لها ولا إهانة.
 وقد روى أن امرأة أراد زوجها أن يطلقها لرغبته عنها وكان لها منه ولد فقالت
 لا تطلقني ودعني أقوم على ولدي وتنقسم لي في كل شهرين ، فقال إن كان هذا يصلح
 فهو أحب إليّ ، فأقرها على ما طلبت .

(والصلح خير) من التسريح والفراق ، لأن رابطة الزوجية من أعظم الروابط
 وأحقها بالحفظ وميثاقها من أغلظ المواثيق .

وعروض الخلاف بين الزوجين وما يترتب عليه من نشوز وإعراض وسوء
 معاشرة من الأمور الطبيعية التي لا يمكن زوالها من البشر .

وأجل ما جاء في الإسلام لمنعه هو المساواة بينهما في كل شيء إلا القيام برياسة
 الأسرة لأنه أقوى من المرأة بدنا وعقلا وأقدر على الكسب وعليه النفقة كما جاء
 في قوله « وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ » .

فيجب على الرجل أن يعاشرها بالمعروف وأن يتحرى العدل بقدر المستطاع .
 (وأحضرت الأنفس الشح) أي إن النفوس عرضة له ، فإذا عرض لها داع
 من دواعي البذل ألم بها الشح والبخل ونهاها أن تبذل ما ينبغي بذله لأجل الصلح ،
 فالنساء حريصات على حقوقهن في القسم والنفقة وحسن العشرة ، والرجال حريصون
 على أموالهم أيضا ، فينبغي أن يكون التسامح بينهما كاملا إذا قد ارتبطا ارتباطا وثيقا
 بذلك الميثاق العظيم وأفضى بعضهما إلى بعض .

(وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا) أي وإن تحسنوا العشرة
 فيما بينكم وتتقوا أسباب النشوز والإعراض وما يترتب عليهما من الشقاق ، فإن الله كان
 خبيرا بذلك لا يخفى عليه شيء منه ، فهو يجازي من أحسن الحسنى ويثيبه على ذلك .
 (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) أي مهما حرصتم على العدل
 والمساواة بين المرأتين حتى لا يقع ميل إلى إحداها ولا زيادة ولا نقص ، فمن تستطيعوا

ذلك ، ولو قدرتم عليه لما قدرتم على إرضائها به ، ومن ثم رفع الله ذلك عنكم وما كلفكم إلا العدل فيما تستطيعون بشرط أن تبدلوا فيه وسعكم ، لأن الباعث على الكثير من هذا الميل هو الوجدان النفسى والميل القلبي الذى لا يملكه المرء ولا يحيط به اختياره ولا يملك آثاره الطبيعية ، ولهذا خفف الله ذلك عنكم وبين أن العدل الكامل غير مستطاع ولا يتعلق به تكليف .

(فلا تميلوا كل الميل) أى وإذا كان ذلك غير مستطاع فعليكم ألا تميلوا كل الميل إلى من تحبون منهم وتعرضوا عن الأخرى .

(فتذروها كالمعلقة) أى كأنها ليست بالمتزوجة ولا بالمطلقة ، فإن الذى يغفره لكم من الميل هو ما لا يدخل فى اختياركم ولا يكون فيه تعمد التقصير أو الإهمال ، أما ما يقع تحت اختياركم فعليكم أن تقوموا به إذ لا هودة فيه .

(وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما) أى وإن تصلحوا فى معاملة النساء وتتقوا ظلمهن وتفضيل بعضهن على بعض فيما يدخل فى اختياركم كالقسم والنفقة فإن الله يغفر لكم ما دون ذلك مما لا يدخل فى اختياركم كالحب وزيادة الإقبال وغير ذلك .

وفى الآية عظة وعبرة لمن يتأملها من عباد الشهوات الذين لا يقصدون من الزوجية إلا التمتع باللذات الحيوانية دون مراعاة أهم أسس الحياة الزوجية التى ذكرها الله فى قوله « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » ولا يلاحظون أمر النسل وإصلاح الذرية ، هؤلاء السفهاء الذواقون الذين يكثرون من الزواج ما استطاعوا ولا باعث لهم إلا حب التنقل والميل من السابقة ولا يخطر لهم أمر العدل فى بال - عليهم أن يتقوا الله ويفكروا فى ميثاق الزوجية وفى حقوقها المؤكدة وفى عاقبة نسلهم وشؤون ذريتهم وفى حال أمتهم التى تتألف من هذه البيوت المبنية على أسس الشهوات والأهواء وفى حال ذريتهم التى تنشأ بين أمهاتها متعاديات .

(وإن ينفرقا يغن الله كلا من سعته) أى وإن ينفرق الزوجان اللذان يخافان ألا يقيما حدود الله بأن كره الرجل امرأته لدمامتها أو كبرها وأراد أن يتزوج غيرها أو كان عنده زوجان ولم يقدر على العدل بينهما - يغن الله كلا منهما عن صاحبه بسعة فضله ووافر إحسانه وجوده ، فقد يسخر للمرأة رجلا خيرا منه ، كما يهيئ له امرأة أخرى تحصنه وترضيه وتقوم بشؤون بيته وأولاده ، ولن يكون كل منهما جديرا بعناية الله وإغناؤه عن الآخر إلا إذا التزما حدود الله بأن اجتهدا فى الوفاق والصلح وظهر لهما بعد التفكير والتروى فى الأسباب أنه غير مستطاع ، فافترقا وهما حافظان لكرامتهما عما يجعلهما عرضة للنقد ونهش العرض ، فإن ذلك مما يرغب الناس فيهما لما يرونه فيهما من الأخلاق الفاضلة وعدم التلاخى والتناؤذ والتهاجى واختلاق الأكاذيب ، فالرجل ذوالخلق الكريم إذا علم أن امرأة اختلفت مع بعلمها لأنها لم تقبل أن تعيش مع من يعرض عنها أو يترفع عايتها بل أحببت أن تعيش معه بطريق عادلة يرى فيها أفضل صفات الزوجية .

وكذلك كرائم النساء وأولياؤهن يرغبون فى الرجل إذا علموا أنه يمسك المرأة بمعروف أو يسرحها بإحسان ولا يلجئه إلى الطلاق إلا الخوف من عدم إقامة حدود الله .

(وكان الله واسعا حكيما) أى وكان الله ولا يزال واسع الفضل والرحمة ، حكيما فيما شرعه من الأحكام التى جعلها وفق مصالح العباد .

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٣٢) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ

أَيُّهَا النَّاسُ وَيَاتِ بِآخِرِينَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا (١٣٣) مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (١٣٤)

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه بالعدل والإحسان إلى اليتامى والمساكين ، بين أنه ما أمر بهذه الأشياء لاحتياجه إلى أعمال العباد ، لأن كل ما فى السموات والأرض ملكه فهو مستغن عنهم وقادر على إثابتهم على طاعته فيما شرعه لخيرهم ومصالحتهم ، بل ليزدادوا بتدبرها إيماناً يحملهم على العدل بها والوقوف عند حدودها .

الإيضاح

(والله ما فى السموات وما فى الأرض) خلقاً وملكاً ، فهو وحده مدبر الأكوان فلا يتعذر عليه الإغناء بعد الفقر ولا الإيناس بعد الوحشة إلى نحو هذا مما ينبئُ بعظيم القدرة وكمال الجود والإحسان .

(ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله) أى ولقد أمرنا من قبلكم من اليهود والنصارى وغيرهم من سالف الأمم كما أمرناكم بتقوى الله فى إقامة سننه وإقامة شريعته ، فبالأولى ترقى معارفكم وبالثانية تزكو نفوسكم وتنظم مصالحكم الدينية والدنيوية .

(وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض) أى وإن تكفروا أنعم الله وتجدوا فضله وإحسانه فاعلموا أنه سبحانه مالك الملك والملكوت لا يضره كفركم ومعاصيكم كما لا ينفعه شكركم وتقواكم ، وصاكم وإياهم لرحمته لا لحاجته .

(وكان الله غنياً حميداً) أى وكان الله غنياً عن كل شئ بذاته ، محموداً بذاته

وكمال صفاته ، فهو لا يحتاج إلى شكركم لتكميل نفسه « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » وفي الحديث القدسي « يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِي فَتَضُرُونِي ، وَأَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي ، لَوْ أَنَّ أُولَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبَ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مَلِكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أُولَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَجْرٍ قَلْبَ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ فِي مَلِكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أُولَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْكُمْ وَجَنَّتُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ فِي الْبَحْرِ ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أَوْفِيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ » رواه مسلم .

(ولله ما في السموات والأرض وكفى بالله وكيلًا) أى له سبحانه ما فيهما خلقا وملكا يتصرف فيهما كيفما شاء إيجادا وإعدامًا وإحياء وإماتة ، وكفى به قيا وكفيلًا يوكل به أمر العباد في أرزاقهم وأقواتهم وسائر شؤونهم .

(إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بآخَرِينَ) أى إن يرد إفتاءكم واستئصالكم من الوجود وإيجاد قوم آخرين من البشر يحلون محلكم في الحكم والتصرف فهو قادر على ذلك لأن كل ما في السموات والأرض فهو تحت قبضته وخاضع لسلطانه والخلاصة — أن إبقاءكم على ما أتم عليه من العصيان إنما هو لكمال غناه عن طاعتكم ، ولأن مشيئته لم تتعلق بهذا الإفتاء لحكم ومصالح أرادها سبحانه لا لعجز عن ذلك ، تعالى الله علوا كبيرا .

ومثل هذه الآية قوله تعالى : « إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ » وقوله : « وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ » وفي هذه الآيات تهديد للمشركين الذين كانوا يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم ويقاومون دعوته ، وتنبيه الناس إلى التأمل في سنن الله التي جرت في حياة الأمم وموتها ، وإن هذه السنن إذا تعلق بها المشيئة وقعت لا محالة .

(وكان الله على ذلك قديرا) أى وكان الله قديرا على ذلك الإِفداء وإيجاد خلق آخر إذ بيده ملكوت كل شيء ، لكنه لحكم يعلمها لم تتعلق إرادته بذلك .

(من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة) أى من يرد منكم بسعيه وجهاده فى حياته نعيم الدنيا بأمال والجاه ونحوها ، فعند الله ثواب الدارين معا بما أعطاكم من العقل والشعور وهداية الخواص ، فعليكم أن تطلبوها معا ، ولا تكتفوا بما هو أدناها وهو ما يقضى وتتركوا أعلاها وهو ما يبقى ، مع أن الجمع بينهما هين ميسور لكم وهو تحت قدرتك وسطانكم ، فمن خطئ الرأى أن تتركوا ذلك وترغبوا عنه ، يل عليكم أن تقولوا - ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار - . وفى الآية إيحاء إلى أن الدين يهذى أهله إلى السعادتين ، وإلى أن ثواب الدنيا والآخرة من فضله تعالى ورحمته .

(وكان الله سميعا بصيرا) أى وكان الله سميعا لأقوال عباده حين مخاطبتهم ومناجاتهم ، بصيرا بجميع أمورهم فى سائر حالاتهم ، فعيهم أن يراقبوه فى الأقوال والأفعال ، وبنا تزكو نفوسهم وتقف عند حدود الفضيلة التى بها تسقى أمورهم فى دنياهم ، ويستعدون لحياة أبدية فى آخرتهم يكون فيها مقيمهم وثوابهم .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوَالِوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَلِلَّهِ أَوْلَىٰ بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ، وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٣٦)

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه بالقسط في اليتامى والنساء في سياق الاستفتاء فيهن ، لأن حقهن أكد وضعهن معهود - عم الأمر هنا بالقسط بين الناس ، لأن قوام أمور الاجتماع لا يكون إلا بالعدل ، وحفظ النظام لا يتم إلا به وبما فيه من الشهادة لله بالحق ولو على النفس والوالدين والأقربى وعدم محاباة أحد لغناه أو لفقره ، لأن العدل مقدم على حقوق النفس وحقوق القرابة وغيرها ، وقد كانت سنة الجاهلية محاباة ذوى القربى لأنه يعتز بهم كما كانوا يظلمون النساء واليتامى لضعفهن وعدم الاعتزاز بهن .

الايضاح

(يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط) القوام هو المبالغ في القيام بالشئ والإتيان به مستويا تماما لا نقص فيه ، وقد أمر الله بإقامة الصلاة وإقامة الشهادة وإقامة الوزن بالقسط تأكيذا للعناية بهذه الأشياء أى فتجعلوا العناية بإقامة القسط على وجهه صفة ثابتة لكم راسخة في نفوسكم ، والعدل كما يكون في الحكم بين الناس ممن يوليه السلطان أو يحكمه الناس فيما بينهم ، يكون في العمل كالقيام بما يجب بين الزوجات والأولاد من النصفة والمساواة بينهم ، ولو سار المسلمون على هدى القرآن لكانوا أعدل الأمم وأقومهم بالقسط ، وقد كانوا كذلك ردحاً من الدهر حين كانوا مهتدين بهديه ، ولكن قد خلف من بعدهم خلف نبذوا تلك الهداية وراء ظهورهم فصارت تضرب بهم الأمثال في ظلم حكامهم وسوء أحوالهم .

(شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربى) أى كونوا شهداء لله بأن تتحروا الحق الذى يرضاه ويأمر به من غير مراعاة أحد ولا محاباته ، ولو كانت الشهادة على أنفسكم بأن يثبت بها الحق عليكم (ومن أقر على نفسه بحق فقد شهد عليها

لأن الشهادة إظهار الحق) أو على والديكم وأقرب الناس إليكم كأولادكم وإخوتكم ،
إذ ليس من بر الوالدين ولا من صلة ذوى الرحم أن يعانوا على ما ليس لهم بحق بالإعراض
عن الشهادة عليهم أوليها والتحريف فيها ، بل البر والصلة في الحق والمعروف .
وليس من شك في أن الحياة قصاص ، فالذين يتعاونون على الظلم وهضم حقوق
الناس ، يتعاون الناس على ظلمهم وهضم حقوقهم ، فتكون المحاباة من أسباب فشوة
الظلم والعدوان والمفاسد التي لا يؤمن شرها .

(إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما) أى إن يكن المشهود عليه من الأfarب
أو غيرهم غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ، وشرعه أحق أن يتبع فيهما ، فحذار أن تحابوا
غنيا طمعا في بره ، ولا خوفا من أذاه وشره ، ولا فقيرا عطفا عليه وشفقة به ، فمرضاة
كل منهما ليست خيرا لكم ولا لهما من مرضاة الله ، ولستم أعلم بمصلحتهما من
ربهما ، ولولا أنه يعلم أن العدل وإقامة الشهادة بالحق خير للشاهد والمشهد عليه
لما شرع ذلك ولا أوجبه .

وقد روى ابن جرير عن السدى في سبب نزول الآية : أن رجلين فقيرا وغنيا
اختصما إلى النبي صلى الله عليه وسلم فكان حلفه (ميله القابى) مع الفقير ، يرى أن
الفقير لا يظلم الغنى فأبى الله إلا أن يقوم بالقسط فى الغنى والفقير ، وقال قتادة فى هذه
الآية : هذا فى الشهادة فأقم الشهادة يا ابن آدم ولو على نفسك أو الوالدين أو على
ذوى قرابتك وأشراف قومك فإنما الشهادة لله وليست للناس ، والعدل ميزان الله
فى الأرض ، به يرد الله من الشديد على الضعيف ، ومن الصادق على الكاذب ،
ومن المبطل على الحق اه .

(فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا) أى فلا تتبعوا الهوى لئلا تعدلوا عن الحق إلى
الباطل ، إذ فى الهوى الزلل .

(وإن تلوا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا) أى وإن تلوا أو ألسنتكم

بالشهادة وتحرفوها أو تعرضوا عنها فلا تؤدوها فالله خير بأعمالكم لا يخفى عليه قصدكم فهو مجازيكم بما تعملون .

وعبر بالخبير ولم يعبر بالعليم لأن الخبرة العلم بدقائق الأمور وخفاياها ، والشهادة يكثر فيها الغش والاحتيال حتى لقد يغش الإنسان فيها نفسه ويلتمس المعاذير في كتمان الشهادة أو تحريفها .

فيستدبر المسلمون ذلك وليعملوا بهدى كتابهم ويقيموا الشهادة بالحق ففي ذلك فلاحهم في دينهم ودنياهم .

(يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل) هذا خطاب لمؤمني اليهود ، فقد روى عن ابن عباس « أن هذه الآية نزلت في عبد الله بن سلام وأسد وأسيد ابني كعب وشعبة بن قيس وسلام ابن أخت عبد الله بن سلام ويامين بن يامين ، إذ أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا نؤمن بك وبكتابك وبموسى وبثوراة وعزير ونكفر بما سوى ذلك من الكتب والرسل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (بل آمنوا بالله ورسوله محمد وكتبه القرآن وبكل كتاب كان قبله) فقالوا لا نفعل ، فنزلت ، قال فآمنوا كلهم » : وقيل إن الخطاب فيها للمؤمنين كافة ، والمعنى ازدادوا في الإيمان طمأنينة ويقينا وآمنوا برسوله خاتم النبيين بالقرآن الذي نزل عليه وبالكتب التي نزلها على رسله من قبله ، فإنه لم يترك عباده في زمن ما محرومين من البينات والهدى .

وبعد أن أمر بالإيمان بما ذكر توعد من كفر بذلك فقال :

(ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا) أي ومن يكفر بالله أو بملائكته أو ببعض كتبه أو رسله أو اليوم الآخر (وهي أسس الدين وأركانه) فقد ضل عن صراط الحق الذي ينجي صاحبه في الآخرة من العذاب الأليم ويمتعه بالنعيم المقيم .

ومن فرق بين كتب الله ورسله فآمن ببعض وكفر ببعض كاليهود والنصارى

فلا يعتد بإيمانه، لأنه إما يتبع الهوى أو يقعد عن جهل وعى، ذلك أن سر الرسالة هى الهداية، ولم يكن بعض النبيين فيها بأكل من بعض، فإذا كفر ببعض الكتب أو الرسل كان كفره بها دليلاً على أنه لم يؤمن بشئ منها إيماناً صحيحاً مبيناً على فهم حقيقتها وانصهر بحكمتها، وكل ذلك من الضلال البعيد عن طرق الهداية.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا
لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧) بَشَرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ
لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَخَذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ
أَبْتَغُوا عِنْدَهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ
فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَعْبُدُوا
مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ، إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ، إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ
الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ، فَإِنْ
كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ، وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ
نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَاللَّهُ يَحْكُمُ
بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَإِنْ يَسْعَى اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١)

المعنى الجملى

ذكر الله تعالى في هذه الآيات حال قوم من أهل الضلال البعيد - آمنوا
في الظاهر نفاقاً، وكان الكفر قد استحوذ على قلوبهم ولم يجعل فيها مكاناً للاستعداد
للفهم، ومن ثم لم يمنهم ذلك من الرجوع إلى الكفر مرة بعد أخرى، إذ هم لم يفتقروا

حقيقة الإيمان ولا ذاقوا حلاوته ولا أشربت قلوبهم حبه ولا عرفوا فضائله ومناقبه ، ثم أوعد بعدد المنافقين بالعذاب الأليم وذكر أنهم أنصار الكافرين على المؤمنين فلا ينبغي للمؤمنين أن يتخذوا منهم أولياء ولا أن يبتغوا عندهم جاها ولا منزلة .

الإيضاح

(إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا) أى إن هؤلاء قد استبان من ذنباتهم واضطراب أحوالهم من إيمان إلى كفر ، ثم من كفر إلى إيمان وهكذا دواليك ، أنهم قد فقدوا الاستعداد لفهم حقيقة الإيمان وفقه مزاياه وفضائله ؛ ومثلهم لا يرجى لهم - على حسب سنن الله فى خليقته - أن يهتدوا إلى الخير ولا أن يسترشدوا إلى نافع ولا أن يسلكوا سبيل الله ، فجدير بهم أن يمنع الله عنهم رحمته ورضوانه ومغفرته وإحسانه لأن أرواحهم قد دنست ، وقلوبهم قد عميت ، فلم تكن محلا للمغفرة ولا للرجاء فى ثواب . والله أرحم الراحمين واسع المغفرة لم يكن ليحرم أحدا المغفرة والهداية بمحض الخلق والمشيئة ، وإنما مشيئته مقترنة بحكمته ، وقد جرت سنة الله وحكمته الأزلية بأن يكون كسب البشر لعلومهم وأعمالهم مؤثرا فى نفوسهم ، فمن طال عليه أمد التقليد حجب عن عقله نور الدليل ، ومن طال عليه عهد النسوق والعصيان حرم من أسباب الغفران التى ذكرها سبحانه فى قوله « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى » .

ولا شك أن المغفرة وهى محو أثر الذنب من النفس إنما تكون بتأثير التوبة والعمل الصالح الذى يزيل ماعلق فى النفس من تلك الآثام كما قال تعالى « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ » .

(بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما) البشارة لاتستعمل غالبا إلا فى سارّ الأخبار إذ هى مأخوذة من انبساط بشرة الوجه ، فاستعملها فى الأخبار السيئة يكون من باب

التهم والتوبيخ ، أى بشر المنافقين بالعذاب المؤلم الذى لا يقدر قدره ولا يحيط بكنهه إلاعلام الغيوب .

(الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين) أى هؤلاء المنافقون هم الذين يتخذون الكافرين المعادين للمؤمنين أولياء وأنصارا، ويتجاوزون ولاية المؤمنين ويتركونها ويمالئون الكافرين عليهم اعتقادا منهم أن الدولة ستكون لهم فيجعلون لهم يدا عندهم .

(أيتنغون عندهم العزة؟ فإن العزة لله جميعا) الاستفهام هنا للتوبيخ ، والعزة القوة والمنعة أى إن كان المؤمنون يطلبون عندهم العلبة والمنعة ، فإن العزة لله يؤتيها من يشاء ، فعليهم أن يطلبوها منه تعالى بصادق إيمانهم واتباعهم هدايته التى أرشد إليها أنبياءه وقد بينوا لهم أسبابها ، وقد آتاه الله المؤمنين حينما اهتمدوا بكتابه وساروا على سننه ونهجوا نهجه ، فلما أعرضوا عن هذه الهداية التى اعتر بها أسلافهم ذلوا وخنعوا لعدوهم وصار منهم منافقون يوالون الكافرين يبتغون عندهم عزة وشرفا وما هم لها بمدرकिन .

(وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره) الخطاب موجه إلى كل من يظهر الإيمان سواء أكان مؤمنا حقا أم منافقا ، وما نزل فى الكتاب هو قوله فى سورة الأنعام المكية « وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ » وقد كان بعض المسلمين يجلسون مع المشركين وهم يخوضون فى الكفر وذم الإسلام والاستهزاء بالقرآن ولا يستطيعون الإنكار عليهم لضعفهم وقوة المشركين ، فأمروا بالإعراض عنهم وعدم الجلوس معهم فى هذه الحال .

ثم إن يهود المدينة كانوا يفعلون فعل مشركى مكة وكان المنافقون يجلسون معهم ويستمعون إليهم فنهى الله المؤمنين عن ذلك .

والخلاصة - أنكم إذا سمعتم الكلام الذى يتضمن جعل الآيات فى موضع السخرية والاحتقار فابتعدوا عنهم ولا ترجعوا إليهم حتى يعودوا إلى حديث آخر .

وفى الآية دليل على اجتناب كل موقف يخوض فيه أهله بما يدل على التنقص والاستهزاء بالأدلة الشرعية والأحكام الدينية كما يقع من أسراء التقليد الذين استبدلوا آراء العلماء بالكتاب والسنة ولم يبق فى أيديهم إلا فال إمام مذهبنا كذا وقال فلان من أتباعه كذا ، وإذا استدلل أحد بآية قرآنية أو بحديث نبوى سخروا منه وظنوا أنه قد جاء بخطب شنيع وجعلوا رأى إمامهم مقدما على ما نطق به الكتاب وأرشدت إليه السنة .

(إنكم إذا مشاهم) أى إنكم إن قعدتم معهم تكونوا شركاء لهم فى الكفر ، لأنكم رضيتم به ووافقتموه عليه ، وفى الآية إيماء إلى أن من يقر المنكر ويسكت عليه يقع فى الإثم ، وإلى أن إنكار الشيء بمنع من انتشاره بين الناس .

وقد وقع فى هذا المنكر كثير من المسلمين ، فإنهم يردن الملحدين فى البلاد يخوضون فى آيات الله ويستهزئون بالدين وهم يسكتون عن ذلك ولا يبذلون إنكارا ولا اشمئزا ولا صدا ولا إعراضا .

(إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا) أى إنهم كما اجتمعوا على الاستهزاء بآيات الله فى الدنيا سيجمعون فى العقاب يوم القيامة ولا يخفى ما فى هذا من الوعيد للكفار والمنافقين .

(الذين يترصدونكم) يترصدون ينتظرون ما يحدث من خير أو شر أى إن هؤلاء المنافقين ينتظرون ما يحدث لكم من كسر أو نصر ، وشر أو خير .

(فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم ؟) أى فإن نصركم الله وفتح عليكم ادعوا أنهم كانوا معكم فبستحقون مشاركتكم فى النعمة وإعطائهم من الغنيمة .

(وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين) الاستحواذ: الاستيلاء على الشيء والتمكّن من تسخيره أو التصرف فيه أى وإن كان

للكافرين نصيب من الظفر منوا عليهم بأنهم كانوا عوناً لهم على المؤمنين بتخذييلهم والتواني في الحرب معهم وإلقاء الكلام الذى تخوّر به عزائمهم عن قتالكم فاعرفوا لنا هذا الفضل وهاتوا نصيبنا مما أصبتم .

وانسرفى التعبير عن ظفر المؤمنين بالفتح وأنه من الله ، وعن ظفر الكافرين بالنصب - الأيماء إلى أن العقوبة للحق دائماً وأن الباطل يهزم أمامه مهما كان له أول أمره من صولة ودولة ، وقد يقع إنشاء ذلك نصيب من الظفر للباطل ولكن تنتهى بغلبة الحق عايمه كما قال « وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ » مادام أهلهم متبعين لسنة الله بأخذ الأهبة وإعداد العدة كما أمر بذلك الكتاب العزيز بقوله « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ » .

وإنما غلب المسلمون فى هذه العصور على أمرهم وفتح الكافرون بلادهم التى فبحوها من قبل بقوة إيمانهم لأنهم تركوا أخذ الأهبة وإعداد العدة ، وقام أعداؤهم بكل ما استدعيه الحروب الحاضرة وأنشئوا البوارج والمدافع والديابات المندرة والغواصات المهيكة والطائرات المنتضة إلى نحو ذلك من آلات التدمير والهلاك فى البر والبحر والجو ووسائل ذلك من علوم طبيعية أو آسية (ميكانيكية) أو رياضية .

(فأن الله يحكم بينكم يوم القيامة) أى فأن الله يحكم بين المؤمنين الصادقين والمنافقين الذين يظاهرون الإيمان ويطنون الكفر حكماً يليق بشأن كل من الثواب والعقاب فيتنبأ أجباءً وعاقب أعداءه ، أما فى الدنيا فأنتم وهم سواء فى عصمة الأنفس والأموال كما جاء فى الحديث « فإذا قتلوها عصموا منى دماءهم وأموالهم » .

(وإن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً) أى إن المؤمنين ماداموا مستمسكين بدينهم متبعين لأمره ونهيه فمؤمن بعمل ما يستدعيه الدفاع عن بيضة الدين من أخذ الأهبة وإعداد العدة ، لن يغلبهم الكافرون ولن يكون لهم عليهم سلطان ، وما غلب المسلمون على أمرهم إلا بتركهم هدى كتابهم وتركهم أوامر دينهم وراءهم

ظهِرِيا ، فذلوا بعد عزة وأجلب الكفار عليهم بخيلهم ورجلهم ودخلوا عليهم في عُقر دارهم وامتلكوا بلادهم ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ، وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هُوَاءٍ وَلَا إِلَى هُوَاءٍ ، وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَلَنْ يُجِدَ لَهُ سَبِيلًا (١٤٣) .

شرح المفردات

الخداع: إيهام غيرك أن الشيء على ما يجب ويريد بتزيينك له وهو على غير ذلك، كسالى: واحد كسلان، وهو المتناقل المتباطئ، المراعاة: من الرؤية، وهى أن يكون من يرائيك بحيث تراه كما يراك فالمرأى يريهم عمله وهم يرونه استحسان ذلك العمل الذبذبة: حكاية صوت الحركة للشيء المعلق ثم استعمت في كل اضطراب وحركة .

المعنى الجملى

لا يزال الحديث في المنافقين وبيان أحوالهم بعد أن ذكر طرفاً منها قبل ذلك .

الإيضاح

(إن المنافقين يخادعون الله) أى يخادعون رسول الله أى يظهرون له الإيمان ويبطنون الكفر ، ونسب ذلك إلى الله من جهة أن معاملة الرسول بذلك كمعاملة الله به كما قال تعالى « إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ » .

وفى جعل ذلك خداعاً لله تنبيهه إلى شيئين فظاعة فعلهم فيما تحروه من الخديعة

إذهم بمخادعتهم للرسول إنما يخادعون الله ، وعظم شأن المقصود بالخداع وهو الرسول صلى الله عليه وسلم وأن معاملته بذلك كمعاملة الله به .

(وهو خادعهم) أى مجازيهم على خداعهم ، وسمى ذلك مخادعة مشاكلة للفظ الأول ، ونظيره « وَمَكْرُؤًا وَمَكْرَ اللَّهِ » وإنما جعل كذلك لأنه قد استعمل في المعانى المذمومة التى تتضمن السكذب أو تدل على ضعف صاحبها وعجزه غالبا .

وخلاصة المعنى — أنه عبر عن سنة الله فى عاقبة أمرهم فى العاجل والآجل من حيث إنها جاءت على غير ما يحبون بلفظ مأخوذ من المخادعة إذ أنهم بمخادعتهم للرسول والمؤمنين يسبغون فى طريق يضلون فيه وينتهون إلى الخزى والوبال من حيث هم يطلبون السلامة والنجاة ، فخادعتهم لأنفسهم بسوء اختيارهم لها هو مخادعة لله لهم ، إذ جرت سنته تعالى فيمن يعمل مثل عملهم أن يلاقى الخزى فى الدنيا والنكال فى الآخرة ، وهكذا حال المنافقين فى كل أمة وملة يخادعون ويكذبون ويكيدون ويفشون ويتولون أعداء أمتهم يبتغون بذلك يدا عندهم يمتنون بها إليهم إذا دالت دولتهم ، وكتب التاريخ ملأى بأخبار هؤلاء الأشرار ، ويكثر عددهم فى الامم فى أطوار الضعف وقوة الاعتداء إذ هم طلاب منافع يلتمسونها من كل فج ويسلكون لها كل طريق ولو فيما يضر أمتهم والناس أجمعين ، وقد روى عن ابن عباس أنه قال : خداعه تعالى لهم أن يعطيهم نورا يوم القيامة يمشون به مع المسامين فإذا وصلوا إلى الصراط انطفأ نورهم وبقوا فى ظلمة ، ودليله قوله تعالى « كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ » .

(وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى) أى متباطئين متشاقلين ليست لديهم رغبة تبعثهم على عمل ولا نشاط يدفعهم على فعل ، لأنهم لا يرجون ثوابا فى الآخرة ، ولا يخشون عقابا إذ لا إيمان لهم ، وإنما يخشون الناس ، فإذا كانوا بمعزل عن المؤمنين

تركوها ، وإذا كانوا معهم سيروهم بالقيام بها ، ومن كانت هذه حاله وقع عمله على وجه الكسل والفتور .

(يرأون الناس) بها أى يبتغون بذلك أن يراهم المؤمنون فيعدوهم منهم .
(ولا يذكرون الله إلا قليلا) أى لا يصلون إلا قليلا ، فإذا لم يره أحد لم يصلوا
وإذا كانوا مع الناس راءوهم وصلوا معهم .

(مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) أى مضطربين مائلين تارة إلى المؤمنين وتارة إلى الكافرين لا يخلصون إلى أحد الفريقين لأنهم طلاب منافع ولا يدرون لمن تكون العاقبة ، فتن ظهرت الغلبة لأحدهما ادعوا أنهم منه كما بين الله ذلك فيما سلف .

(ومن يضلل الله فمن تجد له سبيلا) أى ومن قضت سنته أن يكون ضالا عن الحق موغلا في الباطل بما قدم من عمل وتخلق به من خاق ، فمن تجد له سبيلا للهداية باجتهادك والمباينة في إقناعه بالحجة والدليل ، فإن سنة الله لا تتبدل ولا تتحول .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ،
أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (١٤٤) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ
الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا
وَاتَّصَفَوْا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَسَوْفَ يُؤْتِي
اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ
وَأَمَنْتُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧) .

المعنى الجملى

بعد أن ذم الله تعالى المنافقين بأنهم مذنبون لا يستقر لهم قرار ، فهم تارة مع المؤمنين وأخرى مع الكافرين ، حذر المؤمنين أن يفعلوا فعلهم وأن يوالى بعض ضعفائهم الكافرين دون المؤمنين ، يبتغون عندهم العزة ويرجون منهم المنفعة كما فعل حاطب بن أبى بلتعة إذ كتب إلى كفار قريش يخبرهم بما عزم عليه النبي صلى الله عليه وسلم في شأنهم ؛ لأنه كان له عندهم أهل ومال .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين) المراد بالولاية هنا النصرة بالقول أو بالفعل بما يكون فيه ضرر للمسلمين ، وهذا كقوله تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » . أما استخدام النعميين منهم في الحكومة الإسلامية فيس بمحذور ، والصحابة رضوان الله عليهم استخدموهم في الدواوين الأميرية ، وأبو إسحاق الصابى جعل وزيراً في الدولة العباسية .

(أنريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً) السلطان الحجة والبرهان ، والمبين هنا بمعنى البين في نفسه .

والمعنى - أنريدون أن تجعلوا لله عليكم حجة بينة في استحقاقكم لعقاب إذا اتخذتموهم أولياء من دون المؤمنين ؟ فإن عملاً كهذا لا يصدر إلا من مدقق .

(إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) الدرك والمدرك باسكون والتحريك : الطبقة أسفل من الأخرى ، فإذا كانت أعلى منها كانت درجة ، والنار سبع دركات سميت بذلك لأنها متداركة متتابعة ، وفى الآية إشارة إلى أن دار العذاب فى الآخرة

ذات دركات بعضها أسفل من بعض ، كما أن دار النعيم درجات بعضها أعلى من بعض .

وإنما كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار لأنهم شر أهلها ، إذ هم جمعوا بين الكفر والنفاق ومخادعة الرسول والمؤمنين وغشهم ، فأرواحهم أسفل الأرواح ونفوسهم أحط النفوس ، ومن ثم كانوا أجدر الناس بالدرك الأسفل منها .

أما أكثر الكفار فقد غلب عليهم الجهل بحقيقة التوحيد فهم مع إيمانهم بالله يشركون به غيره من صنم أو وثن يتخذونه شفيعا عنده ووسيطا بينه وبينه ، وقد قاسوا ذلك على معاملة الملوك المستبدين والأمراء الظالمين .

(وإن تجد لهم نصيرا) ينقذهم من ذلك العذاب أو يخففه عنهم فيرفعهم من الطبقة السفلى إلى ما فوقها .

(إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله) أى هذا الجزء الشديد الذى أعده الله لمنافقين لا يكون للذين تابوا من النفاق والكفر وندموا على ما فرط منهم وأتبعوا ذلك بأمور ثلاثة :

(١) اجتهدهم في صالح الأعمال التى تغسل أدران النفاق بأن يتزمووا الصدق في القول والعمل مع الأمانة والوفاء بالوعد ويخلصوا النصيح لله ورسوله ، وقيموا الصلاة مع الخشوع والخضوع ومراقبة الله في السر والعلن .

(٢) اعتصامهم بالله بأن يكون غرضهم من التوبة وصلاح العمل مرضاة الله ، مع التمسك بكتابه والتخلق بأدابه والاعتبار بمواعظه والرجاء في وعده والخوف من وعيده والأتمار بأوامره والالتئام عن نواهيه كما قال تعالى : « فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »

(٣) إخلاصهم لله بأن يدعو وحده ولا يدعوا من دونه أحدا لكشف ضر ولا جلب نفع ، بل يكون كل ما يتعلق بالدين والعبادة خالصا له وحده كما قال : « إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ تَسْتَعِينُ » وكما جاء فى قوله : « فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ » .

(فأولئك مع المؤمنين) أى فأولئك الثابتون يكونون مع المؤمنين ، لأنهم يؤمنون كما يمانهم ويعملون كعملهم فيجزون جزاءهم .

(وسوف يؤتى الله المؤمنين أجرا عظيما) أى وسوف يعطيهم الله الأجر العظيم الذى لا يقدر قدره ، كما قال تعالى : « فَلَا تَغْمُ نَفْسٌ مَّا أُخِفَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

(ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم) الاستفهام للانكار . والمعنى أنه تعالى لا يعذب أحدا من خلقه انتقاما منه ولا طيبا لنفع ولا دفعا لضر ؛ لأنه تعالى غنى عن كل أحد منزعه عن جلب منفعة له ولا دفع مضرة عنه ، بل ذلك جزاء كفرهم بأنعم الله عليهم فهو قد أنعم عليهم بالعقل والحواس والجوارح والوجدان ، لكنهم استعملوها فى غير ما خلقت لأجله من الاهتداء بها لتكميل نفوسهم بالفضائل والعلوم والمعارف ، كما كفروا بخالق هذه القوى فاتخذوا له شركاء ولا ينفعهم تسميتهم شفعاء أو وسطاء حتى فسدت فطرتهم ودنس أرواحهم ، ولو آمنوا وشكروا لظهرت أرواحهم وظهرت آثار ذلك فى عقولهم وسائر أعمالهم التى تصلحهم فى معاشهم ومعادهم واستحقوا بذلك رضوان الله « وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ » .

(وكان الله شاكرا عليما) أى يجعل ثواب المؤمنين الشاكرين على حسب عمله بأحوالهم ، ونيلهم من الدرجات أكثر مما يستحقون جزاء على شكرهم وإيمانهم كما قال : « وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ

عَذَابِي لَشَدِيدٌ» فهو يجزى بيسير الطاعات رفيع الدرجات ، ويعطى بالعمل في أيام معدودة نعماً في الآخرة غير محدودة .

وقفنا الله لصالح العمل وجعلنا من المؤمنين الشاكرين .
وصلى الله على محمد وصحبه وسلم .

وكان الفراغ من كتابة مسودة هذا الجزء في اليوم الثانى من المحرم سنة اثنتين وستين وثلاثمائة بعد الألف ، بمدينة حلوان بالديار المصرية .

فهرس

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء

المبحث	الصفحة
جاء الإحصان فى القرآن لعدة معان .	٥
الاسترقاق المعروف الآن فى بلاد الحجاز ، والسودان ، وبلاد الجراكسة ليس بشرعى .	٧
نكاح المتعة (النكاح المؤقت) حرام كالنكاح بنية الطلاق .	٨
كان الزنا فى الجاهلية قسمين سرى وعلنى كما هو الآن فى كثير من البلاد الإفريقية ومن قلدتهم فى البلاد الإسلامية .	١٠
مال الفرد مال الأمة مع احترام الحياة والملكية ، ولا يباح للمحتاج أن يأخذه إلا بإذن صاحبه .	١٧
مدار حل التجارة على التراضى فلا ينبغى أن يكون فيها غش ولا تدليس .	١٨
الدين قد جعل قتل غيرك قتلا لنفسك .	١٩
أسباب قوامة الرجال على النساء .	٢٧
التهيج القويم فى معاملة المرأة .	٢٨
الرجال الذين يستذلون نساءهم يلدون عبيداً لغيرهم .	٣٠
علاج الشقاق بين الزوجين إرسال حكيم حكم من أهله وحكم من أهلها	٣١
أمرنا بحسن معاملة الخادم والمولى .	٣٧

الصفحة	المبحث
٣٩	المرائى بخيل فى الحقيقة — الفارق بينه وبين المخلص فى عمله .
٤٠	القرين الصالح عون على الخير .
٤٤	يوم القيامة يود الكافر لو تسوى به الأرض ويكون ترابا .
٤٧	حكمة الاغتسال من الجنابة .
٥١	أهل الكتاب اشتروا الضلالة بالهدى فحرفوا الكلم عن مواضعه .
٥٥	اتفق الرسل جميعاً فى أسس الدين واختلفوا فى التفاصيل .
٥٨	ضروب الشرك — الحكمة فى عدم مغفرته .
٦١	تحذير المسلمين من الغرور بدينهم كما فعل أهل الكتاب .
٦٥	هل يعود الملك إلى اليهود ؟ .
٦٨	الحكمة فى تبديل جلود الكفار — رأى الطب فى ذلك .
٦٩	أزواج الجنة مبرات من العيوب الجسمية والنفسية .
٧٠	الأمانة ضروب وأنواع .
٧٣	الأصول التى بُنى عليها التشريع فى الإسلام .
٧٦	التحاكم إلى الدجالين وأصحاب المندل والرمل ومدعى الكشف والولاية .
٧٧	المنافقون يصدون عن التحاكم إلى الرسول .
٨٣	صادق الإيمان من يطيع الله فى المحبوب والمكروه .
٩٢	جرت سنة الله أن الحق يعلو على الباطل وأن البقاء للأصلح .
٩٧	كل شئ من عند الله فهو خالق الأشياء وواضع نظامها .
٩٨	طاعة الله من أسباب النعم ، وعصيانها مما يجلب النقم .
١٠٢	لو كان القرآن من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .
١١٧	الناس فى عصر التنزيل كانوا ثلاث فرق بالنسبة إلى هذا الدين .
١٢٣	للعلماء فى توبة قاتل المؤمن عمدا آراء ثلاثة .

الصفحة	المبحث
١٣١	لا تقبل مسامرة أهل البدع والأهواء خوفا من الأذى .
١٣٣	إذا لم يستطع الرجل إقامة دينه في بلد وجبت عليه الهجرة منه إلى بلد آخر
١٣٥	من سافر لأمر فيه ثواب كطالب علم وجب ومات قبل الوصول إلى مقصده كتب له أجر فعل ذلك .
١٣٦	السبب في شرع الهجرة في صدر الإسلام .
١٣٩	صلاة القصر في السفر وشرطها .
١٤٤	الحكمة في توقيت الصلاة .
١٤٨	لا ينبغي أن يظهر الميل الفطري أو الديني في مجلس القضاء .
١٤٩	من شأن العاصين أن يستتروا من الناس حين اجترأ السيئات ولا يستحيون من الله .
١٥٣	النجوى مظنة الشر ولا خير فيها إلا في الأمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس .
١٥٥	من يتردد عن الإسلام بعد ما ظهرت له الهداية على لسان رسله فأواه جهنم وبئس المصير .
١٥٧	لا يغفر الله الشرك لأحد ويغفر مادون ذلك لمن يشاء .
١٥٩	الشرك أصناف .
١٦١	من يتبع وساوس الشيطان فقد خسر خسرانا مبينا .
١٦٢	وعد الشيطان غرور من القول وزور .
١٦٥	كل ما أصاب المسلم كفارة له حتى الشوكة يشاكها .
١٦٦	النجاة والسعادة في الآخرة منوطان بصالح العمل مع الإيمان .
١٧٠	في الكتاب ما يجب من معاملة الضعيفين المرأة واليتيم .

الصفحة	المبحث
١٧١	إذا خافت المرأة من الزوج نشوزا وإعراضا فلا بأس في أن تتسامح في بعض حقوقها عليه أو كلها لتبقى في عصمته .
١٧٢	العدل غير مستطاع بين الأزواج فيجب مراعاته على قدر الإمكان .
١٧٣	ميثاق الزوجية ميثاق مؤكد يجب احترامه .
١٧٤	إذا افترق الزوجان وراعيا حدود الله يسر الله لهما من فضله وجوده خير العوض من صاحبه .
١٧٨	تحرى الحق والعدل في الشهادة ولو على النفس أو الوالدين والأقربين .
١٨٢	المغفرة إنما تكون بتأثير التوبة والعمل الصالح في النفس حتى يزيل ما علق بها من الآثام .
١٨٣	نهينا عن الجلوس في الأماكن التي فيها ذم الإسلام والاستهزاء بالقرآن .
١٨٥	ما غلب المسلمون في هذه العصور ولا فتح الكفار بلادهم إلا بترك الأهبة وإعداد العدة .
١٨٥	لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ما داموا مستمسكين بدينهم متبعين لأوامره .
١٨٧	المنافقون في كل أمة وملة يخادعون ويكذبون ويقولون أعداء أمتهم ينتفون بذلك يدا عندهم .
١٩٠	المنافق إذا تاب واجتهد في صالح الأعمال واعتصم بالله وأخلص له العمل يعفو الله عنه .
١٩١	العذاب جزاء على الجرائم التي تصدر عن الفاعل لها .